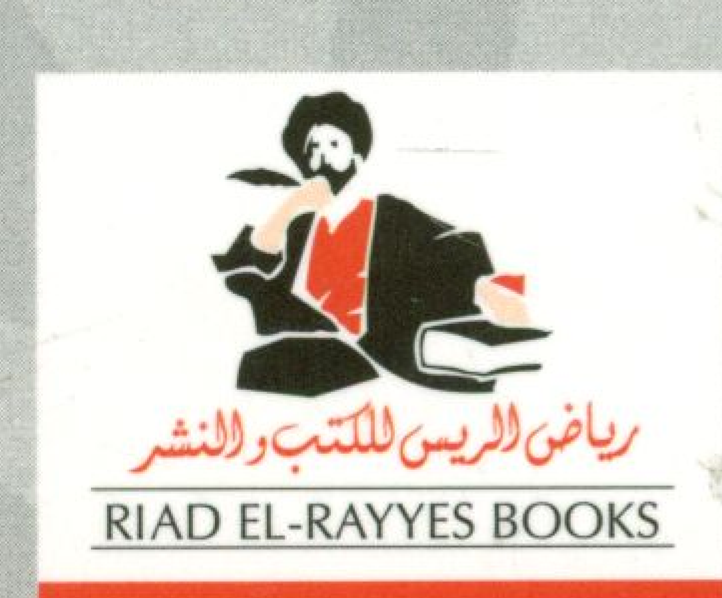
عـزّت صَافي

السينور

رواية





السينيور

عزت صافي

السينيور

رواية



EL SEÑOR

Novel

Izzat Safi

First Published in January 2013

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 978 - 9953 - 21 - 552 -5

الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) ٢٠١٣

لوحة الغلاف: للرسام عارف الريس

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

في هذه الرواية أسماء مركّبة لأشخاص، وعائلات ومدن، وفنادق، وقرى، وأمكنة عامة. وكلّها أسماء افتراضيـة، ولا تمتّ إلى أحد بصلة. لذلك، فإنّ أي تماثل بينها وبين أسماء موجودة هو محض مصادفة.

على المرء أن يقوم بتمرين يومي على احترام الذات

شارل ديغول

I

فتح نزيل الغرفة رقم ١٧ ، في «أوتيل دي مارين»، باب شرفته، وأطلّ على الشارع.

كان «أوتيل دي مارين» ـ ومعناه بالعربية: فندق البحّار ـ منبسطاً على جناحين، وسط حديقة واسعة، إلا أن طبقاته لم تكن لتزيد عن ثلاث.

ولأنّ الأوتيل من الطراز التوسكاني القديم، فإن نزيل الغرفة رقم ١٧ في الطبقة الثالثة، وجد نفسه واقفاً في مكان مرتفع. كانت شرفته الموقع الأجمل في الأوتيل، فهي تطلّ على الواجهة البحرية لمدينة بيروت، وبالتحديد واجهة «عين المريسة». وإذ التفت نحو الشرق، طالعه الفجر وهو يجلو قمة جبل صنين، راسماً حدود التلال النازلة على الجانبين، حتى السفوح.

وإذ استدار نحو الغرب، شاهد نجوماً مُشعّة تطفوعلى سطح البحر.

كانت في الأفق بقية من طبقة عتمة. بيد أنها كانت ما تزال كافية لتحمي شُعاع تلك النجوم قبل أن تنوص وتذوب في اليمّ. ولم تكن تلك النجوم إلّا قناديل زوارق الصيادين.

في تلك الأثناء، تناهى إلى سمع نزيل الغرفة ١٧ صياح ديك. وعلى الأرجح أن ذلك الديك كان يصيح من بستان قريب يُسمّى «جلّ البحر».

وما إن كفّ الديك عن الصياح حتى راحت ساعة «كولدج هول» ترسل دقاتها، معلنة الرابعة. كان بإمكان النزيل الواقف على الزاوية الشمالية ـ الغربية من الجناح الغربي في الأوتيل، أن يرى واجهة الساعة مضاءة على برجها في وسط حرم الجامعة الأميركية.

وما هي إلا ثوانٍ حتى صمتت الساعة، فبدأ النزيل يسمع إيقاعاً راقصاً، فخيّل إليه، أو هو تعمّد التخيل، أن ذلك الإيقاع ما هو إلّا نغم رقصة «فلامنكو»، أو هو نغم زفّة مصرية آتية من أندية شاطىء الليل في حي «الزيتونة» في بيروت.

لكن، ومن بعيد، وصلت نفحة من رائحة قهوة بنكهة العطر. كانت تلك قهوة سراة الفجر. وهؤلاء كانوا صنّاع الخبز، وحَمَلَة قوارير الحليب، وباعة عربات الخضرة والفاكهة، وكنّاسة الشوارع، وعتّالة الميناء، ومعهم الفوج الأخير من الصحافيين، ورفاقهم عمال المطابع.

كان ساقي قهوة سراة الفجر يمرّ خفيفاً على الرصيف، مثل طيف

أبيض. كان هو ذاته صانع الإيقاع الراقص بفناجينه الصغيرة. وبفناجينه تلك كان يسكب لسراة الفجر قهوة الصحوة.

لم يسبق لنزيل الغرفة ١٧ أن تمتّع بذلك المشهد الذي لا موعد له، إلّا مع الفجر. وهو لم يكن حديث العهد في «أوتيل دي مارين». فهو في هذا الأوتيل، وفي هذه الغرفة بالذات، منذ ثمانية أشهر. إنه مقيم دائم. كان من عادته أن يأوي إلى غرفته قبيل منتصف الليل، فيقرأ قليلاً، ويكتب قليلاً، وأحياناً يرسم بالقلم الرصاص أشكالاً، أو وجوهاً، ثم ينام. لكنه في الليلة التي كانت قد انتهت للتوّ، لم يستطع النوم، فالحرّ كان ثقيلاً، وقد فاق المعدلات.

كان شهر حزيران من تلك السنة قد هلَّ برياح خماسينية، فجففت الأرض باكراً، وهددت المواسم بالبوار.

ولعلّ ما ساعد النزيل على قضاء الليل ساهراً، أنه كان قد حمل معه إلى الغرفة كتاباً جديداً اشتراه وغرق في قراءته. كان مؤلف الكتاب أديباً فرنسياً، باحثاً، وسياسياً سبق له أن عايش الحرب الكونية الثانية، مفكراً ومحارباً. هذا ما قرأه نزيل الغرفة ١٧ في نبذة التعريف بالمؤلف.

وإذ نبّهته ساعة «كولدج هول» بدقة واحدة أدرك أنها إشارة إلى الرابعة والنصف، فضبط عقربيْ ساعة المُنبّه على الحادية عشرة. ثم اندسّ في فراشه ونام.

في الحادية عشرة والنصف تماماً، كانت المضيفة «مايسا» في

كافيتيريا الأوتيل تبدِّل غطاء الطاولة الأخيرة في صالة الترويقة، حين سمعت صوت نزيل الغرفة ١٧ يُلقي عليها تحية الصباح ويسألها:

ـ هل لي بفنجان قهوة فقط؟

ـ بالتأكيد، قالت «مايسا» بلغة فرنسية رنانة، مع إبداء استعدادها لتقديم الخبز والزبدة والمربى أيضاً. لكن النزيل شكرها مكتفياً بطلب فنجان القهوة.

في ذلك الوقت كان ساعي البريد المعروف في «عين المريسة» باسم «ديبو» يقف على زاوية شارع «رستم باشا» وقد أسند دراجته إلى حافة الرصيف. رفع قبعته إلى الخلف، ومسح عرق جبينه بكمِّه. كانت قبعته تشبه قبعات سائقي حافلات «الترامواي» التي كانت تجوب شوارع بيروت. وكانت سترته تشبه ستراتهم.

كانت نقطة انطلاق «ديبو» تبدأ كل يوم من الشارع المشترك بين «ميناء الحصن» و«عين المريسة».

وكانت الرسالة الأولى تحمل عنوان «أوتيل دي مارين» ـ تقاطع شارع حيرام مع شارع عين المريسة ـ بيروت». وكان العنوان مكتوباً بلغة فرنسية أنيقة. أما الاسم الموجّهة إليه الرسالة فكان مكتوباً باللغة الإسبانية.

ولاحظ ساعي البريد أن الرسالة موجهة في الأصل إلى عنوان

آخر هو: «ربوا» ـ جبل لبنان، وقد شُطِب هذا العنوان، كما شُطب الاسم المكتوب بخط عربي رديء.

كذلك لاحظ أن الرسالة تحمل في أعلاها طابع جمهورية الأرجنتين، مع خاتم مركز بريد «بوانس آيرس».

نحو خمسين متراً فقط كانت تفصل «أوتيل دي مارين» عن الزاوية التي يقف عليها ساعي البريد في شارع «رستم باشا»، فدفع دراجته بيده، وراح يمشي إلى جانبها نحو بوابة الأوتيل.

عند هذه البوابة يتوقف «ديبو» كل أسبوع مرة أو مرتين. وفي كل مرة يرفع نظره إلى القوس الذي يعلو البوابة، وقد ثُبت عليه اسم الفندق بأحرف فرنسية كبيرة من النحاس الأصفر اللامع (Hotel du Marin). ولكثرة تلميع الأحرف باستمرار فإنها تبدو وكأنها من الذهب الخالص.

وكعادته كل مرّة، شدّ «ديبو» أطراف سترته إلى تحت، ثم رفع قبعته، ومسَّدَ شعره بأصابعه. ولما اطمأنّ إلى هندامه حمل حقيبته ومشى بخطوات متماسكة، والرسالة بيده.

كانت «مدام أولغا» وراء مكتبها في زاوية من ردهة الاستقبال في الطابق الأرضي، وكانت أمامها صحيفة لبنانية تصدر باللغة الفرنسية صباح كل يوم في بيروت. ولم تكن المدام قد قرأت بعد سوى العناوين الكبيرة على عرض الصفحة الأولى.

كان العنوان الأبرز في الصحيفة الفرنسية ذلك اليوم: «تظاهرة شعبية ضخمة في ساحة البرج».

وتحت ذلك العنوان الكبير كان عنوانان فرعيّان: «تحذير من ثورة على الغلاء والفساد» - «المتظاهرون يحطّمون حافلة ترامواي».

ما إن رأت «مدام أولغا» ساعي البريد يطلّ من الباب الواسع حتى رفعت نظارتيها عن عينيها، وأومأت إليه بأن يقترب.

وضع «ديبو» حقيبته على الأرض، وجلس على الكرسي «الستيل»، وقد مدّ يديه، وضم كفيه، وشدّ عليهما بين ركبتيه، وهو يثبت نظره على أسفل حافة مكتب المدام.

وإذ أعادت المدام نظارتيها إلى عينيها، وفي ظنها أن الرسالة لها، أو لابنتها «ليديا»، فوجئت بأن الرسالة تحمل باللغة الإسبانية اسم «SEÑOR JANAD ALAFANDI» (السينيور جاناد آلافاندي)، فالتفتت نحو موظفة الاستقبال في الزاوية المقابلة وسألتها:

ـ هل غادر الرقم ١٧؟

ـ نعم مدام، منذ وقت قليل.

فكتبت المدام الرقم ١٧ على الرسالة، وحوّلتها إلى موظفة الاستقبال. ثم أزاحت الصحيفة جانباً، وتطلعت إلى «ديبو» لتقول له شيئاً. لكن في تلك اللحظة دخل البهو أحد النزلاء. كان يتأبّط قبعته، وفي يده حقيبته الصغيرة، فتحول نظر المدام إليه وهو يلقي عليها تحية الصباح ليبلغها أنه مغادر.

كان النزيل قبطاناً على إحدى البواخر الراسية في ميناء بيروت، وقد أمضى ليلة واحدة في الأوتيل، وكانت عيناه تُنبئان بأنه مرهق من السهر، والخمر، وثالثهما. .

ـ مُغادر؟ سألته المدام بالانكليزية.

ـ نعم سيدتي.

ـ هل تمتعتَ بإجازتك في بيروت؟

ـ بكامل متعتي.

ـ هل سنراك مرة ثانية ؟ سألته وهي تزم عينيها.

ـ أتمنى ذلك. قال القبطان، ثم مدّ يده مودعاً السيدة التي مدت إليه يدها وهي جالسة، فلاحظ خاتم خطوبة في إصبع يدها اليُمنى.

لكن القبطان المغادر لاحظ، وهو يأخذ يد السيدة المتألقة بأناقة أريستوقراطية، أن في إصبع يدها اليسرى، أيضاً، خاتماً مماثلاً، فتمهَّل قبل أن يفك أصابعه عن أصابعها ليتأمل، بإعجاب، وجهها المائل إلى اللون العاجيّ، وعينيها اللّتين بلون فستانها الكحلي الغامق، وقد كانت فتحة العنق واسعة بما يسمح للعقد الفضِّي الرفيع أن يكشف عن الصليب الصغير المعلق فيه.

كان وجه المدام يعكس شعوراً بالسرور. غير أنه سُرور مكسوٌّ بمسحة حزن تزيده عذوبة.

ـ «حظاً سعيداً في البحر، وفي البر».

قالت المدام للقبطان وهو ينحني ليرفع حقيبته عن الأرض. بيْدَ أنه، عندما استقام، طلب من المدام ورقة تحمل اسم الفندق وعنوانه.

ـ بكل سرور. ثم قدمت إليه ورقة، فأخذها، واستأذن ليضع قبعته على طرف المكتب أمامها.

وإذ انحنى ليكتب بعض الكلمات على الورقة، راحت هي تحدِّق في القبعة التي تحمل رمز البحرية الإيطالية. ولم ترفع نظرها عنها إلا عندما استقام القبطان ليُفاجئها بإعادة الورقة إليها.

وضعت نظارتيها على عينيها. ولم تكن النظارتان بسبب من ضعف في النظر أكثر من أنهما كانتا من دواعي إضفاء المهابة على وجه السيِّدة التي كانت تقارب الأربعين.

وراحت تقرأ بتأنّ ما كتبه القبطان على الورقة:

«إسمي الكابتن لوتشو. إيطالي، عنواني: البحر. هل تسمح السيدة الجميلة بأن تكتب لي اسمها وعنوانها؟».

تطلّعت المدام إلى القبطان، وأخذت تتفحصه بكبرياء. وكان هو يقف أمامها مشدود القامة، مكتفاً يديه. تناولت قلمها المذهّب، وكتبت على الورقة عينها بضع كلمات، ثم دفعتها برفق على سطح المكتب نحو القبطان، فتناولها، وقرأ ما كتبت:

«إسمي أولغا. يونانية. أما عنواني فتراه أمامك على الجدار».

نظر القبطان فوراً إلى الجدار، ولم يكن ثمة عنوان. كانت لوحة فنية في إطار فخم. وراح يتأمل تحفة زيتية تمثل مشهد «قوس قُزح» ينطلق من شمال الأفق، راسماً على غيمة رمادية مزيج ألوانه، قبل أن يهوي مثل سهم في البحر.

عاد القبطان ينظر إلى المدام، وقد تعمَّدَ أن يحدق في عينيها ملياً، ثم انحنى ليكتب على الورقة ذاتها بضع كلمات أخرى، ويعيدها مجدداً إليها. فأعادت النظارتين إلى عينيها وقرأت ما كتب:

«سيدتي، إني لا أرى غير قوس قُزح...».

ومثله حدّقت ملياً في عينيه، ثم تناولت قلمها المُذهّب وكتبت في الفسحة الباقية في أسفل الورقة الصغيرة بضع كلمات. وهذه المرة لم تدفع الورقة إليه، بل طوتها بعناية لتسلمه إياها بيده. ففتح الورقة، وقرأ ما كتبت:

«لا تحاول أيها البحار، الوصول إلى قوس قزح».

ظلّ القبطان جامداً في مكانه. وعندما رفع نظره إلى المدام رأى على وجهها ابتسامة ذابلة، إنما مُهابة. كانت قبعته ما تزال على طرف مكتبها. وكانت «أولغا» تختلس النظر إلى القبعة كلما كان ينحني ليكتب كلماته على الورقة.

كانت الورقة قد امتلأت بحوار صامت، وكانت ما تزال مفتوحة بين أصابعه، فطواها متأنياً، ثم فتح زر الجيب الصغير في صدر سترته، ووضع الورقة فيه.

وعاد ونظر إلى السيدة باحترام. وإذ أخذ قبعته عن المكتب وركّزها على رأسه، رفع يده إلى جبينه، وأدى للسيدة تحية شبه عسكرية. ثم حمل حقيبته. ومضى.

وفيما راح يعبر البهو، خارجاً ببزته البيضاء، وبخطوات واسعة، كانت مدام أولغا تتابعه بنظراتها وهي تُتمتم في سرها كلمات تمنَّت لو أنها استطاعت أن تكتبها له في أسفل الورقة: «كم تشبه «بانوس» أيها القبطان الذاهب إلى البحر».

في تلك الأثناء، كان عدد من النزلاء يدخلون ويخرجون، فيما كان على الكرسي، إلى يمين مكتب المدام، رجل جالس يشدّ ركبتيه على كفيه ونظره إلى الأرض. ولم يكن ذلك الرجل سوى ساعي البريد «ديبو»، وقد فاجأ المدام بسؤال:

ــ مدام، من هو «السينيور جاناد آلافاندي» الذي يقيم عندكم؟

وقبل أن تجيب طرح عليها سؤالاً آخر:

ــ هل هو بحَّار؟

ــ لا، ليس بحاراً. قالت من دون اكتراث. ثم من دون أن تلتفت إليه، سألته وهي تفتح الصحيفة:

ـ هل يهمّك الأمر؟

ـ كنتُ أظن أنه ممنوع على غير أجنبي، أو غير بحار، أن ينزل في هذا الأوتيل.

كانت «أولغا» تنظر بطرف عينها إلى الصحيفة الفرنسية التي عنونت صفحتها الأولى بأخبار مثيرة، وكانت تحاول أن تقرأ مقدمة التفاصيل ليشعر «ديبو» بضرورة الانصراف. لكن أسئلته جعلتها تعيد النظر إليه لتقول:

ـ ليس ممنوعاً على أحد النزول في هذا الأوتيل. ولماذا يكون ممنوعاً؟

واستطردت: جاناد آلافاندي مقيم عندنا منذ ثمانية أشهر. وليس من يقيم هنا بصورة دائمة سوى أنا وابنتي «ليديا» والمضيفتين «مادلين» و«مايسا»، والحارسين المناوبين، وهما كما تراهما، أحياناً، بلباس بحار. وأحدهما هو فعلاً بحّار سابق.

شعر «ديبو» بأنه أزعج «المدام» بأسئلته، فرفع حقيبته مُستأذناً بالانصراف. لكن «أولغا» استمهلته لتقول له :

ـ لم تخبرني ماذا حدث أمس في ساحة البرج؟

ـ تظاهرات. تظاهرات هائلة، يا مدام.

وحاول أن يُكمل، كمن يريد أن يثبت سعة اطلاعه ووفرة معلوماته، لكن «أولغا» أومأت إليه بأن يسكت. . فقالت:

ـ أعرف، أعرف. لقد فهمت ذلك من عناوين الصحيفة. لكني قصدت أن أستوضح منك لماذا حطّم المتظاهرون نوافذ حافلة الترامواي ولماذا اشتبكوا مع رجال البوليس؟

ضحك ديبو ساخراً:

ـ وهل يجوز أن تقوم عندنا تظاهرة من دون تكسير واشتباك مع الشرطة؟

لم تعلّق أولغا. كانت قد استوت على مقعدها، وراحت تُمسِّد جفونها، ثم نادت «مادلين» وغمزتها.

وفهم ديبو ماذا تقصد المدام، فلبث في مكانه، مطبقاً كفيه بين ركبتيه. وما هي إلا دقيقة حتى عادت «مادلين» بزجاجة من النبيذ اليوناني ملفوفة بورق هدايا فأخذها «ديبو» وغادر.

عادت «أولغا» إلى الصحيفة الفرنسية لتقرأ تفاصيل تظاهرة «ساحة البرج» في قلب بيروت، فاستوقفتها صور ثلاث لافتات عليها كتابات عربية بأحرف كبيرة بالأسود والأحمر. ثم نادت مادلين لتقرأ لها اللافتات وتترجمها إلى الانكليزية.

كانت اللافتات الأولى تحمل أربع كلمات:

الفساد + البطالة + الغلاء = ثورة.

وكانت اللافتة الثانية تحمل عبارة «الاستقلال لا يكفي. الشعب يريد الحرية والعدالة».

أما اللافتة الثالثة فكانت قطعة قماش باللون الأحمر كُتِبَ عليها «فلسطين عربية، تسقط الصهيونية».

لم تعرْ «أولغا» اهتماماً كبيراً للافتات بقدر ما اهتمت بالتفاصيل. فقد قرأت أن ثلاثة شبّان أوقفوا بعد الاصطدام مع رجال الشرطة. ولفت انتباهها أن اسم أحد الموقوفين يبدأ بحرفيْن .J.A.

كادت تطوي الصحيفة وتزيحها جانباً، لو لم تقرأ في التفاصيل أن الشبان الموقوفين الثلاثة خضعوا للتحقيق بتهمة الانتماء إلى منظمة يسارية ثورية تعمل في بيروت.

وفجأة دهمها خاطر سريع جعلها تعيد النظر في الحرفين الأولين من اسم أحد الموقوفين .J.A. من يكون هذا غير «السينيور جاناد آلافاندي» الذي يقيم عندنا؟ تمتمت «أولغا» وهي تهز رأسها، وتعضّ شفتها، وقد توقفت عن متابعة القراءة في الصحيفة. ولم تكن تحتاج إلى برهان معاكس لظنها. فالحرفان الأولان من اسم الموقوف الأول ينطبقان على نزيل الغرفة رقم ١٧.

أن يكون هو ذاته «جاناد آلافاندي»، وأن يكون هو المشارك في التظاهرة، وقد أوقف وجرى تحقيق معه ثم أفرج عنه.. كل هذا مهم ومفاجىء بالنسبة إلى «أولغا». إنما الأهم هو أن «جاناد آلافاندي» مشتبه فيه بأنه ينتمي إلى «منظمة يسارية ثورية». أما الأخطر من ذلك، فهو أن الشرطة سجلت حتماً عنوانه في أوتيل «دي مارين».

ظهر القلق في عيني «أولغا» وأخذت تتلمظ حين لمع في رأسها سؤال ساعي البريد «ديبو» عن «جاناد آلافاندي» ولماذا يقيم عندكم هنا ؟

ـ «هل وقعنا في مصيبة؟» .

أخذت التساؤلات المثيرة تتصادم في رأس أولغا، فشعرت، وهي المرأة الصلبة، باضطراب ورجفة في يديها، فنادت «مايسا» وطلبت منها كأس «فودكا» .

ـ مدام هذا ليس وقته. قالت «مايسا» مستغربة الطلب .

ـ لا بأس . علقت أولغا وهي منحنية على مكتبها والصحيفة الفرنسية أمامها . وراحت تفرك جبينها بأصابعها .

جاءت «مايسا» بكأس «الفودكا» من البار فجرعته أولغا على دفعتين .

ثم، وهي تتلمظ، استدعت «مادلين»، وطلبت منها الرسالة التي أتت باسم **«السينيور جاناد آلافاندي»** .

وإذ تناولت الرسالة راحت تتلمسها من كل جوانبها لعلها تستنتج ماذا في داخلها . لكنها لم تستنج سوى أنها رسالة في داخلها بعض الأوراق، كما أي رسالة عادية .

ظلت «أولغا» صامتة، وشاحبة، بضع دقائق قبل أن ترفع صوتها مُنادية مرة أخرى «مادلين» :

ـ هاتي مفتاح الغرفة ١٧ .

وبانتظار المفتاح وضعت رسالة «السينيور» في درج مكتبها، وبدت مترددة. إذ كانت تفكر في فتح الغرفة لتفتيشها كما يفعل رجال المباحث.

ومع أنها كانت تدرك أن قرارها مخالف لأخلاقها، ومناقض لتعليماتها الصارمة التي تصدرها إلى جميع العاملين والعاملات في الأوتيل، فقد صممت على فتح الغرفة ١٧ ، ضاربة عرض الحائط بتوجيهاتها الخطية:

«كل شيء في الأدراج، وفي ملابس النزلاء، وفي العلب، وعلى الطاولات،هو تحت الأمانة، وهو مقدس، حتى الكتب والأوراق المفتوحة، سواء كانت مطبوعة، أو بخط اليد. هي أيضاً مقدّسة. والاطلاع عليها يشكل خرقاً للأخلاق، ويحاسب عليه الضمير».

كانت «أولغا» تجعل ضميرها مصدر إيمانها. إلّا أنها كانت قد حسمت قرارها بفتح الغرفة ١٧ ، «فمنْ يكون نزيل هذه الغرفة غير أحد هؤلاء الموقوفين بتهمة الانتماء إلى منظمة ثورية سرية تعمل في بيروت». أوَ لا يمكن أن يكون ساعي البريد «ديبو» مخبر مباحث، وقد ظنّ أنه وقع على صيد ثمين في أوتيل «دي مارين»؟ كانت تسائل نفسها، وتراجع ذاكرتها، فتستخرج منها مزيداً من الهواجس المُفزعة.

جاءت «مادلين» بالمفتاح رقم ١٧ وانسحبت عائدة إلى «كونتوار» الاستقبال. فنظرت أولغا إلى الساعة الكبيرة المعلقة

على جدار البهو، وراحت تراقب حركة «الباندول». كانت الساعة تقارب الثانية عشرة والنصف ظهراً. وإذ حوّلت نظرها إلى المفتاح بدت وكأنها تتهيب لمسه كما لو أنه ذخر مقدس.

لم تكن قد دخلت تلك الغرفة منذ أن استأجرها «السينيور جاناد آلافاندي»، فقد كانت تحترم خصوصيات هذا النزيل الدائم.

وقفت متردِّدة أمام الباب، وعندما مدت يدها لتضع المفتاح في القفل، ارتجفت أصابعها كما لو أنها تفتح غرفة بقصد السرقة. بيد أنها تغلبت على الرجفة، ودخلت الغرفة، ثم طبقت الباب خلفها. وللحظات ظلت جامدة في مكانها، فيما عيناها تجولان على الأرض، وعلى الزوايا والجدران.

وما لبثت أن ركّزت نظرها على كلمات مكتوبة بأحرف بارزة باللغة الانكليزية، ومعلقة على الجدار في إطار بسيط، فوق السرير: «مملكة السماء موجودة في داخلك. وفي داخلك أيضاً مملكة الجحيم».

شعور بالرهبة خالج قلبها، فحوّلت نظرها نحو طاولة صغيرة للكتابة في الزاوية، فرأت عليها بعض الصحف المرتبة: «لوموند» الفرنسية، و«لوفيغارو»، ثم «لومانيتيه» الناطقة باسم الحزب الشيوعي الفرنسي. ثم «تايمس» و«دايلي تلغراف» و«إيكونوميست» الانكليزية.

وبالتفاتة إلى رفّ يرتفع قليلاً عن الأرض رأت ثلاثة مجلدات أنيقة: الانجيل، والقرآن، والتوراة.

ثم كتاب «جمهورية أفلاطون» بالانكليزية. وقد تمنّت لو أنه نسخة أصلية باللغة اليونانية.

أما المفاجأة التي بعثت الخدر في أصابع «أولغا»، فقد جاءت عندما رأت على رف مجلدات الأديان كرّاساً صغيراً بالفرنسية، عنوانه: «المانيفست» الشيوعي الأول لكارل ماركس وفريدريك أنجلز.

وإذ حوّلت نظرها إلى رف آخر ظهرت أمامها مجموعة من كتب الأدب، والفلسفة، والشعر والمسرح، باللغات الثلاث: الفرنسية والعربية والانكليزية: هيغل، وكانط، وجان جاك روسو، وموليير، وشكسبير، وفولتير، وبودلير، وطاغور، وجبران خليل جبران، وطه حسين، وميخائيل نعيمة، والمتنبي، وابن الرومي، وأبو نواس.

وكانت هناك زاوية لكتب العلوم السياسية والعلاقات الدولية، وروايات بوليسية.

إلى كلّ ذلك استرعت انتباه «أولغا»، بصورة خاصة، مجموعة أوراق عليها خطوط ورسومات بالقلم الرصاص، تمثل وجوهاً ومناظر طبيعية من الأرياف، ولوحات تعبيرية من زواريب المدن، وجمال القرى.

تشوشتْ أفكار «أولغا» فأحست بالعرق يرطب وجهها وعنقها، ووجدت نفسها قاعِدة، تلامس يداها سجادة عجمية مستديرة على أرضية الغرفة، وقد شكّل الرخام الأبيض الموشح باللون

الزهري إطاراً فخماً لقطعة رائعة من نسج أنامل «أصفهان».

لم يبقَ إلا أن تكتشف ماذا في داخل خزانة الملابس، فقامت مرتبكة مثل لصّ يقوم بعملية سرقة للمرة الأولى.

فتحت الدرفة وألقت نظرة سريعة، ثم طبقتها من دون أن تلمس شيئاً، حتى من دون أن ترى شيئاً.

ثم، وهي واقفة خلف الباب المقفل من الداخل، راحت تعيد النظر إلى كل شيء في الغرفة. وإذ تأكدت من أنها لم تترك أثراً، حتى لنظراتها، فتحت الباب وخرجت ثم أقفلته بهدوء.

وببطء يبلغ درجة الخمول، أخذت تهبط الدرج إلى الطابق الأول، ثم إلى الطابق الأرضي عائدة إلى ركنها في بهو الاستقبال.

ومجدداً، وراء مكتبها، راحت تحاول أن تكتشف من يكون ذلك «السينيور»، وتتساءل:

«من أي مملكة هو؟ من مملكة السماء أم من مملكة الجحيم؟»

«إذا كان شيوعياً، فإن مملكته ليست في السماء. وساعي البريد «ديبو»، هل هو مخبر مباحث أم هو عميل استخبارات؟ ولحساب من يعمل؟».

إلاّ أنها استدركت خواطرها وقالت لذاتها: إن «ديبو» لا يبدو عليه الذكاء ليقوم بمثل هذه المهمات. بل إنه بسيط وساذج.

«ولكن أليس التظاهر بالسذاجة، والبساطة، من أساليب الاستخبارات؟».

هكذا تمكّن منها القلق إلى حدّ اليقين بأن «ديبو» مخبر مباحث. فهو، بحكم وظيفته ساعي بريد، يجول في كل أنحاء المدينة. يدخل الفنادق، ومكاتب الشركات، ودور السفارات، ودوائر الحكومة. يجمع المعلومات، والأقاويل، والشائعات. ثمّ إنه يعرض خدماته على من يحتاج إليها وخصوصاً عليها هي بالذات، فهو يلبِّي كل طلباتها، يدفع فواتير الهاتف، والكهرباء، والمياه، ورسوم البلدية، ويتابع معاملات الأوتيل في الدوائر الرسمية، ويأتي إليها أحياناً ببعض الأخبار التي يسمعها، بل إنه يروي لها بعض الفكاهات بواسطة «مادلين» التي تغرق في الضحك قبل أن تترجم الفكاهة إلى «أولغا» فتخسر الكثير من نكهتها بالعربية».

«أيُعقل أن يكون «ديبو» عميل استخبارات؟ وعليّ أنا؟»

«حتى لو كان عميلاً فعلاً، وكان «جاناد» شيوعياً، وعضواً في منظمة ثورية سرية، فما هي مسؤوليتي أنا. وما علاقتي بالأمر؟!». . هكذا بدأت أولغا تهدىء هواجسها وقلقها، وهكذا عاودها بعض الاطمئنان فطلبت كأساً ثانياً من «الفودكا» ثم انتقلت إلى البار المفتوح على صالة لعرض لوحات فنِّية.

كانت ابنتها «ليديا» هناك. وكانت تتأمل لوحة جديدة علقتها للتوّ على الجدار، فنظرت إلى أمها، والكأس في يدها:

ــ ما هذا ماما؟ أليس الوقت باكراً على «الفودكا»؟

لم تردّ أولغا إنما قالت لليديا:

ــ هل يمكنك أن تستدعي صديقك «باسم»؟ أريده فوراً.

ــ ألهذا الحدّ الأمر ضروري؟

ــ نعم. إنه صديق «السينيور جاناد آلافاندي»، وهو من أتى بجاناد إلى «أوتيل دي مارين». أريد أن أعرف من هو جاناد هذا؟

نظرت «ليديا» إلى ساعتها، كانت تشير إلى الواحدة والنصف تقريباً، وهذا وقت غداء صديقها «باسم» في منزله، فاتصلت به. لم يعتذر، وكان منزله على مسافة قصيرة من شارع «رستم باشا».

في حضور الأم والابنة معاً، من عادة «باسم» أن يتكلم بالانكليزية التي تتقنها الأم بطريقة أفضل من الفرنسية. أما ليديا فإنها تفضل أن يكلمها بالفرنسية. فلولا اللغة الفرنسية لما التقت به في ذلك المعهد المسائي الخاص باللغات.

وللحظات، بقيت أولغا عابسة، وليديا صامتة. وتأكد «باسم» أنه يواجه مشكلة شخصية معه، فاستعد للمواجهة.

ــ «باسم». قالت أولغا، وصمتت وهي تنظر في عينيه.

ــ نعم مدام.

ـ أريد أن أعرف من هو «جاناد آلافاندي». وأتمنى أن تكون صريحاً وواضحاً في إجابتك.

ارتاح «باسم». إذ تبيّن له أنه ليس المقصود. ولكن قبل أن يبدأ الجواب فاجأته «أولغا» بنبرة حادة:

ـ أريد أن أعرف هل «جاناد آلافاندي» شيوعي؟ يساري؟ ثوري؟ ينتمي إلى حزب؟ إلى منظمة سرية؟. ماذا؟. من هو؟

وتطلّع «باسم» إلى «ليديا»، فرمقته بنظرة رجاء أن يتحمّل أسئلة والدتها. فقال:

ـ حسناً، مدام، سوف أكون صريحاً وواضحاً كما تتمنّين. لكن من أين جئتِ بلقب «سينيور» لصديقي جاناد؟

ـ لستُ أنا من جاءه باللقب. فقد أتته اليوم رسالة من «بوانس أيرس». أعرف أن كلمة «سينيور» بالإسبانية تعني «السيد». لكن «مادلين» قالت لي إنها قرأت على ظرف الرسالة كلمة «سينيور» مكتوبة بالعربية أيضاً. وهذا يعني أن جاناد يُنادى «السينيور» بالإسبانية وبالعربية.

ـ أنا لا أعرفه إلا «جاناد»، ولم أسمع أحداً يناديه «سينيور».

حسمت «أولغا» الجدل بإشارة من يدها قائلة:

ـ إنس السينيور. من هو «جاناد آلافاندي»؟

وكأنه يُدلي بإفادة أمام مستنطق قال باسم:

ـ أعرف جاناد منذ أكثر من سنتين. كنا قد التقينا في الجامعة في سنتنا الأولى في كلية العلوم السياسية. كان هو يقيم في شقة صغيرة في منطقة رأس بيروت، فعائلته من إحدى مناطق الجبل العالية. وقد أخبرني أنه كان، قبل بداية مرحلته الجامعية، تلميذاً في مدرسة خاصة قريبة من بلدتهم. وهو بقي في تلك المدرسة حتى بلغ نهاية المرحلة الثانوية، ثم انتقل إلى بيروت.

ـ وماذا بعد. ماذا عن «جاناد» شخصياً؟

ـ إنه زميل دراسة. فنحن معاً في جامعة واحدة، ونحن معاً في السنة الثالثة. وندرس العلوم ذاتها.

ـ لماذا أتيت به أنتَ إلى هنا؟

ـ كان يقيم وحيداً في شقة فاخرة. لكنه كان يشكو فقط من فقدان الخدمة. وأنا الذي نصحته بأن ينتقل إلى «أوتيل دي مارين».

بدأ الملل يغشو وجه أولغا فقاطعت باسم من جديد، لكن هذه المرة ببعض اللطف:

ـ كل ما قلته حتى الآن كان مهماً، لكن هناك ما هو أهم. أنت لم تجب عن سؤالي الأول بعد.

ـ ماذا كان سؤالك الأول مدام؟

ـ سألتك إذا كان «جاناد» شيوعياً، أم أنه ينتمي إلى منظمة ما؟

فأجاب «باسم» وهو يشيح بنظره جانباً:

ــ أفهم من سؤالك هذا أنكِ قرأتِ ما نُشر صباح اليوم في جريدتك الفرنسية عن تظاهرة «ساحة البرج» أمس.

ــ صح، وإني أكرر سؤالي لك للمرة الثالثة: هل جاناد شيوعي؟ يساري؟.. ثوري؟

فقال باسم ببلادة:

ــ هذه هي تماماً الأسئلة التي طرحها ضابط المباحث أمس على «جاناد» في دائرة الشرطة.

ــ إذاً، .J.A هو جاناد آلافاندي الذي اعتقلته الشرطة أمس خلال التظاهرة؟

ــ نعم، هذا هو عينه جاناد آلافاندي. قال «باسم» بهدوء تام.

ــ ولماذا اعتقلوه ثم أفرجوا عنه؟

ــ لأنه كان مشتبهاً فيه بالانتماء إلى منظمة يسارية ثورية سرية، وقد ظهر من التحقيق معه أنه بريء، ولا علاقة له بأي منظمة سرية أو علنية، فأخلوا سبيله. هذا كل شيء مدام.

وعلقت أولغا، لكن بانفعال:

ــ وماذا يُؤكّد لي أنه بريء؟ وماذا يعنيني أنا من أمره؟ ليكن ما يكون، وليذهب إلى الجحيم. هذا شأنه. فليرحل من هنا

وليفعل ما يشاء. لا أريد أن تأتي الشرطة إلى هذا الأوتيل وتُخرج منه نزيلاً مُكبّلاً بالأصفاد.

في تلك الأثناء كان باسم قد استطاع أن يُرتّب في ذهنه بعض الكلمات، فاستعد ليتلوها على أولغا. قال لها:

ـ واضح أنك تخافين الشيوعية، وأنا لا أعرف سبباً لخوفك هذا، ولست لأطلب منك إيضاحاً. لكني لا أظن أنك تجهلين أن الحزب الشيوعي يعمل علناً في لبنان. وهذا لا يعني أن السلطة ترحب به. بل هي تكافحه حيث تتمكن. إنما ليس لهذا الحزب خلايا ثورية سرية. فالشيوعيون ليسوا مؤهلين لإعلان ثورة. ثم إن اليساريين ليسوا جميعهم شيوعيين. وسوف أعطيك مثلاً من تظاهرة الأمس. أنا كنت في تظاهرة ساحة البرج. لكني لم أكن في المقدمة. جاناد، أو السينيور، كما تقولين، هو الذي كان في المقدمة، وكان أحد الذين شاركوا في رفع اللافتات. وكان صوته الأعلى في الهتافات المرددة: «لتسقط إسرائيل». لتسقط بريطانيا». لتسقط أميركا وحلفاء الاستعمار».

«كنتُ أنا في الصف الثاني، وكنا نمشي متراصّين، نشبك كوعاً بكوع. وفجأة طلع من صفنا صوت يصرخ: «ليسقط ستالين حليف الصهيونية»، فردَّ عليه أحدهم من الصف الأول، وقد التفت إلى الخلف ليقول له بنبرة عالية: «إخرس يا عميل».

لكن صاحب الصوت في صفنا لم يسكت، بل صاح بصوتٍ عالٍ ردّاً على صاحب الصوت في الصف الأول: «إخرس

أنت وزعيمك ستالين الذي خان أحرار الأمة العربية، ووافق على تقسيم فلسطين، وأعدم الملايين من المُثقفين والشعراء والعمال السوفيات. أنتم عملاء استعمار أسوأ وأشرس من أي استعمار آخر».

كان «باسم» قد اخترع حواراً لا يُصدّق افترض أنه جرى خلال تظاهرة شعبية، لكنه أراد أن يقول لأولغا كلاماً يُرضيها، ويهدىء خوفها. وقد نجح، إذ إن «اولغا» رفعت رأسها، وأشعلت سيجارة. ثم، من دون أن تلتفت إليه، قالت:

ـ إنك لم تجب، بعد: هل جاناد آلافاندي شيوعي أم لا؟

فنفخ «باسم» نفَساً طويلاً:

ـ حسناً، مدام، هل تريدين محضراً عن استجواب جاناد آلافاندي في دائرة الشرطة أمس؟

هزّت رأسها علامة «نعم»؛ فقال باسم:

«كانت التظاهرة قد اخترقت ساحة البرج باتجاه البرلمان، قاصدة السرايا. وما إن حاذت المركز الرئيسي للشرطة والمباحث حتى تعالت الهتافات الصاخبة، أكثر، فأكثر. شتائم من العيار الثقيل تتساقط على أسماء وألقاب كبيرة. ثم انطلق رصاص، وبعده متفجرة، فعمّت الفوضى، ونزلت القبعات العسكرية، والبنادق إلى «ساحة البرج»، وانهالت الهراوات والكرابيج على رؤوس الصف الأول في التظاهرة».

ولم يتوقف «باسم» لحظة، ولم يتمهل، بل تابع بسلاسة وببساطة:

ـ لقد أذهلني جاناد بشجاعته، وبهدوئه وشدة بأسِهِ. كان يُوجّه ضربات، ويتلقّى ضربات، ويتقدم. أصيب بجرح في جبينه، وسال دمه، وظلّ يتقدم. وقد تعاون ضابط وثلاثة شرطيين حتى تمكّنوا من تكبيله وسوقه إلى النظارة.

فقاطعت «أولغا» «باسم» ولكن بلهجة معتدلة:

ـ «باسم»، اسمع. أنت تقول كلاماً كثيراً، والمطلوب واحد:

هل جاناد شيوعي؟ لقد قالت الشرطة في تقريرها أنها عثرت في مكان ما على رقعة صغيرة من الخشب، كُتبت عليها عبارة «منظمة العدل الثوري»، وكانت مُلقاة في «كابين» حراسة مهجور، بالقرب من المكان الذي انفجرت فيه القنبلة اليدوية.

ـ مدام أولغا، هذه لعبة كبار يقوم بها صغار، محاولين تمريرها على الشعب لخداعه وتحريضه على اليسار.

رفعت أولغا كفيها في وجه باسم ليسكت، ثم قالت له، وهي تقطّع كلماتها حرفاً، حرفاً:

«. . أريد. . أن . . . أعرف. . ماذا. . . جرى . . مع جاناد آلافاندي. . في التحقيق. . . هذا كل شيء. .».

ـ حسناً، مدام، سوف أقول لك ما ورد في المحضر:

لقد فتح الكاتب دفتره، وفتح مفوّض الشرطة تذكرة هوية جاناد، وبدأ استجوابه:

ـ إسمك؟

ـ جاناد.

ـ إسم عائلتك؟

ـ الأفندي.

ـ الأفندي أم آلافاندي»؟

ـ بالعربية يُلفظ اسم عائلتي ويُكتب «الأفندي»، أما باللغات الأخرى فيُلفظ ويُكتب «آلافاندي».

ـ اسم والدك؟

ـ شاهين

ـ اسم والدتك؟

ـ هيلا.

ـ المذهب؟

تردّد جاناد قبل أن يجيب:

ـ إذا سمحت لي، حضرة المفوّض، لن ألفظ الجواب عن هذا السؤال. فالجواب مكتوب، وواضح أمامك، كما هو مدوّن في تذكرة الهوية.

أعادَ المفوّض النظر في خانة المذهب في هوية جاناد، ثم سأله:

ــ أين أنت مولود يا جاناد؟

ــ في «ربوا»، جبل لبنان.

ــ عنوانك الدائم؟

ــ «ربوا»، جبل لبنان.

ما إن سمعت «أولغا» العنوان الذي أدلى به جاناد لمفوض الشرطة حتى استرخت على مقعدها، وأخذت نفساً عميقاً، ثم بدت وكأنها لم تعد مكترثة بباقي التفاصيل، فالعنوان ليس «أوتيل دي مارين».

لكنّ «باسم» رفع نبرة صوته، ليقول إن مفوض الشرطة دخل، بعد ذلك، في خلفيات التظاهرة، فسأل جاناد:

ــ هل أنت شيوعي؟

ــ لست شيوعياً.

ــ ما هو معتقدك السياسي؟

ــ هذا شأن شخصي خاص بي. أعتذر عن عدم الجواب.

ــ أجوبتك أكبر منك يا جاناد؟

ـ عفواً، حضرة المفوض، ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنك تتكلم كسياسي محترف.

ـ أنا طالب جامعي سنة ثالثة، في كلية العلوم السياسية. نعم أنا سياسي. أما أني محترف، فلا. ثم متى كانت السياسة حِرفة أو تهمة؟

ـ ماذا تعمل خارج الساعات الجامعية؟

ـ أمارس هواياتي.

ـ ما هي هواياتك؟

ـ هل تدخل هواياتي ضمن حق الاستجواب؟

ـ بالتأكيد. وبإمكانك أن تمتنع عن الجواب إذا شئت.

ـ حسناً، هواياتي الرسم والموسيقى والغناء.

ـ والكتابة. أليست من هواياتك؟

ـ الكتابة ليست هواية.

ـ والرسم؟

ـ أسعى لأن أبلغ درجة الاحتراف.

ـ هل لك لوحات تحمل توقيعك؟

ـ ما زلت في مرحلة التعلم والتمرين.

ـ أين تتمرّن؟

ـ في محترف رسام فرنسي يُدعى «دانيال».

ـ أين يقع هذا المحترف؟

ـ في منطقة «الجمّيزة» شارع غورو.

فتح المفوض درجه وسحب ملفاً فتحه وأخذ يتصفّحه، ثم قال:

ـ «دانيال» هذا جنسيته فرنسية، وهو من أصل تونسي.

ـ ما دمتم تملكون كل هذه المعلومات، فما الحاجة إلى إفادتي؟

ـ للتأكد من صحة معلوماتنا. علق المفوض، ثم أملى على الكاتب ختام محضر الاستجواب: «تُليت عليه إفادته فوقعها».

ثم سأل «باسم» المدام:

ـ هل لديكِ، بعد، أي شبهة على جاناد؟

لم تكترث للسؤال. ولم تجب عنه. إنما قالت وهي تنظر إلى ساعتها:

ـ كنت أريد أن أسألك ماذا عنك أنت. لكن تأخر موعد غدائي.

فقال باسم ضاحكاً:

ـ حكايتي أطول بكثير من حكاية جاناد.

علّقت أولغا هازئة: «تستطيع أن تؤجِّل حكايتك إلى موعد آخر».

ثم أردفت ساخِرة:

ـ ومن يمكن أن تكون غير ثرثار؟!

وإذ نهضت، شعرت «ليديا» بأن والدتها وجّهت إهانة إلى «باسم»، فخاطبتها باليونانية معاتبة.

لكن «أولغا» استشاطت غضباً، ثم خطفت حقيبتها ومشت نحو بهو الاستقبال، فلحقت بها «ليديا»، وتبعها «باسم»، وكان متجهم الوجه. ولعله كان يبحث عن كلمات يقولها دفاعاً عن كرامته المهدورة.

بيْدَ أن «أولغا» عادت وصرخت في وجه ليديا بالإنكليزية، أمام «باسم» في بهو الاستقبال:

ـ سوف أتركك مع هذا المجهول الغامض الذي يُدعى صديقك.

ثم اتجهت مسرعة إلى غرفتها. فناداها «باسم» بصوت عال:

ـ مدام أولغا..

ولم تلتفت إليه. فرفع صوته بغضب:

ـ مدام أولغا..

فتوقفت، كما لو أنها اصطدمت بجدار. واستدارت نحوه ببطء، وهي تنظر إليه باشمئزاز:

ـ ماذا تريد، أيها المُتطفِّل؟

فاقترب منها، وراح يتأملها، ثم قال:

ـ جاناد آلافاندي ليس شيوعياً. أنا الشيوعي. قال ذلك وهو يدق على صدره بقبضة يده.

ارتسمت ابتسامة شماتة على شفتي أولغا، وهي تنظر إلى ليديا قائلة:

ـ ما كنتِ لتصدقيني عندما كنتُ أقول لكِ إنه شيوعي.

ثم أردفت بأعلى صوتها:

ـ إنه ليس شيوعياً فحسب، بل إنه خبيث، وحاقد، ووقح.

وطلع صوت باسم على مداه:

ـ «أما أنتِ، فلست إلّا بورجوازية فاجرة».

ثم غادر الأوتيل، فيما تسمّرت «أولغا» في مكانها. وما لبثت أن مشت نحو غرفتها.

ولم تمضِ لحظات حتى سُمعت صفقة باب أحدثت رجّة في بهو الأوتيل.

□ □ □

II

كانت قد مضت ساعة قبل أن تجرؤ ليديا على الوقوف أمام غرفة والدتها لتنقر بأصابعها على الباب كهرة صغيرة. وقد انتظرت حتى سمعت أمها تقول:

ـ عودي «ليديا» بعد ساعة.

في الداخل، كانت مروحة كبيرة تدور في السقف، فيدور معها في أرجاء الغرفة هواء رطب ترافقه وشوشة رتيبة. كانت الغرفة مفروشة بحصير من قشور القصب، وكانت «أولغا» قد قذفت فردتَّيْ حذائها من قدميها بنزق. لم تكن ترتجف بعصبية فحسب، بل إن صرير أسنانها كان يطنّ في أُذنيها. ولو أنها اقتربت من المرآة ونظرت إلى وجهها في تلك اللحظات لكانت حطّمت المرآة حتماً. بيْد أنها وقفت في وسط الغرفة وراحت تنظر إلى الرجل المعلق على الجدار:

ـ «. . بانوس. .».

صرخت «أولغا» بصوت مبحوح في فضاء الغرفة، وهي ترنو إلى الوجه المبتسم ذي العينين الخاطفتين.

كان وجه الرجل صورة ضمن برواز فضي. وفوق الصورة قبعة عسكرية بأشرطة مذهبة، وتحت الوجه بزة بيضاء بأزرار صفر لامعة.

تقدّمت أولغا ورفعت الصورة من مكانها. أمسكت بجانبي البرواز، وأبعدت الوجه مدى ذراعيها. وإذ شعرت بأن الوجه يرتجف بين يديها، لم تستطع أن تتغلب على رجفة يديها، فقالت للوجه:

ـ بانوس، يداي ترتجفان، أما قلبي فهادىء، لأنك أنت الساكن فيه.

ثم راحت تخاطبه، وقد استعادت نبرة صوتها الصادح:

ـ «بانوس»، أنا أراك الآن أمامي، قريباً مني جداً، أقرب ما تكون. أراك بنصف قامتك المديدة. بوجهك الضاحك أبداً. عيناي على رمز سلاح البحرية الذي يرصّع قبعتك. إني أتحسّس الأشرطة المذهّبة على كتفيك، فأكاد أصرخ: تكلم يا كولونيل. .

ثم قالت وقد انخفض صوتها:

لكن نظري يستقر الآن على الثقب الأحمر في سترتك البيضاء، تماماً تحت رقعة الأوسمة على صدرك، عند موقع القلب. لقد صوّب رجال العصابة رصاصهم جيداً فلم يخطئوا الهدف.

«بانوس، هل تقصّيت معلومات عن عصابة الثأر العادل؟

«بانوس، لا أريد أن أسبِّب لك قلقاً في سكينتك، لكني في حاجة إليك، فأنا وليديا في بيروت، وقد اكتشفت اليوم أن لدينا العصابة ذاتها، إنما باسم آخر.

«بانوس، لا تقلق. لن أدعهم ينالون منا.

أنهت «أولغا» عهدها لزوجها المعلق على الجدار، ثم أخذت وردة حمراء من كوب الماء إلى جانب السرير، ففرطت أوراقها في راحة يدها، ثم دعكت بها فمها، وقامت وطبعت قبلة على فم الكولونيل الضاحك.

وفي تلك اللحظة سمعت خربشة أظافر على الباب، كخربشة هرّة صغيرة، فقالت: «أدخلي ليديا».

كانت «أولغا» مستلقية على السرير قبالة المشهد الثابت للرجل المعلق على الجدار، فاستلقت ليديا إلى جانب أمّها، وأخذت يدها اليسرى ولفتها حول عنقها، فقالت «أولغا»، وعيناها على الجدار:

ـــ هذا اليوم، كان صعباً جداً عليّ.

ظلّت ليديا ساكتة. فقد كانت تحدق في خمس كلمات باليونانية مكتوبة بأحرف كبيرة ضمن برواز أثري تكريماً لقداستها. ثم سألت أمها:

ــ هل تقرئين، ماما، هذه الكلمات كل يوم؟

ــ نعم أقرأها كل يوم.

ــ هل يمكنك أن تقرئيها لي الآن كي أسمعها بصوتك؟

من دون أن تتطلع «أولغا» إلى الكلمات قرأتها:

«عقيدة أثينا: العقل والحكمة والشجاعة..».

وساد الغرفة سكون تملأه رتابة وشوشة المروحة.

فقالت ليديا لوالدتها، وهي تنظر إلى السقف:

ــ أنتِ تذكّرينني دائماً بأننا أمة عظيمة قامت حضارتها على العقل والقوة، واشتهرت بالشجاعة والحكمة. فكيف يسوّغ لك وهمك أن جاناد آلافاندي ينتمي إلى عصابة سرية قتلت والدي قبل عشر سنوات؟

وكيف تسمح لك عقيدتنا الروحية، وثقافتنا المدنية، بأن تصفي «باسم» بأنه خبيث، وحاقد ووقح، لمجرد أن قال لك إنه شيوعي؟

شدّت «أولغا» يدها على ذراع ابنتها وهي تنظر إلى السقف:

ـ منذ متى تتكلّمين في الفلسفة «ليديا»؟

ـ أنا لا أتفلسف بل أحاول أن أسألك إن كان لهذه الكلمات الخمس أمام عينيك معنى آخر غير ما أفهم؟

ـ لا، ليس لها أي معنى آخر. قالت أولغا، ثم تمتمت:

ـ لا أطيق شيوعياً.

وما لبثت أن صرخت في وجه ليديا:

ـ لا تنسي أنك ابنة أثينا. ولا تنسي أن الشيوعيين قتلوا والدك.

وبدورها صرخت ليديا:

ـ ألا يُحتمل أن يكون الجُناة قد تموّهوا باسم مزوّر وتركوه في موقع الجريمة؟

ـ لا، لا . . الشيوعيون هم قتلوا والدك. إنهم بارعون بابتكار أسماء لمنظمات وخلايا سرّية يوظفونها لإخفاء نشاطهم. وأردفت: لم يتمكنوا منه في البحر، فغدروا به في البرّ.

ـ لكن «باسم»، كما «جاناد»، ليسا شيوعيين، إنهما من خيرة المفكرين اليساريين.

فانفعلت أولغا، وصرخت بليديا:

ـ إخرسي.

صمتت ليديا، مكسورة. ثم رأت أن تستدرّ عاطفة أمها، فاستحضرت ما بقي من صورة الأب حين كان يحتضنها وهي طفلة قبل عشر سنوات. فالحزن لا يعيش طويلاً مع الصغار، وذاكرة الصغار لا تحفظ من الماضي إلّا ما كان مؤلماً، وما كان فيه من حنان تركته وجوهِ حبيبة عبرت في الخيال.

كانت أولغا قد أجهشت بالبكاء، فقالت لها ليديا:

ـ ما الفائدة بعد من الحزن والدموع؟

لم تعلق «أولغا» فرفعت ليديا صوتها:

ـ ماما، أريد أن أقول لك شيئاً حان وقته.

استوت الأم جالسة ونظرت إلى ابنتها مُستهجنة ومُستفهمة، فقالت ليديا:

ـ ماما، آن لك أن تبدئي حياة جديدة.

وأردفت: هذا حقك. . ولك الحق أن تختاري مع من، وأين تبدئين حياتك من جديد.

تجمّدت نظرات «أولغا» في الفراغ. فما سمعته للتوّ من ليديا كانت قد سمعته من الصديق اليوناني «سيمون» قبل عشر سنوات، حين استقبلها على رصيف ميناء بيروت، آتية من أثينا، هاربة بابنتها من شبح عصابة «الثأر العادل».

يومها قال لها صديق العائلة: «إنكِ جديرة بأن تبدئي حياتك من جديد».

لكنها فهمت كلام «سيمون» على أنه دعوة إلى الانشغال بمشروع ما، فكان أن أسست «أوتيل دي مارين» في بيروت. ونجحت.

حزينة، ومرتبكة، غادرت ليديا غرفة أمها إلى البار وطلبت زجاجة مياه غازية. وبعد قليل، سمعت أمها تقول للمضيفة:

ـ «فودكا» مع ثلج وعصير حامض. ثم سحبت مقعداً عالياً جلست عليه، والتفتت إلى ليديا تسألها:

ـ هل تظنين حقاً أنني أتطلع إلى حياة جديدة؟

وأردفت: أنتِ مخطئة، وتكونين سيئة النية إذا كنتِ تعتقدين ذلك. فأنا لن أردّد قَسَم الإكليل أمام كاهن مرة ثانية، ولا أمام أي قاضٍ مدنيّ، فذاك قَسَم أدّيته أمام الربّ، وأمام والدك بانوس، وإني لملتزمة به ما دمت على قيد الحياة.

وإذ حاولت ليديا أن تعترض لتوضح ما كانت تقصد، تابعت أولغا:

ـ أنتِ لم يحالفك الحظ لتكبري في رعاية والدك. لم يكن ضابطاً بحرياً محارباً فحسب، إنما كان شاعراً أيضاً. صحيح أنه كان من ألدّ أعداء الشيوعيين، لكنه من عائلة ذات ثقافة تقدّس الحرية والعدالة.

ثم فتحت أولغا حقيبة يدها وأخرجت منها أوراقاً مكتوبة بخط أنيق، غير أنها كانت قد صارت مائلة إلى الاصفرار لكثرة ما راجعتها، وما تركت عليها من بصمات. وقبل أن تدفع الأوراق إلى ليديا قالت لها:

ـ كنتُ أحتفظ بهذه الأوراق لأهديك إياها يوم زفافك. أما وأنكِ قد رميت حجرك الثقيل في بحيرة آلامي الراكدة، فسوف أفتحها لك لتقرئي أدب والدك الضابط قبل ثمانية عشر عاماً.

ودفعت الأوراق إلى ليديا، ثم فتحت صحيفتها الفرنسية لتقرأ ما بقي من أخبار ذلك اليوم فيما، راحت ليديا تقرأ في أوراق والدها:

هناك، في أثينا، في ظلّ أعمدة الحكمة، ظهرت عروس رافلة بالأبيض على أدراج معبد «البارتينون» فوق هضبة «الأكروبوليس». كانت تختال بثوبها الناعم الرقيق. كان ثوبها فضفاضاً، مُتهدِّلاً حتى البلاط الدهري على أرضية الهيكل.

.. هناك، في ظل عظمة أثينا، شعرت العروس بريح قوية تهب من بحر «إيجه» فيلتصق ثوبها بجسدها. أحسّت كأنها جسد بلا ثوب، وتراءت لذاتها آلهة إغريقية تخرج من الهيكل في ضوء القمر.

وعلى درجة منخفضة عن الدرجة التي كانت تقف عليها أمام أعمدة العقل والشجاعة، تراءى لها الملازم البحري «بانوس».

كان ببزته الناصعة البياض، راكعاً على ركبته اليسرى، وقد طوى ركبته اليمنى، باسطاً ذراعيه، فاتحاً عينيه وشفتيه مثل طائر نورس ينتظر سمكة.

بدأ جسد العروس ينبض، فراحت تركض وهي تجرّ ذيل

فستانها، نحو«بانوس»، وارتمت بين ذراعيه، فحملها ومضى بها إلى الغابة المقدَّسة حيث يرقد الآله «زيوس» بين أشجار الزيتون المتوحشة.

وهناك، تحت زيتونة مباركة، أنشد «بانوس» لعروسه قصيدة حبّ..

قرأت ليديا صفحتين من أوراق والدها، فأخذت رأسها بين راحتيها واتكأت على حافة البار، وقد بدت ساهمة، فيما كانت «أولغا» تتابع قراءة صحيفتها. بيْد أنها كانت تراقب ليديا بطرف عينها، حتى إذا رأتها صامتة، فتحت ورقة أخيرة كانت مطوية أمامها وقدمتها إليها.

نظرت ليديا إلى الورقة، فوجدتها مكتوبة بحبر مختلف، وبخط مُتعرِّج وفيها:

«بانوس..» لأنك لم تعد موجوداً، فلن تحزن على أحد من بعدك...

التوقيع:
منظمة الثأر العادل

وقالت «أولغا»:

ـ هل فهمتِ من يقصدون بقولهم لوالدكِ: «لن تحزن على أحد من بعدك؟». وهل أدركتِ سبب فرارنا من أثينا إلى بيروت؟ لقد هربنا سريعاً على سفينة تجارية يملكها والدي، أي جدك

«فيليبوس». ولولا اليوناني «سيمون» صديقه الذي يملك هنا في بيروت شركة سفريات، لما استطعت تأسيس «أوتيل دي مارين».

رفعت ليديا حاجبيها إعجاباً، فتابعت «أولغا»:

ـ والآن، هل تلومينني إن ظننت أن «منظمة الثأر العادل» تقيم هنا في الأوتيل بين غرفتي وغرفتك؟

لم تعلّق ليديا بكلمة، وطلبت من والدتها أن تقوم معها إلى ركن خاص في صالة اللوحات لتقول لها:

ـ كان ذلك وهماً مرّ في رأسك، ومضى.

وأردفت: عليكِ أن تعتذري من باسم، وأن تحرصي على معاملة جاناد آلافاندي بكامل الاحترام.

ـ أقبل ولكن بشرط.

ـ ما هو شرطك؟

ـ أن نعود إلى أثينا، فأنا لا أريد أن أشيخ في بيروت.

ثم استدركت.

ـ وهناك سبب آخر لعله الأهم.

ـ ما هو؟

ـ أخاف أن أعود إلى أثينا وحيدة.

أدركت ليديا ماذا تعني أمها، فقالت:

ــ إطمئني، إذا بقيت أنا هنا، في بيروت، فلن أبقى وحيدة. وإذا عدتِ أنتِ إلى أثينا، فلن تعودي وحيدة.

ــ و«باسم»؟

ــ لن يكون عقبة.

ــ وجاناد؟

ــ لا علاقة لي معه أكثر من أنه صديق «باسم». وأنا أحترمه.

ــ حسناً، ليديا، سوف ألتقي جاناد هذا المساء.

حدث كل ذلك يوم جمعة. ومن عادة جاناد أن يعود كل ليلة سبت باكراً إلى «أوتيل دي مارين» ليتهيأ لسهرته التي يبدأ بها عطلته الأسبوعية. ونادراً ما يتبدّل مكان السهرة، إنه نادي «الفانوس الأزرق» في شارع «فينيقيا». هناك عازف كمان إسباني، وعازف بيانو إيطالي، ومغنية فرنسية ذات صوت روعته في بحّتهِ.

في ذلك النادي الذي يرتاده ذوّاقة الموسيقى الكلاسيكية، يلتقي جاناد مع أصدقاء وصديقات، معظمهم يعرف بعضهم بعضاً.

وكعادته، توقف تلك الليلة في باب «صالة اللوحات» في الأوتيل، ليُلقي تحية على «ليديا» ويسألها عن جديد لوحاتها، فأومأت له بأن لا جديد. فأتجه إلى كونتوار الاستقبال ليطلب مفتاح غرفته.

ـ عُذراً، مسيو آلافاندي، مفتاح غرفتك مع مدام أولغا. قالت له الموظفة.

ـ مع مدام أولغا؟ لماذا؟ سأل مستهجناً.

ـ لا أعرف، سيدي، فالمدام هي التي طلبت المفتاح.

وقف جاناد صامتاً متعجباً، ثم طلب من الموظفة أن تبلّغ المدام أنه يريد مفتاح غرفته حالاً.. وأردف: أريد أيضاً السبب الذي دعاها إلى طلب مفتاح غرفتي والاحتفاظ به.

في تلك الأثناء لم تكن المدام وراء مكتبها في زاوية بهو الاستقبال، حيث تجلس مثل سيدة بلاط، فتوجّه جاناد نحو ركن استراحة بين البار وصالة اللوحات. ومن مقعده، على طرف كنبة جلد، كان باستطاعته أن يرى جانباً من البهو. وكان يحمل صحيفة أتى بها من محترف الرسم، ففتحها أمامه على وسعها. وهو كان قد قرأها مُسبقاً.

بانتظار مفتاح غرفته أخذ يتشاغل بالقراءة، وقد تعمّد أن تحجب الصحيفة وجهه ليخفي انفعالاته. وبغتة سمع صوتها من قرب:

ـ مساء الخير، سينيور (.J.A).

إنها مدام أولغا. التفت ليراها أمامه. وقف تأدّباً، وكانت هي قد مدت يدها إليه فصافحها، ودعاها إلى الجلوس تاركاً لها مكانه على الكنبة.

لقد أدرك أنها اكتشفت اسمه في الجريدة الفرنسية بالإشارة إلى (J.A.). لكن، لماذا «سينيور»؟

وإذ مدت يدها إلى حقيبتها، مدَّ هُو يده ليسحب جريدته عن الطاولة من أمامها نحوه، فوقع نظرها على الصفحة الأولى.

كانت جريدته نسخة من الجريدة الفرنسية ذاتها التي قرأت فيها صباحاً أخبار تظاهرة بيروت.

فتحت حقيبتها بتأنّ، وسحبت منها المفتاح رقم ١٧، ووضعته على الطاولة، ثم سحبت الرسالة التي احتفظت بها ووضعتها إلى جانب المفتاح:

ـ «سينيور آلافاندي»، هذه الرسالة وردت إليك بالبريد صباح هذا اليوم. وأصارحك بأنها أثارت لديّ ظنوناً فاحتفظت بها مع مفتاح غرفتك. قصدت أن أسلمك إياها يداً بيد لأطرح عليك سؤالاً.

لم يكن جاناد قد تطلع إلى الرسالة بعد. كان في حيرة من أمر المدام. فقد حجزت مفتاح غرفته، ثم نادته «سينيور (J.A.)»، والآن تُناديه: «سينيور آلافاندي».

ـ لا أفهم ماذا تقصدين مدام؟

ـ لستُ أنا من أعطاك لقب «سينيور» لكن هذا ما قرأته على الرسالة الواردة باسمك. وأؤكّد لك: إني لا أقصد إلّا أن أسلّمك رسالتك بيدي. . هذا كل شيء.

ولم يقتنع بالجواب:

ـ عفواً مدام، لا أفهم ما العلاقة بين الرسالة ومفتاح غرفتي؟

ـ سوف أوضح لك. لكن، قبل ذلك، إسمح لي أن أقدم إليك كأساً.

ـ أشكرك، لكن ليس قبل أن توضحي لي لماذا احتفظت بمفتاح غرفتي؟

كانت نبرة صوت جاناد قد مالت إلى الحدة، وبدت في عينيه ملامح استياء شديد، فابتسمت أولغا وسارعت إلى القول:

ـ إن المفتاح مجرد وسيلة لأدعوك إلى تناول كأس، فلديّ ما أفضي به إليك. وحين تسمع ما سوف أقوله أعتقد أنك سوف تعذرني.

بدا عليه أنه تفهّم حال السيدة. فقال بأدب:

ـ تفضّلي مدام. .

ـ هل أنت مستعد للإصغاء؟

ـ بالتأكيد.

ـ هل أنت شيوعي مسيو آلافاندي؟

صدمه السؤال فكاد يطلق صوته عالياً، لكنه كظم غيظه فسألها:

ــ ماذا تريدين مني مدام؟ هل أنتِ قاضية تحقق معي؟

ــ هذا ما توقعت أن أسمعه منك، وهذا بالضبط ما سمعته من صديقك باسم حين طرحت عليه السؤال عينه.

ــ وهل استجوبت باسم قبلي؟

هزّت رأسها، ولم تفارق وجهها الابتسامة:

ــ هذا ما حصل، نعم.

ــ لكنني أكرر طرح السؤال عليك: ماذا تريدين مني؟

رفعت يدها وضمت أصابعها علامة رجاء بأن يتمهل ويسمع.

ثمّ روت له مصرع زوجها في أثينا على يد «منظمة الثأر العادل».

أخذت تتكلّم بلسان امرأة بدت متصالحة مع قدرها.

كانت حزينة، وصلبة ومحترمة في سرد قصة حبها مع زوجها، ثم فجيعتها بموته مغدوراً. وقالت لجاناد:

ــ لن أخفي عنك. لقد خُيّل إلي أن قاتل زوجي يقيم في بيتي.

ثم أشارت إلى الجريدة الفرنسية أمامها لتبرر دواعي ظنونها السيئة، وسألته:

ـ ألم تكن تتقدم تظاهرة الأمس؟

ـ صحيح.

ـ ألست أنت (J.A.) الذي أوقفته الشرطة وحققت معه؟

ـ أيضاً هذا صحيح.

ـ ولا بدّ أنك قرأت التفاصيل بكاملها في الجريدة التي أمامك.

ـ نعم، صحيح..

ـ ألا تعتقد «مسيو آلافاندي»، أن كل هذه التفاصيل تشكل سبباً كافياً لإثارة خوفي على ابنتي وعليّ أنا.؟ وأردفت: هذا كل ما أردت أن أقوله لك لأوضح ما حصل.

ثم استأذنته لتضيف: عليّ أن أعترف بحكمة وشجاعة ليديا. فلولا هذه الصبية التي رعتني طول هذا النهار، لما استطعت أن أتغلب على رعبي من أوهامي. ولما كنت لتراني أمامك الآن.

واستدركت: في أي حال عليّ أن أعتذر منك، وأن أشهد لصديقك «باسم» بأنه دافع عنك بكل أمانة وإخلاص.

كان جاناد صامتاً ومُصغياً بعناية فائقة. بيد أنه أخذ يعبث بشعره الأسود المالس. كان يمرّر أصابعه من جبينه إلى قمّة رأسه، كما لو أنه يُمشِّط شعره بأصابعه. وما إن يترك شعره حتى يروح يحك ذقنه بطرف إصبعه، فيما نظراته تدور على الجانبين.

ولعله كان، في صمته، يتساءل: هل ما عانته «أولغا» ذلك اليوم، كان خطأه أم خطأها هي. كان متأكّداً من أنه لم يرتكب أي خطأ. ومع ذلك، بدا حائراً.. هل يؤاسي المدام، أم يقدم لها اعتذاراً عن خطأ لم يرتكبه؟ ورأى أن يؤاسيها بلطف، فسألها:

ـ والآن. كيف تشعرين، مدام؟

نزل سؤاله بلسماً على جرح مفتوح، فتنهدت قائلة:

ـ شكراً للرب. أنا الآن مطمئنة.

ثم أردفت: هل تقبل دعوتي الآن إلى تناول كأس؟

وردّ شاكراً: لا بأس.

كانت موسيقى إيطالية، من دون غناء، تسري في جنبات البار. وكانت توفر أسباباً للصمت.

ـ هل تفضّل موسيقى لبنانية «مسيو آلافاندي»؟

ـ ما أسمع من موسيقى الآن أستذوقه.

فتحت علبة سجائرها اليونانية، وعرضت عليه إن كان يريد أن يبدّل سيجارته الفرنسية، فشكرها مُعتذراً. ثم استأذن ليصعد إلى غرفته.

أشعل ضوء السقف، ثم أشعل ضوءاً أصفر فوق مقعد منفرد في الزاوية، حيث يجلس عادةً، وإلى يمينه رفّ للكتب. وكانت الرسالة بين أصابعه. تأمّل اسمه على الظرف، وقدّر فوراً أن الرسالة من عم له مهاجر. يُؤكّد ذلك طابع جمهورية الأرجنتين المُلصق على الظرف.

وفيما همّ بفضّ ظرف الرسالة رن جرس الهاتف في الغرفة. كانت المتكلمة مدام أولغا:

ـ عذراً مسيو آلافاندي، هل تعرف عنوان مطعم «كوفاديس»؟

ـ نعم، إنه ليس بعيداً من هنا. إنه بالقرب من فندق «سان جورج»، لكنه في شارع ضيق بموازاة شارع «خضر السجعان».

ـ شكراً، مسيو آلافاندي. هل لي أن أدعوك لمشاركتنا العشاء مع ضيف يوناني؟

وأردفت: ضيفنا هو الذي حمل معه من أثينا عنوان هذا المطعم في بيروت. ويسعدني أنا وليديا أن تقبل دعوتنا المفاجئة.

بأدب جمّ اعتذر مُتمنياً لها ليلة سعيدة. ثم عاد إلى الرسالة التي كانت من صفحتين مكتوبتين على ورق باهت اللون. أما الخط بالعربية فهو عينه الخط الرديء الذي كُتِبَ به اسمه.

وما إن قرأ السطر الأول من الرسالة التي تبدأ بـ«ابن الأخ الحبيب جاناد» حتى تأكد من أن تقديره كان صائباً. فها هو العم «خليل» يظهر باسم «خوليو» في «بوانس آيرس» بعد ٢٨ عاماً على هجرته.

كانت المفاجأة في الرسالة أن العم يسأل ابن الأخ إن كان يرغب بالسفر إلى الأرجنتين. ويبدي استعداده لدفع «الناولون». كما يتمنى أن يتلقى جواباً في أقرب وقت على العنوان المسجل في أسفل الرسالة.

لقد كان اختفاء العم «خوليو» لُغزاً مؤلماً لعائلته. والآن يظهر لغزاً مثيراً للتكهّنات.

وبدأت التساؤلات تدور في رأس جاناد: «هل هي دعوة لزيارة، أم هي دعوة للهجرة؟ ولماذا الرسالة موجهة إليّ شخصياً، وليست إلى والدي؟ وماذا يعرف عني غير اسمي؟ أين كان كل تلك السنوات التي مضت؟ ماذا يعمل، ثم ماذا عن حاله؟».

وفي لحظة، كلمع البرق، اتخذ جاناد قراره بتلبية دعوة العم. وتحسّباً لاحتمال عودته عن قراره في الصباح، جلس ليكتب فوراً رسالة جوابية إلى العم. وقد حرص على أن يكتب الكلمات بأحرف كبيرة وبعناية، ليتمكن العم من قراءتها بسهولة.

وبدأ الرسالة بمخاطبة العم:

«جناب العم الفاضل خوليو. . استلمت رسالتك الميمونة بفرح عظيم. وقرأتها مرات. ومرات. .».

وتوقف جاناد عن الكتابة، وراح يعبث بشعره وهو يراجع ما كتب، ثم أخذ يضحك فيسمع صوت ضحكه في فراغ الغرفة. وقال في سِرّه: ما هذه الأكاذيب التي أكتبها للعم؟!

لكنه عاد وأقنع نفسه بأن العم، على ما يبدو، يتقن أسلوب التخفي، فما الضرر في أن نجاريه بأسلوبه لعلنا نعرف الحقيقة؟

ثم تابع الكتابة. .

عمي الحبيب. لقد هيّجت أشواقنا إليك. وأنا لا أعرفك. وبودي أن أتعرف إلى شخصك الكريم. لذلك، إذا تكرّمت

بإرسال «الناولون» إليّ فسوف أكون على استعداد للسفر. ولكن ليس قبل الصيف القادم.

ثم كتب: أنا الآن في بيروت أشتغل عند شخص مغربي ثلاث ساعات في اليوم، وأذهب ثلاث ساعات إلى المدرسة. وأسكن في غرفة في أوتيل صغير.

وتوقف عن الكتابة مرة ثانية؟ وراجع ما كتب لعمّه وتساءل «هل أكذب عليه؟». لم يكن يكذب، فهو يذهب إلى المدرسة. ويشتغل في بيروت عند «دانيال المغربي». وكما بدأ رسالته بالرِّياء، تابع الكتابة: أنا في انتظار جوابك على أحرّ من الجمر. وشوقي إليك يسبق رسالتي هذه.

«.. وختاماً، يا عمي الحبيب، أُقبّل يديك، وأدعو لك بطول العمر. ومن عندنا قبلات والدي. كما أن والدتي تهديك السلام. واسلم إلى ابن شقيقك المشتاق: جاناد». (حاشية: عنواني في بيروت مكتوب هنا في أسفل الرسالة حيث أسكن في الأوتيل الصغير.)

وراح يضحك وهو يراجع رسالته. قال في سره أن هذه اللغة هي لغة الرسائل التي يكتبها أهل القرى إلى المهاجرين من عائلاتهم وأقاربهم. «وأنا من أهل القرى».

وفوْراً وضع الرسالة في ظرف كتب عليه بالإسبانية عنوان عمه في «بوانس آيرس»، وكتب على قفا الظرف اسمه وعنوان «أوتيل دي مارين» في بيروت، ثم لصق الظرف، ووضعه على المنضدة.

وإذ مال نحو رف الكتب ليتناول كتاباً، رن جرس الهاتف من جديد، وكانت ليديا على الخط لتقول له:

ـ جاناد. سألت عنكَ، وعلمت أنك موجود في غرفتك. أرجوك أن تقبل دعوة والدتي، ودعوتي، وتوافينا إلى مطعم «كوفاديس». إن ضيفنا اليوناني شاعر ومثقف، وأنا متأكدة أنه سيروقك أن تستمع إليه. إنه أيضاً رسام ويساري.

ولم يستطع جاناد أن يعتذر. فذهب إلى مطعم «كوفاديس».

وإذ تعتبر نفسها ذات فراسة في قراءة الوجوه، كانت اولغا تختلس النظر إلى الشاب اليوناني «كاستور»، ذي اللحية الصغيرة. كان يتكلم ويعبّر عن أفكاره بسلاسة، وهو يكثر من حركات يديه. كانت قسمات وجهه ثابتة، لكن التفاتات عينيه لم تكن لتهدأ. وقدّرت أولغا أن هذا الرسام ليس مدّعياً. إنما هو محترف. ويبدو لبقاً، ومتواضعاً، أنيقاً ببساطة. كما أنه مثقف، وذو تربية مدنية.

والحقيقة أن «أولغا» تجد كل هذه الصفات مجتمعة في جاناد. وهي، في قرارة ذاتها، تتمنَّى لو أن ابنتها تقع على شبيه له، شرط أن يكون يونانياً، وألّا يكون شيوعياً.

خلال فترة العشاء، كان عازف البيانو في المطعم يقدم مقطوعة ناعسة، فيما «كاستور» يأخذ أولغا إلى أثينا. إلى الشوارع الضيقة المرصوفة بالحجر الصوّان، حيث المطاعم تكتظ باليونانيين الذين يشربون، ويرقصون على نغم «البوزوكيا» ثم

يأكلون ويحطمون الصحون. أخذها أيضاً إلى المكتبات، وإلى أرصفة الحانات، ثم إلى الكنائس، حتى بدت وكأنها تسمع ترانيم قداديس الآحاد. وما لبثت أن رسمت إشارة الصليب على صدرها. فسألها كاستور ببراءة:

ـ هل تعتقدين، مدام، أن الصلوات والترانيم تبلغ السماء؟

ففاجأته بسؤال:

ـ هل أنت شيوعي؟

ضحك كاستور، وكانت المرة الأولى التي يضحك فيها خلال السهرة. ثم قال، وهو يحكّ لحيته الصغيرة:

ـ إذا قلت لك الحقيقة، فقد لا تصدّقين.

ـ لماذا لا أصدق؟ بل سوف أصدقك. أتدري لماذا؟

ـ لماذا؟

ـ لأنك يوناني.

تلقّى كاستور الجواب على أنه طرفة. وسأل المدام:

ـ هل أنا، وأنتِ، وسائر اليونانيين، من سلالة حكمائنا الأوائل؟

فأجابته بسؤال:

ـ وهل ذهب حكماؤنا من دون نسل؟.

ـ لا أدري، ولكني لا أعرف أحداً من ذلك النسل.

ـ يبدو أنك لا تريد أن تُفصِحَ إن كنت شيوعياً أم لا.

بدا الاستهجان على وجه كاستور، والتفت إلى ليديا يسألها:

ـ هل أنا مدعو إلى جلسة استجواب؟

ضحكت ليديا ولم تعلق. ونظرت إلى جاناد فرأته مُطرقاً. أما أولغا، فكانت تنظر إلى الثلاثة باستخفاف.

كان العشاء قد انتهى، فتدخل عازف البيانو بمقطوعة راقصة، ولم تكن في المطعم مساحة للرقص. كانت أرضية المطعم من خشب، وجدرانه من خشب، وسقفه من خشب. وكانت قبالة «كاستور»، على الجدار، لوحة زيتيّة كان ينظر إليها بين وقت وآخر، وهو يمضغ طعامه.

كانت اللوحة تمثل واجهة كاملة لمبنى بيروتي عريق من طبقتين. وقد برزت النوافذ الخشب الأباجور باللون الأزرق، مفتوحة على جدار خارجي باللون الأبيض.

كانت النوافذ تبدو في اللوحة وكأنها عيون على الخارج، تومىء بالأنس والرحابة. كان النصف الأول من كل نافذة مزيناً بدرابزين من الحديد المشغول بحِرفية عالية، وباللون الأزرق، وأمام النوافذ عُلِّقت أصص من الفخار، زُرِعت فيها باقات من الورد المُلوّن. أما سطح المبنى، في اللوحة، فكان يبدو هرماً من القرميد الأحمر، مغسولاً بالمطر في وهج الشمس.

كان «كاستور» ما يزال ينظر إلى اللوحة. وقد التفت إلى أولغا ليقول:

ـ تتجلّى براعة الرسام في هذه اللوحة، إنه يمزج بإتقان بين ألوان الفن المعماري على ضفتي المتوسط. ففيها معالم من التراث اليوناني. ثم أردف وهو يتطلع إلى جاناد:

ـ ألّا توافقني الرأي مسيو آلافاندي؟

هزّ جاناد رأسه موافقاً. ولم يستطع كاستور أن يقاوم فضوله، فقام ليقترب من اللوحة ويحدق في زاويتها. ثم عاد إلى الطاولة ليقول:

ـ إنها بتوقيع .J.A

ـ «.J.A» . . قالت ليديا مندهشة، ورفعت أولغا رأسها نحو الجدار. ثم نظرت إلى جاناد، وكأنها غير مصدقة:

ـ أهذا أنت، يا «.J.A»؟.

فأحنى جاناد رأسه تواضعاً.

صبيحة اليوم التالي كان الطقس حاراً جداً. وكان جاناد لا يزال في غرفته يتهيأ لرحلة عطلة الأسبوع في ضيعته «ربوا». كانت والدته قد اتصلت به ليلاً لتسأله إن كان يريد السائق مع السيارة ليوافيه إلى بيروت، لكنه، كعادته، كان يفضّل الذهاب إلى «كاراج الجبل» في شارع «الصيفي»، حيث يستقل حافلة إلى

«ربوا». كانت رسالته الجوابية إلى عمه على المنضدة أمامه. وكان مصمماً على أن يمضي إلى مركز البريد لإيداعها. لكنه، قبل أن يغادر الأوتيل، عرج على «الكافتيريا» ليتناول ترويقته، فوجد ليديا في انتظاره. وأشارت إليه تدعوه إلى طاولتها:

ـ أنا عاتبة عليك. لا تتصور كم أنّ عتبي كبير.

ولم تدعه يسأل عن السبب، فتابعت:

ـ هل كان عليّ أن أذهب إلى مطعم «كوفاديس» لأكتشف لوحتك الرائعة معلقة هناك؟

وأردفتْ: أنا أعرف أنك طالب علوم سياسية في سنتك الثالثة، وأعرف أنك رسام مبتدىء. لكني لم أكن أعرف أن لك مثل تلك اللوحة التي رأيناها أمس. فكيف تحرمني من لوحتك تلك، وأنت مقيم بيننا، وأراك كل مساء تتفقد لوحات صالتي؟

لم يكن جاناد قد تفوّه بكلمة، بعد. ولم يكن قد مدّ يده إلى فنجان القهوة أو إلى قطعة الخبز مع الزبدة والمربى أمامه. ظلّ صامتاً حتى أنهت ليديا عتابها، فقال:

ـ أنا راسم تلك اللوحة، لكني لست مالكها، ولست من باعها. فمنذ لحظة أن رفعت ريشتي عنها أصبحتْ ملك محترف «دانيال»، أما أنا فلا أملك منها إلا حق الإشارة في زاويتها بحرفين صغيرين: «J.A.»، مع مكافأة يعود تقديرها إلى «دانيال» مقابل كل لوحة أرسمها. أنا أعرف الأسعار التي تباع

بها لوحاتي. لكن يسعدني أنها تباع على أنها من «محترف دانيال». فهو مشهور.

ـ وإلى متى العقد بينك وبين دانيال؟ . . سألت ليديا.

ـ إنه عقد أدبي. من جهتي ملتزم به منذ نحو سنة. وأنا سعيد بالنتائج، وقد لمست النتيجة ليلة أمس حين اكتشف ضيفكم «كاستور» التوقيع على لوحة مطعم «كوفاديس».

ـ حسناً. جاناد، هل يمكننا أن نتعاون؟

ـ لا بأس، إنما عبر محترف دانيال.

ـ لماذا عبر محترف دانيال؟

ثم استدركت:

ـ هل تعلم كم قبض دانيال ثمن لوحتك؟

ـ لا أريد أن أعرف.

ـ هل تقول لي كم كانت مكافأته لك؟

ـ لا، لن تعرفي.

ـ من أين لـك كلّ هذه المثاليات؟

ـ ليست مثاليات، إنها التزام أدبي.

وجدت ليديا نفسها أمام رجل صعب، فتجنّبت مجادلته. لكنها كانت تخبّىء له مفاجأة. وكانت المفاجأة مجموعة أوراق

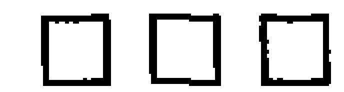
وردتها في ظرف ملصق وعليه اسمها. قالت له: هذه الأوراق وصلت إلى الأوتيل باكراً. أتى بها صبي وتركها لدى الحارس على الباب. لقد قرأتها. إنها موجهة إليّ، لكنها موجهة إليك أيضاً لتقرأها.

لم يفتح جاناد الظرف بل وضعه في محفظة أوراقه، وخرج متوجهاً إلى مركز البريد في «خان أنطون بيك» ليودع رسالته إلى عمه في الأرجنتين.

داخل المركز توقف لمرة أخيرة متسائلاً: هل أخطأ وتعجل الجواب على رسالة العم قبل استشارة والديه؟ وهل هو مستعد فعلاً للسفر؟ لكنه حسم قراره. وإذ نزلت الرسالة في فتحة صندوق البريد الجوِّي المضمون، لم يعد بإمكانه استردادها.

وكان لديه الوقت ليُعرِّج على محترف «دانيال» في شارع «الجمّيزة»، إلا أن يوم السبت هو يوم عطلة «دانيال» الذي يذهب إلى الكنيس اليهودي في حي «وادي أبو جْميل». هناك يؤدي صلاته، ويلتقي بأصدقاء له من مُصلّين آخرين، لبنانيين وسوريين، وعراقيين، وفلسطينيين. وهناك أيضاً يهود أوروبيون، ومغاربة. أكثر من مرة، ألحّ جاناد على «دانيال» ان يسمح له بالرسم في المحترف يوم السبت، متعهداً له أن يُسقِط الباب الحديد الخارجي، وأن لا يفتح الباب الداخلي لأحد. بيد أن «دانيال» كان يهرش رأسه، ويزم فمه وعينيه ويرفض. ومع أنه مُدخِّن مدمن، لا يفارق «الغليون» فمه طول النهار ولا خلال السهرة، فإنه يمتنع عن إشعال غليونه يوم السبت، تجنباً

للإثم. ومن عادته، وهو في طريق العودة من «وادي أبو جْميل»، كل يوم سبت، أن يجعل وجهته شارع «ويغان»، فيمرّ بمحاذاة كنيسة الكبوشيين قرب قصر العدل، ثم يقطع شارع «باب إدريس» فيجد نفسه في فسحة بين مقام «الإمام الأوزاعي» من جهة، وزاوية «ابن العرّاق» من الجهة المقابلة. ثم، على بُعد أمتار قليلة، يمرّ تحت قنطرة «سوق الإفرنج». وهناك يجد خبزاً وطعاماً خاصاً لليهود.



III

لم تكن المسافة طويلة بين بيروت و«ربوا». لكن الحافلة تحتاج إلى نحو ثلاث ساعات لتقطعها. ذلك أن لها في كل قرية تعبرها محطة تتوقف فيها، فيترجل منها بعض الركاب، ولا يصعد آخرون. ثم إن حمولتها دائماً فوق طاقتها، من عدد الركاب في داخلها، ومن أكياس القمح والطحين، والترابة، على سطحها. وتزداد حالتها صعوبة حين تغادر حدود بيروت وتبدأ الطريق صعوداً، على عجز وبطء. لذلك يستعد جاناد لثلاث ساعات من الفراغ الإجباري، فيحمل معه إلى «ربوا» الصحف الصادرة في بيروت، ومعها مجلة فرنسية نسائية هي هديته الأسبوعية لوالدته.

وفي رحلة ذلك السبت حمل في محفظة يده أيضاً ذلك الظرف الذي سلّمته إياه «ليديا» على أنه يحتوي رسالة وردت باسمها في الصباح الباكر، وإنها موجهة إليها وإليه معاً.

كان قد جلس في الحافلة على المقعد الأول خلف السائق مباشرة، وكان إلى جانبه رجل بملامح جبلية. وقد تطلع إلى جاناد بنظرة مواربة حين رأى في يده صحيفة فرنسية، ثم سأله:

ــ من أين أنت يا ابني؟

ــ من «ربوا».

ــ من عائلة الشنتير؟

ــ لا، أنا من عائلة الأفندي.

ــ والدك شاهين أفندي؟

ــ نعم، وكيف عرفت؟

ــ عرفت لأن ليس في «ربوا» إلا أفندي واحد هو والدك. لكنّ عائلتكم في الأصل هي «الشنتير».

لم يعلّق جاناد. أَشاحَ بوجهه عن الرجل، وفتح الظرف الذي يحمله فوجد فيه مجموعة أوراق بالفرنسية، وقد عرف الكاتب فوراً من خطه. كانت رسالة إلى ليديا لتقرأها هي، ويقرأها هو، وتقرأها أولغا أيضاً.

لكن الرسالة كانت تشبه قصة قصيرة، وفيها:

حين خرج من «أوتيل دي مارين» إلى الشارع كان في ذروة التشنج. وقد فكّر بالعودة إلى الداخل ليواجه مدام «أولغا» من

جديد. بيْدَ أنه ضبط أعصابه. ذلك أن السيدات الأجنبيات لهن معاملة خاصة تقتضيها الآداب السائدة في الشرق.

وفي الشارع سلك اتجاهاً لا يعرف إلى أين يقوده، وهو لم يكن يقصد مكاناً معيناً. وقد طال طريقه قبل أن يتنبّه إلى أن قدميه قادتاه عشوائياً إلى حيث وصل. وجد نفسه أمام بناية قديمة. ثم راح يهبط درجاً يبدأ من الرصيف، وينتهي في صحن الطابق السفلي من البناية. كان صحناً صغيراً، هو عبارة عن رقعة من الإسمنت المفتت تمتد أمام باب تتآكله الرطوبة، حتى ليكاد يتحلل، فالبحر تحته تماماً.

لم يكن على الباب ما يشير إلى ماذا كان لونه. إلّا أن بعض العلامات الباقية تدل على أنه كان باللون الأزرق. كان المفتاح مغروزاً، حتى العمق، في ثقب الباب الذي كان يستر غرفة خلفه.

إلى جانب الباب كانت هناك دائرة صغيرة بدت محفورة في رقعة الاسمنت. ومن تلك الدائرة كانت تتصاعد أغصان نضرة تغطي الجدار الذي يسند الشارع. كانت الأغصان تتشابك، وتتفرَّع، من شجرة ياسمين لا يدري أحد أين تضرب جذورها في ذلك الكتيب الرملي المالح.

قبالة الباب تماماً، نُصِبَ حبل غسيل، أحد طرفيه مشدود إلى جذع شجرة الياسمين، والطرف الآخر مشدود إلى وتد من حديد مثبت في الجدار البحري للغرفة.

كان حبل الغسيل مُثقلاً بالثياب المُعلّقة عليه، وقد التوى في

الوسط، فبدا مثل قوس مقلوب. كانت الثياب المنشورة على الحبل لا تزال ترشح قطرات ماء عكرة، تسيل بين شقوق رقعة الاسمنت المتفسِّخ. كانت الثياب رثة وبالية، لكنها مُزركشة بكل الألوان الباهتة، وكان بينها بنطلون «شورت» يبدو أنه لولد في مطلع فتوته.

كلّ تلك الدلائل كانت تؤكد أن هناك عائلة تسكن الغرفة المغلقة.

حيث وقف أمام باب الغرفة، شمَّ رائحة الغسيل المنشور، فاستيقظت حواسه كلها دفعة واحدة، وأطلق زفرة مكتومة:

آه من رائحة هذا الغسيل!

وعاد يتطلَّع إلى «الشورت».

إنه «الشورت» الذي كان يراه معلقاً هنا قبل عشر سنوات.

كان «شورتاً» بلون الوحل. وكان مجعلكاً، كما لو أن كلباً برياً علكه، ثم حاول أن يبتلعه، فلما استعصى عليه بصقه.

كم تتشابه ملابس الفقراء ـ قال لنفسه ـ وكم يتساوى هؤلاء بالشجاعة. فوحدهم، الفقراء، يجرؤون على نشر غسيلهم أمام الناس.

وأحسّ أن يده تمتد، تلقائياً، لتُلامس ذلك «الشورت»، فقبض عليه بأصابعه العشر، ثم وضعه على أنفه، وفمه، فاكتشف أن ذاكرة الأنف أقوى من ذاكرة العين، فالرائحة تستحضر الزمان والمكان، والوجوه، والأشياء المندثرة.

كان هو نفسه ذلك الولد صاحب «الشورت». فهو وُلد ابن صياد سمك في الغرفة نفسها على حوض «عين المريسة». كانت والدته الزوجة الثانية لوالده. وقد سبقته شقيقتان من الزوجة الأولى. لم تكن والدته قد أنهت دراستها الابتدائية عندما تزوجت والده قبل أن تبلغ السادسة عشرة.

وذات يوم قالت له والدته إن والده حين سمع صرخته الأولى دفع باب الغرفة ودخل. وكانت القابلة (غير القانونية) من أهل الحيّ ما تزال تمسكه بين أصابعها، فبشّرت والده:

ـ «مبروك، إنه صبيّ.».

وأكملت القابلة:

ـ «يعيش في دلالك».

فما كان من الوالد الذي طار فرحاً، إلّا أن قال لزوجته وهو يتطلّع إلى مولوده: «انظري هذه البسمة على وجهه».

ثم خرج قائلاً: سوف أذهب لأشتري له هدية. وعادَ بعد دقائق ليقول لها:

ـ لم أجد هديّة أثمن ممّا اشتريت له. لقد اشتريت له أغلى اسم: «باسم».

في تلك الغرفة نشأ «باسم»، وفيها كبر حتى صار وجهه يقارب حافة النافذة، فيرى البحر. كانت تلك الغرفة كل البيت؛ هي

غرفة النوم للأب والأم والأولاد الثلاثة، وهي الصالون والمطبخ. كان للوالدين فراش، وللأولاد فراش، ينامون عليه بالعرض، ويتنازعون اللحاف في ليالي البرد.

وكانت في الغرفة حصيرتان تغطيان معظم مساحة الغرفة. كانت الأرضية من الاسمنت الناعم لكثرة ما تدلكها الوالدة بفرشاة قاسية مع الماء والصابون. كانت تفعل ذلك يومياً لتخفف رائحة زنخة السمك ورائحة الأحذية المتراكمة خلف الباب، وكلها قديمة، ونعالها مثقوبة، وأحياناً تنبت في داخلها رؤوس مسامير مدقوقة في النعل. وكانت أقدام الأولاد تتحمل الوخز المؤلم الذي تسببه رؤوس المسامير الجارحة. ثم، تدريجاً، يخفّ الألم، بعد أن يكون المسمار قد حفر مكانه في باطن القدم، فيتخاوى المسمار واللحم، ويزول الألم.

كانت والدة باسم تدير الغرفة الحقيرة، كما لو أنها تدير بيتاً كبيراً. وعلى قلة ما في الغرفة من أشياء، لم تكن الوالدة لتهدأ. ولم تكن لتتذمّر. بل كانت دائماً باشّة. كان والده في السهرات يتمدد على طوله في زاوية الغرفة، يشبك ساعديه المفتولين بلون النحاس تحت رأسه، ثم يروح يطلق تنهداته وزفرات أنفاسه. وبين لحظة وأخرى، يُمسِّد شاربيه المسبلين، ويحفّ ذقنه التي لم تمسّها شفرة حلاقة منذ أيام، وكان باسم يرى والدته ترمق والده في تلك الحال بنظرة مواربة تنمّ عن حسرة، وكانت تهز رأسها خفية عنه.

لم يكن لوالده مصدر رزق إلّا البحر. وكانت له حصة في

زورق صغير يملكه مع شريك آخر. كان رزقه على مسافة قريبة من الشاطىء لأنه لم يكن يجرؤ مع شريكه على التوغّل في عرض البحر.

السَّمكة كانت رزق والد باسم وشريكه. وحركة الرزق كانت من حركة السمكة، هبوطاً وصعوداً، وزوغاناً. وهو كان في العاشرة من عمره حين صار يذهب يوم عطلته المدرسية إلى رصيف ميناء «عين المريسة» لينتظر عودة الوالد من البحر. كان همّه أن يرى كمية الأسماك في حوض زورق الوالد. فإذا كانت حصة الوالد كبيرة، فإن حصة الطعام سوف تكون كبيرة.

لم يكن والده يُعير اهتماماً للذين يأتون إلى الميناء لشراء الأسماك الخارجة لتوها من البحر. فهؤلاء من الطبقة الوسطى، ومن الطبقة الفقيرة. لكن والده كان يعرف من أين تُؤكل اللقمة الدسمة. بخبرته كان يقصد بيوت الأثرياء في الحي. فهؤلاء لا يساومون على السعر، بل ينتقون السمكة الممتازة، ويدفعون من دون مساومة، ولا تأفف.

لم يكن «باسم» قد بلغ الثانية عشرة حين صار يقف إلى جانب والده صباح كل يوم أحد، أو عطلة، فيراه على رصيف الميناء يتقاسم مع شريكه كومة الأسماك التي غنماها.

كان والده يوزّع حصته في ثلاث سلال من القصب لا يستقر في قعرها ماء. يضع في السلة الأولى السمك الذهبي، وفي الثانية السمك الفضي، أما السلة الثالثة فيعلقها في زند «باسم». ثم

يوزّع الميزان والعيارات الحديد على السلتين الأولى والثانية، فيرفعهما على ساعديه، وينهض بهما متضرعاً: يا الله.

كان صوته يطلع من عمق صدره المليء بالرطوبة، والملوحة، ورواسب دخان السجائر الغليظة.. ثم يمشي، فيتبعه باسم. كان باسم يرتدي ذلك «الشورت» الذي لا ينسى شكله. كان «الشورت» يبدو فضفاضاً عليه. لكنه لم يكن فضفاضاً، إنما ساقا باسم كانتا نحيلتين جداً، من الكاحل إلى أعلى الفخذ.

وكان يلوم والده، لأنه كان يشتري من الصيادين بعض أفضل غلّتهم من الأسماك فيزيد ثقل حمله ولا يجرؤ على الشكوى. ذلك أن والده كان ينهره عندما يتلكأ، ساخراً منه إلى حد التقريع: إمشِ يا خِـسعْ.

لكن الوالد كان يفخر بابنه وهو يعرف عنه لسيدة ثرية قائلاً:

ـ هذا ابني باسم. على اسمه، وعلى وجهه، يرزقني الله في البحر.

كان «باسم» يقف مع والده أمام الأبواب.

يفرش الوالد على العتبة قطعة سميكة من الخيش، يضع عليها السلال الثلاث مُتحاشياً أن ترشح منها نقطة ماء فتترك على الرخام أثراً لرائحة السمك.. ثم يقول: «يا الله». ويقرع جرس الباب ويروح ينتظر حتى تفتح الخادمة أو الخادم. ثم تبدأ فترة ثانية من الانتظار حتى تطل سيدة البيت بروبها الفاخر، وبعطرها الصاعق، لتلقي نظرة على السمك وتختار ما تشتهي.

نادراً ما ساوم أحد من هؤلاء الأثرياء على السعر، ونادراً ما تحققت أمنية باسم بأن يعود إلى المنزل ومعه سمكة تشتهيها العائلة ولا تحصل عليها. فالسمكة اللذيذة للأثرياء، وللعائلة سمك «العرموط». . هذا إن وُجِد دائماً «العرموط».

كان باسم يعذب نفسه بالتساؤل: لماذا نحن نجني الرزق وهم يأكلونه؟. ولماذا نجوع نحن والرزق بين أيدينا، ونحن محرومون منه؟

في أيام طفولته كان يسرق فتات الخبز من البيت ويهرب إلى شاطىء البحر. هناك كان يقف على صخرة ويروح يرمي كسرات الخبز اليابس في المياه، فتظهر سريعاً الأسماك الصغيرة، وتتراكم مثل طرد نحل فضي على كسرة الخبز. وفجأة تظهر سمكة كبيرة فتخطف كسرة الخبز وتغوص بها في الأعماق، وتختفي الأسماك الصغيرة.

تذكّر باسم كل ذلك وهو يقف قبالة «الشورت» المعلق على حبل الغسيل أمام باب الغرفة الصغيرة، فاكتشف أنه كان شيوعياً مذ كان في العاشرة.

تذكّر كم كان يتعذب وهو يمر صباحاً على رصيف شارع «أرسلان سنو» في «عين المريسة»، حاملاً كيس كتبه إلى المدرسة. كان يعذبه البخار المتصاعد من مطعم «السبيتي». كان ذلك البخار ينبعث من قِدر الفول، مشحوناً بنكهة الثوم والحامض، والبقدونس. وكان العم «أبو فريد» يقف بمريوله

الأبيض خلف القدر النحاسي الكبير، وحوله صحون من الفخار الأحمر المزيّح بخطوط صفراء.

وتذكّر يوماً رأى فيه على جدار شارع في «عين المريسة» رقعة توتياء زرقاء عليها ثلاث كلمات بالإنكليزية.

كان جدار الشارع عالياً، وأخذ الولد يتهجأ الكلمات الثلاث، حرفاً حرفاً، فلا يعرف معناها. وقد تأخر بضع سنوات حتى فهم أن الكلمات الثلاث تعني «شارع جورج بوست». ولقد تأخر بضع سنوات إضافية حتى فهم أن وراء ذلك الجدار العالي يبدأ حرم الجامعة الأميركية.

مرّت تلك السنوات في ذاكرة باسم، وهو يمشي تائهاً من بوابة «أوتيل دي مارين» إلى شاطىء «عين المريسة»، ثم إلى شارع «جاندارك» حيث بيته الجديد الذي دخله للمرة الأولى منذ ست سنوات فقط. يومها سألتْ والدته والده: هل تصدُق معي وتقول لي من أين هبطت علينا كل هذه النعمة؟ لكن والده لم يتردد ولم يتلعثم عندما أجاب أن الله رزقه على وجه «باسم» وعلى اسمه.

«ليديا. . لعلّي ذهبت بعيداً إلى الوراء». كتب «باسم» في رسالته إلى «ليديا»، وتابع:

ولربما كان الأجدر بي أن أعفيك من هذه الصفحة المأساوية من حياتي، لكنها الحقيقة. بل من الأجدر بي أن أفصح لك، مباشرة، إنني الآن أجد نفسي عائداً إلى حيث ولدتُ ونشأت

في تلك الغرفة الحقيرة. فوالدي صاحب «شركة الباسم للصيد البحري»، موقوف في السجن منذ ثلاثة أشهر. وودائع والدي في البنوك محتجزة، وكذلك بيتنا الحديث، ثم إن الأمل بالبراءة ضئيل جداً. المحامي أكّد لي أن الجرم المتهم به والدي خطير. فثمّة امرأة ضحية كانت على علاقة مع والدي، لكنها شريكة في جُرم التزوير. إنها أرملة ثرية من دون أولاد. وهي وريثة زوجها الذي توفي قبل نحو ست سنوات، أي منذ انقلاب حياة عائلتنا من الشقاء إلى الرخاء.

كانت تلك المرأة هي «السمكة الذهبية» التي وقعت في شباك والدي. إنها ذات الروب الفاخر، والعطر الصاعق، الذي كان يفوح منها أيام كنت أقف مع والدي أمام بابها.

عِطر تلك المرأة مقيم في تجاويف أنفي لا يفارقه، مثل رائحة زنخة السمك، مثل رائحة ذلك الشورت. مثل رائحة عرق بدن والدي.

بماذا يمكن أن تساعديني ليديا؟ لا شيء. لا شيء على الإطلاق. فأنا، بعد بضعة أسابيع، سوف أكون في حفل التخرّج على بساط الملعب الأخضر في الجامعة الأميركية. ومنذ الآن أرى نفسي مزهواً بالروب الأسود الفضفاض، والقبعة ذات «الشرابة» الجانبية. أمشي كأحد أبناء الطبقة الأريستوقراطية، وأتقدم إلى منصة العميد لأتسلّم شهادة البكالوريوس في التاريخ والعلوم السياسية.

لستُ خائفاً أن تُصادر شركة والدي.. وقد صُودرت.

ولا أخاف أن نُطرد من بيتنا، وسوف نُطرد حتماً. ولا أرتبك إذ يتراءى لي والدي محكوماً بعقوبة السجن سنوات عدة. وسوف يُحكم.

لكن سؤالاً يدهمني، فيُرعبني: هل يمكن لسلطة، بأي قانون، أن تصادر شهادتي الجامعية، وأن تنتزع مني العلوم التي حصّلتها؟

إني أملك الجواب اليقين: مستحيل.

بَيْدَ أني أتساءل بسخرية مرة:

لولا الجرم الذي ارتكبه والدي، هل كان توفّر لي حظ الحصول على العلم الحلال بالمال الحرام؟ ولولا فساد والدي، هل كان لذلك الحظّ الجيِّد أن يحالفني؟. وهل كان توفُّر لي غير شهادة فقر حال؟

وإني لأسألكِ، وأسأل مدام أولغا، وأسأل جاناد، كما أسأل كل قاض، وكل مفكر ومثقف يميني ويساري وبورجوازي.

وأسأل الدولة والمجتمع، رجالاً ونساءً، طلاباً وطالبات، وعائلات ساكنة وساكتة، في بيوتها:

ــ هل أنكر والدي أم أشكره؟

ــ لا أعرف، لا أعرف، ولا أريد جواباً من أحد.

أخيراً، عُذراً ليديا. سامحيني. . (باسم).

عندما ترجّل جاناد من الحافلة على مفرق «ربوا» كان قد حفظ رسالة «باسم» عن ظهر قلب.

كانت «ربوا» أصغر من قرية وأكبر من مزرعة. وكانت فيها بضع حارات أكبرها «حارة الأفندي».

والحارة في «ربوا» تعني المبنى المؤلف من طابقين، وكل ما سواه هو بيت.

و«حارة الأفندي» أصلها مغارة. وكان لتلك المَغارة أكثر من اسم. فالبعض يذكر أنها «مغارة النمس». و«النمس» حيوان صغير أصغر من ثعلب، لكنه مختص بافتراس الدجاج ليلاً، وكان مأواه المفضل تلك المغارة الصغيرة التي حملت اسمه.

لكن المغارة صارت «حارة». ثم حملت اسم «حارة الأفندي» بعدما شُيِّد عليها بيت كبير من طابقين في وسط مزرعة. وإلى تلك «الحارة» مشى جاناد من ساحة «ربوا».

على عمود حجري، إلى جانب طريق فرعي، نقشت كلمتان بالإزميل: «حارة الأفندي» وكان الجنيناتي الذي يسمى «الحارس» هناك. فناداه جاناد:

ــ «عسّاف». . افتح كفك يا عساف.

فأخذ عساف يمسح راحة يده بقميصه قبل أن يضع كفه في كف الأفندي داعياً له بطول العمر، ثم قال له:

ــ جناب الوالد والوالدة ذهبا قبل قليل للقيام بواجب زيارة ولن

يتأخرا بالعودة. هذا ما أبلغني اياه جناب الوالد لأقوله لك.

فشكره جاناد، ومشى وهو يقول لنفسه: لو أن عشرة في المئة من الفلاحين والعمال الروس كانوا على هذا الهوان الذي يتميّز به «عساف» لما كانت الثورة البولشفية قد قامت.

كان عساف قد قارب الخمسين بالعمر ولم يتزوج. وكلما سأله أحد «لماذا؟..» كان يجيب حاسماً: «أعزب دهر ولا متزوج شهر».

وكانت جدة جاناد تقيم في الطابق الأرضي من المنزل، وحيدة، مع فتاة صغيرة تخدمها، وقد أصرت على البقاء في تلك الشقة الصغيرة التي استقبلتها ليلة عرسها، حين تزوجت من مسعود أفندي جد «جاناد».

كانت الجدة «جوهر» ممددة على أريكتها قرب الشباك المفتوح على البساتين. وكانت الشمس قد بدأت تميل نحو الشمال الغربي، فملأت غرفة العجوزحرارة. كانت الجدة تسند ظهرها ورأسها إلى وسادة وثيرة عالية، حين سمعت صوتاً يناديها: «ستّي»..

فتحت الجدة ذراعيها لحفيدها الذي انحنى مسلماً رأسه، صامتاً، يغمره حنان لا يشعر بمثله في حضن آخر.

«لكِ عندي بُشرى.» قال لجدته وهو يلوّح بالرسالة:

«هذه من عمي خليل، لقد ظهر في بوانس آيرس».

ــ الحمد لله. قالت الجدة رافعة يديها إلى السماء.

وماذا عن أخباره؟ سألت بلهفة.

ــ ليس أكثر من أنه بخير. قال جاناد، ثم قرأ للجدة رسالة العم، فأغمضت عينيها، وأحنت رأسها، وبعد قليل لاحظ جاناد دموعها بين ثنايا جفونها المتجعدة وهي تقول:

كلّ عمره، كان عمك خليل هكذا، كتوماً. ويبدو أنه لم يتغير بعد ثمانٍ وعشرين سنة. قليلاً ما ثبت على عنوان. ففي رسائله النادرة كان يكرِّر الكلمات ذاتها: «أنا بخير، أشغالي لا بأس بها. أقبِّل يدي سيدتي الوالدة، وسيدي الوالد وشقيقي» هذا كل ما كنا نعرفه عنه. ولا أدري بالضبط متى انقطعت رسائله واختفى. لكني أتذكّر أنه تنقل بين البرازيل وبوليفيا. وآخر عنوان له كان في مقاطعة «مندوسا» في الأرجنتين.

وراحت الجدة تتساءل، وهي تنشف دموعها بمنديلها:

«هل هو متزوج؟ هل عنده عائلة؟ هل عنده أولاد؟. لا أعلم. ولا جدك، الله يرحمه، كان يعلم سر ذلك الكتمان. حتى أن أحد المغتربين العائدين من الأرجنتين، زارنا ليقول لنا إنه تعرف على خليل شخصياً في بوانس آيرس، لكنه لا يعرف عنه شيئاً. فقد التقاه مصادفة في مكان عام».

وقال جاناد لجدته:

ــ سوف أسافر أنا إلى الأرجنتين لأكتشفه.

ذُهلت الجدة بالمفاجأة:

ـ هل تنوي السفر فعلاً؟

ـ هذا ما يطلبه العم خليل مني. لكني سوف أدرس الفكرة من الآن حتى ما بعد تخرّجي من الجامعة في مطلع الصيف.

فقالت الجدة متوسلة:

ـ الله يرضى عليك يا حبيبي، إذا نويت على السفر فلا تسافر قبل أن تتزوج.

ثم ابتسمت، فغارت عيناها الزرقاوان تحت جبين مُتجعّد:

ـ ألا تعشق صبيّة حلوة يا حبيبي؟ وهل هناك صبية لا تعشقك؟

التقط جاناد لحظة الصفاء في مزاج جدته، فتجرأ على أن يسألها مازحاً:

ـ لم تخبريني، يا ستي، كيف وقعتِ في حب جدِّي مسعود؟

اصطبغ وجه العجوز بحياء متوهِّج:

ـ ما بك يا بْني؟. إنك تحاول أن تطرق جرساً صامتاً منذ سنين؟

ـ أريد أن أسمع رنة ذلك الجرس، يا ستي.

وبدا على الجدة أنها مترددة، لكنها كانت تستجمع حيويتها

لتروي ما لم تكن تتوقع أن تؤاتيها فرصة لترويه. لقد دهمها سؤال حفيدها بشغف مفاجىء لأن تتكلم، ولم يكن لديها أي تفسير لذلك الشغف الذي أتاها في تلك اللحظات.

كان جاناد يجلس قبالة جدته متأهباً للسمع.

فقالت الجدة وهي تتلمّظ بريقها:

«لم تكن في حياتنا قصة حب سبقت زواجنا، مثلما في حياة جيلكم اليوم. لكن الحقيقة هي أن والدة جدك مسعود وقعت في حب والدتي، فكان أن وقعت أنا في حب جدك، كما وقع هو في حبي، وحين جاء مع والده ووالدته لطلب يدي من أهلي كان عليّ أن أتردد خجلاً، فلا أوافق فوراً، وكان على أهلي أن يستمهلوا أسبوعاً للجواب. ثم تزوّجنا.

قالت الجدة ذلك، وقد حرّكت حاجبيها. ففهم جاناد أن الجدة تعني الأصول في التقاليد. ثم طرح على جدته السؤال الأصعب:

ــ هل صحيح أن عائلتنا في الأصل، ليست عائلة الأفندي؟

ــ من قال لك ذلك؟ . . . ردت الجدة باستهجان. فقال جاناد:

ــ سمعت ذلك مرتين، المرة الأولى حين دخلت في الصيف الماضي دكان «شبلي الشنتير» لأشتري زجاجة كازوز، فسألني الرجل عن اسمي فقلت له: أنا ابن شاهين الأفندي، فقال لي:

ــ «أنت ابن الشنتير، ونحن أقارب».

والمرة الثانية، كانت ظهر هذا اليوم، حين قال لي في الحافلة رجل من «كرم الشقيف» إننا من عائلة «الشنتير»، وإن «الأفندي» ليس لقباً ولا اسماً.

ثم سأل جاناد جدته: هل هذا يعني أن جدي كان «مسعود الشنتير» وأن والدي هو «شاهين الشنتير». وما أنا إلا «جاناد الشنتير»؟

ـ هذا صحيح تماماً. قالت الجدة مؤكدة. وأردفت: لكن يجب أن تعرف أنك الوحيد الذي حمل اسم الجد الأول لعائلة الأفندي.

ـ إنني لا أفهم ما هو اسم عائلتنا، هل هو«الشنتير» أم «الأفندي»؟

طلبت الجدّة من الفتاة الصغيرة أن تعدّ كأسين من شراب الورد.

ثم قالت لجاناد:

ـ والدك يستشيط غضباً عندما يسمع أحداً يلمّح إلى أننا من عائلة «الشنتير» ولسنا من عائلة «الأفندي». لكن الحقيقة أن عائلة «الأفندي» أو «أفندي» لا وجود لها في «ربوا». جدك مسعود كان يعرف هذه الحقيقة، ووالدك يعرف، ووالدتك تعرف، لكنها تحرص على لقب «زوجة الأفندي». فهي من عائلة «أفندية» في مصر. وقد تزوجت والدك على أنه أفندي ابن أفندي. ولعلها خُدِعت باللقب. ولكن بعد مرور زمن.

كان جاناد يستمع إلى جدته، تاركاً لها الوقت لتتكلم على مهل، فتابعت:

ــ جاناد الأول هو ذلك الجد الذي تحمل أنت اسمه. كان اسمه «جاناد الشنتير»، وإذا كنت لا تعرف معنى «الشنتير» في الجبل، فمعناه ينطبق على رجل طويل القامة، وكفّه كبيرة. ذاك هو الرجل الذي يوصف بالشنتير. فوالدك، مثلاً، هو نسخة طبق الأصل عن الشنتير، وهو قد وُلد بعد ثلاثة صبيان سبقوه، ولم تُكتب لهم الحياة.

وإذ أخذت الجدة جرعة من شراب الورد تابعت:

ــ يُقال إن جدّكم الأول كان يملك هذه الأوصاف، ومن كان مثل جدكم كان يليق به أن يكون «شاويشاً» في سلك العسكر العثماني. ويُقال أن العثمانيين سلّموه «كركون الحرش» وأفرزوا له «كديشاً» مرقطاً لونه أغبر، ظهره عال ومسطح، وبطنه منفوخ، وقوائمه ضخمة عليها شعر كثيف، وحوافره من حوافر البغال».

«باختصار، كان ذلك الكديش قادراً على حمل جدك، فكان يعتلي ظهره، متباهياً ببزته العسكرية، وبالقلبق القوقازي، متمنطقاً بالبندقية «العسملية»، والكرباج في يده. كان كرباجه طويلاً، حتى إذا استقام على ظهر الكديش ووضع قدميه في الركاب، كان كرباجه يطاول الركاب.

«وكان جدك إذا ركب «الكديش» وسار إلى القرى والمزارع، تبعه ثلاثة عساكر مشاة، فيدبّ الذعر بين نسوة المزارعين، ويطرحن الصوت: «جاء الأفندي». فمن كانت منهن تملك «ساعور ماعز»، أو طير دجاج في فناء الدار، سارعت إلى

إخفائه، وإلا وقع غنيمة في يد الأفندي الشاويش جدك.

كانت الجدة «جوهر» تتكلم وتغرق في الضحك. ولم يكن جاناد يعهد بها ذلك الظرف، فقال لها:

ـ إذاً. . مِنْ ذلك الجد الشاويش جاءنا لقب الأفندي؟

ـ نعم يا ستي، نعم، لقد روى لي جدك مسعود أن جدكم الأول كان أينما ذهب، وأينما حل، يقال: جاء جاناد أفندي، وقال لنا جاناد أفندي. وطلب منا جاناد أفندي. كان نفوذه قوياً في «دائرة النفوس»، ولا أحد يعرف كيف استطاع أن يحوِّل اسمه من «جاناد الشنتير» إلى «جاناد الأفندي».

ويُقال أن نفوذه كان يطال دائرة «الصحيفة العقارية»، فاستطاع أن يحوِّل بعض المشاعات العامة إلى ملكيته الخاصة. ولا بدّ أن أحداً من الضباط العثمانيين كان يحميه، ويتقاسم معه الفوائد، وإلا فكيف استملك حقولاً هنا وفي الجوار، ومنها هذه «الحارة» التي حملت اسمه؟

ثم سألت الجدة حفيدها:

ـ ألم يُطلعك والدك على بعض هذه المعلومات عن الجد الأول لعائلة «الأفندي»؟

ـ أبداً، أبداً إنما روى لي مرة كيف أن جده الأول جاناد أنقذ جدي مسعود من الخدمة الإجبارية في الجيش العثماني. قال

لي إن ذلك الجد كان كريماً، وكان كسّاباً، وهّاباً، يأخذ ويعطي بلا حساب، ولا مِنّة.

ــ وهل صدّقت؟. قالت الجدة جوهر، وأردفت:

ــ كان نصّاباً، كذاباً. نهّاباً.

ثم قهقهت ضحكاً حتى سالت دموعها وهي تقول:

ــ لا أخفي عنك أني كنت سعيدة بلقب «الست جوهر». فلو لم يكن جدك الأول أفندياً، وجدك مسعود أفندياً، لما تقدمت أنا على نساء الفلاحين في «ربوا».

كان جاناد مأخوذاً برواية جدته حين سمع صوت والده في الجهة الثانية من باحة الدار. لكنه ظل مجالساً الجدة. وحين ودّعها خارجاً التفّ حول «الحارة» إلى الجهة الغربية ليطرق الباب الرئيسي.

ــ جاناد أفندي؟ صاحت مذبرة المنزل، ومدّت يديها لتأخذ بيد الأفندي جاناد، فيما صوت من الداخل يسأل:

ــ مَنْ أتى يا «أبريز»؟

فأجابت «أبريز» التي ينادونها «إم راجي»، وقد غمرتها فرحة عظيمة:

ــ هذا جاناد أفندي، يا ست هيلا.

أقبلت «هيلا» ملهوفة، تجرّ خلفها ذيل عباءتها الحرير:

ـ وحشتني يمّا . .

قالتها بحنان أمهات «طنطا» وبعذوبة لهجة بنات الإسكندرية.

ـ «قوليها كمان يمّا» قال جاناد وبالكاد طلع صوته. كانت كلمة «يمّا» بصوت أمه تسحره. فهذه المرأة السكندرانيّة، تحاول، عبثاً، منذ اثنتين وعشرين سنة، أن تبدل لهجتها المصرية إلى اللهجة اللبنانية، فلا تُفلح. ثم إنها هي، أصلاً، لا تحب أن تبدل لهجتها المصرية، وحين يسألها أحد لماذا تصرّ على لهجتها تجيب بغنج:

ـ حرام عليكم يا جماعة، سيبو لي لساني!!

كانت «هيلا» قد طلبت من «أبريز» إبلاغ شاهين أفندي أن جاناد وصل. ولم يتأخر حتى تنحنح وهو يخرج من غرفته ملتفاً بعباءته الحرير السوداء، فوقف جاناد متقدماً نحوه، وانحنى ليلثم يده، فأخذ الوالد وجه ابنه بين راحتيه، وقبله على رأسه، ثم جلس على أريكته كأنه يجلس بين ضيوفه في صدر صالون الاستقبال، وقال لجاناد: كانت رسالة عمك خليل مفاجأة. لكن ماذا يقول فيها؟

أخرج جاناد من جيبه رسالة العم خليل، وقدمها إلى والده، فأخذ يحاول قراءتها وهو يُمسّد شاربيه. ثم التفت إلى جاناد:

ـ ماذا يقصد عمك بعرضه عليك فكرة السفر إلى الأرجنتين؟

ـ وماذا يمكن أن يكون قصده غير السفر؟ قال جاناد.

ـ وما رأيك أنت؟

ـ لقد قبلت الفكرة.

وفي حين شهقت «هيلا» واضعة يدها على صدرها، قال «شاهين أفندي»:

ـ هذا قرار لا تتخذه أنت وحدك يا جاناد.

ومن دون تردد، قال جاناد:

ـ هذا قراري، وقد بعثت جوابي إلى عمي بالبريد الجوي هذا الصباح.

رمى الأفندي رسالة شقيقه أرضاً، ووقف غاضباً، فجمع أطراف عباءته، ثم خرج من دون أن ينبس بكلمة. أما «هيلا» فبدت هادئة وقد غابت عن وجهها معالم المفاجأة التي كشف عنها جاناد، فسألته:

ـ هل أنت جادّ بأنك اتخذت القرار السليم يا بنيّ؟

ـ نعم. بالتأكيد. قال جاناد.

مشت «هيلا» نحو صالون الاستقبال لتطلّ من النافذة على فناء الدار، فرأت زوجها جالساً في ما يُسمّى «مقعد الليمون». كان يعدّ حبات مسبحته. فعادت تقول لجاناد:

ـ أنا لا أجادلك في حقك باتخاذ قرارك، لكن كان عليك أن تطلعنا أولاً على مثل هذا القرار.

ـ لو لم أضع قراري في صندوق البريد، لكنت الآن تحت ضغط تغييره. قال جاناد وقد خالجه شعور بأن والدته لا تمانع بسفره، وليس عليه إلّا أن يقنع والده، وكان يعرف كيف يراعي خاطره، فخرج إلى «مقعد الليمون»، وحين رآه والده مقبلاً أدار وجهه نحو الوادي.

ـ بابا، أنا تسرّعت بإرسال جوابي إلى عمي. لكن أطلب منك أن تسمعني جيداً.

وقبل أن يلتفت والده نحوه تابع:

ـ أنت، منذ صغري، تقول لي: فكِّر جيداً قبل أن تتخذ قرارك، فإذا اقتنعت، خُذ قرارك وتحمّل المسؤولية، ولا تتردّد. فتنجح. ولقد فكرت جيداً واتخذت قراري بالسفر، وسوف أفعل ذلك على مسؤوليتي، ولكن ليس قبل أن أتخرّج.

ثم سكت وهو ينظر في وجه والده مستطلعاً رأيه، لكن عرقاً واحداً لم يتحرك في الوجه الصارم. فعاد جاناد يقول:

ـ هذا العم مضى على اختفائه ثمانية وعشرون عاماً من دون عنوان، وأخيراً ظهر كاشفاً عنوانه للمرة الأولى، فهل ندعه يفلت؟ ألا يستحق المغامرة لنعرف من هو، وأين هو؟

لاذَ الوالد بالصمت، وراعى جاناد صمته، ثم فوجىء به يهبّ

واقفاً ليمسك بيده ويقوده نحو مدخل البيت. وعند باب الصالون توقف ليُشير إلى الصورة الكبيرة التي تتصدَّر الجدار:

ـ ألا تستوقفك صورة الجد الأول الذي تحمل إسمه؟. .

ثم أردف: انظر إليه. أنا أتصبّح كل يوم بصورته، فأراه أمامي، وأتأمّل الكبرياء والشهامة في عينيه. فلنكن على مثاله.

أحنى جاناد رأسه. وحضرت في ذهنه فوراً الكلمات التي قالتها له جدته قبل نحو ساعة عن ذلك الجدّ «إنه نصّاب نهّاب كذاب».

كانت «هيلا» جالسة على أريكة في الصالون، فتدخلت لتقول لجاناد:

ـ سمعت يَبْني؟ كده يكونوا الرجّالة، ولاّ بلاش!

وإذ أعجب الأفندي بكلام «هيلا» قال لجاناد:

ـ نحن بحاجة إلى عمك خليل. أتمنى أن تعود من الأرجنتين وهو معك.

وفي تلك الليلة نامت العائلة على وفاق. وقد روت «هيلا» لجاناد حكاية صورة الجد الأول. قالت له إن والده عزم قبل نحو عشر سنوات على تنفيذ ما اعتبره واجباً أخلاقياً، فقرّر أن يرسم صورة مكبّرة لذلك الجد الذي لم تكن له أي صورة. لكن «الأفندي» حمل صورته هو إلى رسام في بيروت، وطلب

منه أن يستوحي منها صورة للجد الأول. فجاءت مطابقة لصورة الأفندي «شاهين».

وأضافت هيلا:

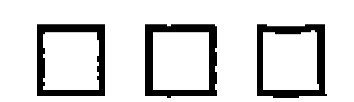
ـ كان الرسام مُخاتِلاً من الدرجة الأولى. فحين علّق الصورة في صدر الصالون تأمّلها مُتباهياً، ثم قال لوالدك:

ـ أنا واثق بأنك تشبه جدكم الأول. فاستناداً إلى دراساتي في العلوم الإنسانية، أعتقد أن الشخصيات النبيلة تتكرّر في وجوه بعض من يخلفونها.

سأل جاناد أمّه:

ـ هل تعتقدين أننا «عائلة أفندية» يمّا؟

ـ «أفندية إِيهِ يبني؟ أنتو شنتير. شنتير. وبعدين مالهم أولاد الشنتير؟. ناس طيّبين، رجّالة وجدعان».



IV

صاحت ديوك «ربوا»، فصحا الكابورال «أبو راجي» من نومه ليبدأ معاناته مع الفجر. مدَّ أولاً ذراعيه إلى الإمام. ثم شبك قبضتيْه، وتمطّى وهو يأخذ نفساً عميقاً.

وحين شعر بأنه امتلك وعيه بدأ تمرينه الصباحي، ضغط بكلّ قوة ساعديه ليتمكن من أن يستوي جالساً على فراشه الممدود على الأرض. ولأنه طويل القامة، وجد نفسه جالساً عند منتصف الفراش. ثم كان عليه أن يضغط بكفيه على الجانبين، ليتمكن من أن يرفع مؤخرته قليلاً عن الفراش، ثمّ أخذ يتراجع زحفاً، شبراً، بعد شبر، إلى الوراء، ليسند ظهره إلى الجدار.

ولم تمضِ لحظات حتى فتح الكابورال فمه على وسعه، وشهق نفساً طويلاً، ثم أطلق زفيراً عالياً مصحوباً بصرخة «آخ».

كانت زوجته «أبريز» نائمة على فراشها في الزاوية المقابلة فاستيقظت، كما في كل فجر، على موّال الكابورال. نضت

عنها الغطاء ونهضت لتفتح الشبّاك. كانت في غلالة النوم، فرفعت غلالتها وفشخت فوق الكابورال لتطال الدرفة، فلم يستطع الكابورال أن يغضّ الطرف.

وفي تلك الأثناء صاحت ديوك «المنطرة» في القاطع الثاني فقال الكابورال لأبريز:

ــ ألا تستيقظين إلّا على صياح ديوك «ربوا»؟ لماذا لا تستيقظين على صياح ديوك «المنطرة»؟

ــ وهل عندهم في «المنطرة» ديوك؟ علّقت «أبريز» بسخرية.

ضحك الكابورال. ثم أمسك بطرف حبل يتدلى من السقف إلى ما فوق رأسه بقليل، فتشبث به وراح يشد جسده إلى فوق، حتى تمكن من أن يستقيم واقفاً، وقد أسند ظهره إلى الجدار.

وكانت «أبريز» واقفة قربه بانتظار إشارة منه، فقال لها وهو يلهث: «ناوليني رِجلي».

وكما في مطلع كل فجر، حملت «أبريز» إلى زوجها رِجْله الاصطناعية، ثم انحنت لتُدخِلَ فخذه اليمين في قالب الرِجْل الخشب. كانت الرجل اليمنى الاصطناعية متساوية بالطول مع رجل الكابورال اليسرى، إلا أنها كانت بساق رفيعة تنتهي في أسفلها بكرة صغيرة من الكاوتشوك.

وحين استقامت «أبريز» لتشدّ حزام الرجل الاصطناعية إلى الكتف اليمين لزوجها، كان عليها أن تنحني، من جديد، لترفع

البنطلون الكتان المرمي على الأرض قرب الفراش، ثم تساعد الكابورال على ارتدائه.

وهكذا اختفت الرجل الاصطناعية في ساق البنطلون، لكن لم يكن ممكناً إخفاء الكرة الكاوتشوك التي بقيت عارية، من دون فردة حذاء، كما في القدم اليسرى.

وقف الكابورال رجلاً كاملاً، وقد استعاد توازنه، وصار بإمكانه أن يمشي وحيداً، من دون عكاز، فهو يكره العكّاز، وقد تدرّب طويلاً حتى أصبح قادراً على المشي بالرجل الاصطناعية، إلا أنه يمشي بحذر، وببطء شديد.

لم تكن مهمة «أبريز» قد انتهت في ذلك الصباح، فعليها أيضاً أن تهيئ لزوجها ترويقته وغداءه، فملأت أربعة أرغفة باللبنة الدسمة، وملأت رغيفاً خامساً بمربى التين، وزادت على المربى حفنة من حبوب الجوز والصنوبر.

هذه الزوّادة التي أعدتها لزوجها، أعدت مثلها لابنها راجي.

وكان راجي قد خرج من غرفته يسبقه فوح عطر رجولي صارخ. ومع أنه لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة، بعد، فقد اختاره «شاهين أفندي» ليكون ناطوراً على الأملاك. ولكي يكون مهاباً كان يتمنطق بمسدس من نوع «كولت». ومع أن المسدس من غير رخصة رسمية، لم يكن راجي ليحاول أن يخفيه، إنما كان يعلّقه بارزاً في حزامه على الجانب الأيمن من

خصره. أما الجانب الأيسر من الحزام، فهو للخنجر الذي لا يفارقه.

كان راجي قد برع في الرماية قبل أن يبلغ الرابعة عشرة. فقد درّبه والده على طريقة سحب المسدس واستعماله لإصابة الهدف بسرعة. كان الوالد يكرِّر على مسامع ابنه، وهو صغير، عندما يراه يلامس مسدسه العسكري: «ليس المهم أن تحمل مسدساً، بل المهم أن تعرف كيف تطلق الرصاص، وتصيب الهدف. فإياك أن تلعب هذه اللعبة قبل أن تتقنها».

وقد أتقن راجي اللعبة باكراً.

وفي ذلك الصباح لثَمَ راجي يد والده، ثم يد والدته، وخرج حاملاً عصاه الطويلة، الأطول من عصا كشاف، وراح يجول فوق التلال والوهاد. يغلّ في الحقول حارساً الأرزاق، مدركاً مدى سطوته ومهابته. فالناطور في القرى والمزارع هو رأس السلطة.

بدورها كانت «أبريز» تستعد لمغادرة المنزل بعدما اطمأنت إلى أن زوجها قد جلس على مقعدهِ في صحن الدار، والى جانبه ركوة القهوة، وعلبة الدخان اللف، والولاعة، وإبريق الماء.

ــ هل تحتاج شيئاً بعد، يا كابورال؟ سألته «أبريز» مازحة:

ــ أحتاج إليك فقط.

سلكت «أبريز» الدرب اليومي، الذي لا يتبدل، إلى «حارة الأفندي»، وقبل أن تبتعد، ناداها الكابورال: لا تنسي أن تبلّغي

سلامي إلى جاناد أفندي. لكنها حين وصلت إلى حارة الأفندي كان جاناد قد غادر مُتوجِّهاً إلى تلة قريبة حيث له هناك صخرة ملساء تحت شجرة سنديان.

لماذا جاءَ في ذلك الصباح إلى تلك السنديانة على التلة؟

لعلها أبريز التي استقبلته بالأمس، وقد أخذت يده بين راحتيها، هي التي أيقظت ذاكرته مع تلك السنديانة.

وقف أمام السنديانة وراح يتلمّس جذعها، فأحس بقساوة قشرة الجذع الذي لم يلمسه منذ سبع سنوات. ثم أخذ يُمرِّر إصبعه بحركة دائرية، وبرفق، على بقعة يعرف مكانها على الجذع، وهي بقعة صغيرة بمساحة بصمة الأبهام. كان متأكداً من أن الاسم الذي حفره في جذع السنديانة قبل سبع سنوات، موجود الآن تحت القشرة حيث يضع إصبعه.

كم تبلغ سماكة القشرة التي نمت فوق الاسم؟ كان من الصعب على جاناد أن يُقدّر ولقد ثبّت إصبعه في موضع الاسم، وهو يقف حانياً رأسه، وكأنه يصلّي. ولم يكن يصلي، بل كان يتذكر يوماً بعيداً جاء فيه إلى هنا على التلة. وكان قاصداً شجرة السنديان هذه، وكان يحمل سكيناً. .

يومها فتح نصل السكين وغرزه في جذع السنديانة، فشقَّ فيه جرحاً ثم راح يحفر بنصل السكين حروف الاسم، حرفاً حرفاً. وحين أكمل الحفر، اكتشف أنه لم يضع النقطة الأخيرة فوق الحرف الأخير من الاسم وكان حرف «ن»، فعاد وغرز النصل

في الجذع، وأخذ يضغط بحركة دائرية. وإذ انتزع نصل السكين من الجذع، بانت نقطة النون محفورة بشكل حبة عدس. ورآها تلمع، ثم تراءت له مثل عين تدمع، فمد إصبعه إلى نقطة النون، ولامسها بعناية، فأحسّ بقطرة دم على طرف إصبعه، فارتجف، وتراجع إلى الوراء. كان نصل السكين ما يزال مفتوحاً في يده. وقد تسمّرت عيناه على نقطة النون وهي تتراءى له عيناً تدمع، فانحنى ببطء ووضع السكين على الأرض. ثم ما لبث أن استقام، وعاد إلى جذع السنديانة ليتأمل حرف النون المحفور، فلم يرَ إلّا عيناً تدمع.

ومن جديد انحنى والتقط السكين عن الأرض، وكان نصلها لا يزال مفتوحاً، ثم استدار ليجلس على الصخرة، وأخذ يتحسس بقدميه العشب الذي يكسو الأرض. كانت الأرض رخوة لكثرة ما ارتوت مطراً وثلجاً في ذلك الشتاء. وراح يتأمل السكين بنصلها المفتوح في يده، ثم غرز النصل في الأرض، ووقف على عقب السكين وضغط بقدمه، بكل ثقله، ثم حمل حجراً كبيراً، ودق به مقبض السكين حتى غاصت واختفت في باطن الأرض.

حدث ذلك قبل سبع سنوات، وقد أصبح الاسم آمناً في رحم السنديانة، ونمت فوقه طبقة من القشرة الصلبة، وسوف تتراكم فوقه طبقة فوق طبقة، وسوف يأتي جيل، ربما بعد مئة سنة، أو أكثر، فيفاخر أهل «ربوا» بأن لديهم سنديانة لا يستطيع أربعة رجال أن يحوطوا جذعها بأذرعهم. لكنّ أحداً منهم لن يعرف أن في رحم تلك السنديانة اسم «ياسمين».

لم تكن ياسمين إلا ابنة «أبريز» والكابورال «أبو راجي». وقبل أن يكون أبو راجي كابورالاً كان عاملاً زراعياً في حقول الأفندي. وكانوا ينادونه «المعلم سالم»، فهو أمهر من حمل المقصّ الزراعي. كان يكفي أن يتأمل شجرة عارية في فصل الشتاء ليصمم لها حلة جديدة لفصليْ الربيع والصيف، فتأتي في موعدها بأبهى حلة كما رسمها.

«راجي» كان الابن البكر الذي تكنّى به والده ووالدته. وكان أكبر من شقيقته «ياسمين» بأربع سنوات. وكان موصوفاً في صغره بـ«الكسار» بين تلاميذ مدرسة «ربوا».

في صيف ذلك العام ١٩٤٠، يوم حفر جاناد اسم «ياسمين» في قلب السنديانة، كانت البنت صاحبة الاسم، تحبو نحو السابعة من العمر. وكانت معتلّة بداء «القحة». ولم يكن ذلك الداء إلا داء السل. وفي ذلك الصيف بالذات، كان فلاحو «ربوا» يستبشرون خيراً بمواسمهم. كانوا ينتظرون أرزاقاً وفيرة، لكن حرباً باغتتهم. كانت الحرب العالمية الثانية.

كان الجيش الفرنسي في لبنان، وكان منقسماً بين قيادة الماريشال «بيتان» الذي سلم باريس للألمان، وبين قيادة الجنرال شارل ديغول، الذي أعلن ثورة المقاومة والتحرير.

وصبيحة ذات يوم، هزَّ دويّ المدافع والصواريخ هضاب «ربوا»، وتردّدت الأصداء في الوديان.

مَنْ كانوا في منازلهم، في تلك الصبيحة، تناودوا للتجمع. ومن

كانوا قد بكّروا إلى الحقول، عادوا مسرعين إلى عائلاتهم. ولم يكن في «ربوا» مكان آمن إلا المطحنة والمعصرة، فسقف المعصرة، كما سقف المطحنة، من الحجارة العقد، والقناطر قائمة على ركائز لا تهتزّ. أما سقوف بيوت المزارعين، فإنها من خشب، وقصب وتراب، وجدرانها ركيكة.

كل الرجال والشباب وقفوا خلف مدخل المعصرة، وفي العمق تجمعت النسوة والصغار والبنات. أما الصبيان، من عمر العاشرة وما فوق، فقد اختلطوا بآبائهم. وكان في مقدم الصبيان «راجي».

وحده «أبو راجي» كان غائباً عن عائلته، وعن الرجال. وكان له عذره، فهو عسكري في الجيش الفرنسي. وآخر الأخبار الواردة إلى زوجته «أبريز» من مصادر غير معروفة، تقول إنه في الجبهة الجنوبية، على الحدود بين لبنان وفلسطين.

ذلك اليوم، استمر دوي المدافع وأزيز الرصاص، بعيداً فوق الروابي، وعبر الوديان. ولم يظهر عسكر ولا آليات من أي جهة. كان خوف رجال «ربوا» على أولادهم من الموت قتلاً، فتحوّل خوفهم من الموت جوعاً. فقد فرغت المعاجن من الخبز؛ وشحَّ النور في قناديل الكاز؛ وعاد الأهالي إلى سراج الزيت الذي إذا نضب لا تنضب بركته، كما يقول الأهالي. وهم يستشهدون ببَركَة زيت الزيتون، فيقولون: إلمسوا باب المعصرة أقدم باب خشب في «ربوا» تجدوه دائماً ندياً.

للمرة الأولى، تعلّم أهالي «ربوا» كيف يوفّرون الأمن

الجماعي، والغذاء الجماعي، والتكافل الجماعي. فكل ما في البيوت من مؤونة أتوا به إلى المعصرة. وحده بيت الأفندي كان ينعم في عزلته بالطعام والنور. لكن ما من أحد تطوّع لحماية ذلك البيت، ولو على سبيل المجاملة. لذلك غادر «عساف» حارس بوابة الأفندي غرفته، والتحق بأهله في المعصرة.

كان الرجال يتسللون بين السواقي إلى الحقول، ليأتوا بالثِّمار والحبوب، ولم تكن المواسم قد حان أوانها كلها. ومع استمرار الحصار بدأت الأقاويل تنتشر في «مجتمع المعصرة»، ومعظمها من النوع المثير للذعر. لكنها كانت تثير أيضاً الشكوك. وهذا ما لفت انتباه الشيوخ الذين كانوا يتساءلون باستغراب: من أين تأتي هذه الأخبار ونحن هنا جميعاً محاصرون، ولا اتصال بيننا وبين أحد؟ الأقاويل السيئة هي التي تستحق الاهتمام في القرى، بل هي المفضلة للنقل والتعميم.

أما أخطر ما قيل في «مجتمع المعصرة» خلال الحصار، فهو أن عسكر «الماروك» و«السنغال» في الجيش الفرنسي، سوف يطبقون على «المعصرة» وغايتهم النساء والصبايا.

هاج مجتمع المعصرة رجالاً ونساءً وفتياناً. وتعالت الأصوات مستنفرة النخوة لحماية الشرف.. لا شيء بقيت له قيمة: لا الطعام، ولا المياه، ولا النور، ولا الحياة برمّتها.

«ولكن ماذا نفعل؟ كيف نحمي أعراضنا وليس لدينا سلاح؟» قال كبير القوم سنّاً، فتقدم الفتى «راجي الطراش» شاهراً

مسدسه «الكولت» في يد، وخنجره في اليد الأخرى.

«آه يا بطل». صاحت أمه «أبريز» من وسط حلقة النساء وزغردت الصبايا.

فعاد كبير القوم يرفع صوته منادياً: «يا اخوان، يا شباب اسمعوني». فأصغى الجميع. قال كبير القوم: «إذا جاء عسكر الفرنساوية فسوف يكونون حتماً مسلحين بالكثير من البواريد، وبالكثير من الرصاص والقنابل».

فقاطعه أحد الرجال سائلاً بغضب:

ــ ماذا تعني يا أبو حاتم؟

تمهّل أبو حاتم بالجواب ليقول:

ــ أعني أن عسكر الفرنساوية سوف يقضون علينا نحن الرجال أولاً، ويفنوننا عن بكرة أبينا، ثم ينقضّون على النساء.

وقبل أن يكمل كبير القوم ليقول: «علينا أن نتخذ قراراً شجاعاً» صاحت صبية من وسط مجموعة الصبايا:

ــ «اقتلونا نحن أولاً، ثم دبروا أنتم أمركم».

سكت الجمع كما لو أن كلاماً نزل من السماء. فقال كبير القوم، متوجهاً إلى النساء والصبايا: بارك الله بأصلكم.

وما إن حلّ المساء حتى كان كبير القوم قد وضع خطة الدفاع

عن «مجتمع المعصرة». ولم يستمهل أحداً لدرس الخطة، فبدأ تنفيذها فوراً.

أخذ الرجال يخلون المعصرة، فوجاً إثر فوج، ليعودوا بعد قليل، فوجاً إثر فوج. وما هي إلا ساعة حتى خلت بيوت «ربوا» من المسدسات، والخناجر والسكاكين، ومقصات التشحيل. كان كل رجل قد عاد حاملاً أداة للدفاع عن النفس، مع ما تيسّر من المؤونة.

في وسط المعصرة وقف «أبو حاتم» وحوله وقف الرجال. وخلف الرجال وقفت النساء.

كانت شعلة سراج الزيت تتلوى في كل زاوية، فتعكس على الجدران ظلالاً عملاقة للرجال والنساء. كانت الظِّلال تتخالط مثل لوحات سوداء. لكن صوتاً طفولياً كان يعلو في المعصرة. فقد اشتدت نوبة السعال على «ياسمين» إبنة «أبريز» وشقيقة راجي، وكانت ترقد في إحدى الزوايا في عمق المعصرة. وربما لهذا السبب اشتدت عليها نوبة السعال. فدخان شعلة سراج زيت الزيتون كان يتراكم كثيفاً في الزوايا. ومع أنه مبارك، إلا أنه كان ثقيلاً على صدر الطفلة المعتلّة.

تجمّعت النسوة حول الطفلة التي أخذتها أمها بين ذراعيها.

كانت الطفلة تغيب في حال ما بين النوم والإغماء. ولم ينم أحد من «مجتمع المعصرة» في تلك الليلة. فالرجال تناوبوا

على الحراسة في الخارج، والنساء في الداخل يتسامرن. وحدهم الأولاد دون العاشرة ناموا.

في الصباح لم تُسمع ضربة معول في حقول «ربوا». فقد طغت أصوات الرصاص، وكانت أصوات المدافع تعكس أصداءها الوديان، ولا يظهر أثر للعساكر. ولقد احتار المزارعون في أمرهم، وهم الذين اختاروا حصارهم في المعصرة. وكان بعضهم قد بدأ يتململ متسائلاً:

ـ إلى متى نبقى هنا؟ عندنا شغل.

فيردّ كبير القوم أبو حاتم: طوِّل بالك يا ابني، لماذا أنت مستعجل على الشغل؟ العمر يخلص والشغل لا يخلص.

ويجد «عساف» حارس بيت الأفندي سبباً ليتكلم فيقول:

ـ لماذا لا يذهب أحدنا إلى الأفندي، ليسأله ماذا يجري خلف التلال؟ فلا بدّ أنّه يعرف ماذا يجري.

ـ ومن غيرك يا «عساف» للقيام بهذه المهمة؟ قال كبير القوم.

وردّ آخرون: صحيح.. من غيرك يا «عساف»؟

وفيما غادر عساف إلى «بيت الأفندي»، عابراً المسالك الأكثر أماناً بين الأشجار، انصرف الرجال إلى طرح توقعاتهم عن حرب يسمعون أنها بدأت من ألمانيا، لكنهم لا يعلمون لماذا، وكيف وصلت إلى لبنان.

عندما بلغ «عساف» بوابة بيت الأفندي، كان السكون يعمّ المكان، ولا يقطعه إلا صوت النهر وصخب العصافير في طيرانها وألعابها بين شجرة وأخرى.

كان مدخل الطابق الأول عند مطلع الدرج مغلقاً، فعرَّجَ عساف على الطابق الأرضي، وقد صح ما توقع. كان الأفندي وزوجته في الداخل. وكان جاناد معهما. ففي الأمس اتصلت إدارة مدرسته الداخلية بجميع أهل التلامذة طالبة منهم الحضور عاجلاً لاصطحاب أولادهم إلى البيت تحسّباً لأخطار الحرب.

كانت عائلة الأفندي في ذلك الصباح قد لجأت إلى غرفة الجدة، الست جوهر، في الطابق الأرضي. وكان الخوف بالدرجة الأولى على جاناد ابن الرابعة عشرة.

وسُمِعَ صوت عساف ينادي من الخارج.

فقال الأفندي: جاء الجبان..

ثم خرج، وخاطب عساف بنبرة ساخرة:

ـ إلى أين هربت يا جبان؟

ـ هربت؟ أنا أهرب يا سيدنا؟ أنا ركضت لأطرح صوت النّخوة على رجال الضيعة ليأْتوا ويحموا بيت الأفندي.

ـ لكن لم يأتِ أحد يا عساف.

ـ يا سيدنا قالوا إن بيت الأفندي لا يحتاج إلى من يحميه فهو الذي يحمينا، ويصون أعراضنا بهيبته ونفوذه.

تنحنح الأفندي، فيما نظر جاناد إلى عساف بإعجاب إذ لم يكن يعرف أنه ظريف وذكي إلى ذلك الحد. ثمّ دعاه إلى الداخل ليسأله عن الفلاحين، وكيف يؤمنون الطعام لأولادهم. وقد شرح له عساف واقع الحال بالتفصيل.

وضع جاناد يده على كتف عساف وانتحى به جانباً ليهمس له:

ـ أنت تعرف، يا عساف، ماذا في قبو المؤونة هنا، فقل للرجال أنهم يستطيعون أن يأتوا في أي وقت ليأخذوا ما يحتاجون إليه من دون أن يسألوا أحداً.

طال انتظار «مجتمع المعصرة» لعودة عساف. وظنّ البعض أن الأفندي أمره بالبقاء في غرفة الحراسة. لكنه ما لبث أن عاد، فوقف في وسط حلقة الرجال، وأخذ يشرح سير العمليات الحربية في جوار «ربوا».

ثم توقف ليرفع رأسه ويسأل، وهو يتطلع في كل الاتجاهات:

ـ أين «إم راجي»؟

فصاح راجي ابن الحادية عشرة، وكان واقفاً أمام عساف:

ـ نعم يا عمي عساف، أنا راجي. لماذا تسأل عن أمي؟

فقال عساف: أريد أن أسألها مع من يحارب والدك؟

فصاحت إم راجي من الخلف:

ــ أبو راجي عسكري بين عساكر فرنسا. لا هو يعرف مع من يحارب، ولا نحن نعرف. هذا أمر لا يهمنا. يهمنا فقط أن نعرف هل «أبو راجي» حيّ أم لا.

وأطبق الصمت على الجميع. إذ تذكّروا أن رجلاً منهم هو الآن مجهول المصير في حرب لا علاقة لهم بها. ثم ارتفعت أصوات اعتراض تدعو «عساف» إلى الكف عن الثرثرة، فبدا الاستياء على وجهه، وقال بانكسار، ولكن بأدب:

ــ يا إخوان. أنا لا أقول شيئاً من عندي. صحيح أني لا أقرأ ولا أكتب، لكني أسمع وأفهم. لقد طلب منّي الأفندي أن أبلغكم أن «مسعد بيك» اتصل به بالتلفون ليقول له أن قائد القوة الفرنسية الديغولية الآتية من الجنوب يتفاوض مع قائد القوة الفرنسية التابعة لحكومة «فيشي» التي تتصدى له من الشمال، وأنهما يحاولان تجنيب هذه المنطقة معركة تقتل أهلها وتدمّر بيوتها.. وهكذا يا إخوان ــ قال عساف ــ نحن، وأهلنا، نقف بين نارين على جانبي هذا الوادي..

وطلع صوت أحدهم:

ــ وما علاقتنا نحن؟ لماذا لا يُحيّدون عن هذا الوادي ويتركوننا بأمان؟

ــ «والله هذا ما لا أعرفه يا أخي.» قال عساف آسفاً.

ولم يعلّق أحد. وتفككت حلقة الرجال، فتقدم عساف نحو

الفتى راجي، وهمس في أُذنه: أريد أن أتكلم مع أمك.

ــ ماذا تريد من أمي؟ انتفض راجي مُستفسراً باستغراب.

ــ سوف أكلمها في حضورك. قال عساف. فأشار راجي إلى والدته بأن تقترب، فأتت حاملة «ياسمين»، ولم تكن تكف عن السعال، وقد فتحت الطفلة عينيها على عياء حين اقتربت من باب المعصرة، حيث لامسها بعض الهواء والنور. حينها قال عساف لأبريز:

ــ الست «هيلا» سألت عنكِ وعن الطفلة «ياسمين»، فأخبرتُها ما تعانيه من القحّة ومن الأنفاس الخانقة، مع دخان سراج الزيت، فطلبت مني الست «هيلا»، على مسمع من «شاهين» أفندي، وجاناد أفندي، إن أسألك إذا كنتِ تريدين أن تنتقلي مع البنت إلى بيت الأفندي..

سكت عساف. وظلت «أبريز» صامتة، حائرة، وهي تنظر إلى وجه «ياسمين» ثم تنظر إلى ابنها راجي. فقال لها:

ــ أنا باقٍ مع الشباب. إذا أردتِ الذهاب من أجل أختي فلا مانع.

فأشارت إليه بأن يتبعها إلى خارج المعصرة لتسأله: ماذا سيقول أهل الضيعة اذا ذهبتُ إلى بيت الأفندي؟

فكّر الفتى، وقد بدا حائراً. ثم قال: «من أجل أختي اذهبي».

عادت «أبريز» إلى داخل المعصرة، فوقع نظرها على جارتها في

الزاوية المقابلة، فأشارت إليها «أبريز» بأن تقترب منها، وكانت «ياسمين» تسعل بين لحظة وأخرى. وأسرّت «أبريز» إلى الجارة بأن الست «هيلا»، وزوجها الأفندي، وابنهما جاناد، يدعونها إلى الإقامة عندهم بانتظار أن تمر محنة الحرب، وقالت لها: إن حالة «ياسمين»، كما ترين، باتت صعبة في المعصرة.

رفعت الجارة حاجبيها، وهزّت رأسها، ثم قالت لأبريز همساً وكأنها تسدي إليها نصيحة:

ـ لا أعرف. "فأبو راجي» غائب في الحرب. لا تحمّليني مسؤولية. أرجوكِ.

ما إن لفظت الجارة كلماتها هذه، حتى انفجرت «أبريز» في وجهها غاضبة: ومن طلب رأيك؟ ومن أنتِ لتعطي رأياً وتتحملي مسؤولية؟.

ثم عكفت على لملمة بعض الأشياء التي تخصها، واستدارت بعصبية باحثة عن راجي، وهو كان يقف مع بعض الرجال بانتظار ما ستقرر أمه. كانت «أبريز» قد وضّبت كيس الملابس، وربطته عند فتحته، ولم يكن ثقيلاً، فرفعته بيسراها، ثم حملت ياسمين متجهة نحو باب المعصرة لتخرج، فلاقاها «راجي» ليحمل الكيس، لكنها رفضت، قائلة له: «أنتَ تبقى هنا مع الرجال، وأنا أذهب وحدي مع أختك. الرصاص مسموع على التلال. لا أريدك أن تتعرض لخطر».

غير أن راجي لم يأبه لكلام أمه، فانتزع الكيس من يدها،

ومشى أمامها وسط نظرات العيون المتسائلة: إلى أين تغادر عائلة «أبو راجي»؟

وتحرك «عساف» ليلحق بالعائلة، وهو يقول بصوت خافت لمن حوله: الطفلة حالتها صعبة. وقد تكرّمت عائلة «الأفندي» بإيوائها.

وإذ خرجت «أبريز» من المعصرة، تطلعت امرأة إلى أخرى بجانبها، وغمزتها بطرف عينها، ثم مالت على أُذنها لتقول لها همساً:

«الأفندي طلب «أبريز». !

فذُهلت المرأة وردت همساً:

ــ يا مجنونة. إياك أن تتلفظي بهذا الكلام، فإذا علم ابنها «راجي» ماذا قلتِ فسوف يقتلك. إي والله يقتلك. أما «أبريز» فإنها تخنقك. إي والله تخنقك.

كانت الغرفة التي خصصتها «هيلا» «لأبريز» وابنتها، تقع قبالة غرفة مدبرة المنزل «ام سامح»، وهي امرأة مُسِنّة، عاشت ثلث عمرها، على الأقل، في منزل الأفندي. وتقع الغرفتان في نهاية الرواق الفاصل بين الجناح الخاص بالأفندي وزوجته، وبين صالة السفرة والمطبخ.

ثلاث ليال كانت قد مرّت في سكون مُريب يطبق على حارة

الأفندي وجوارها، كأنّ المحاربين على جبهتي «ديغول» و«بيتان» قد ذهبوا في إجازة مشتركة. أو كأنّ الحرب انتهت من دون علم «مجتمع المعصرة».

ولم تكن «أبريز» لتغادر غرفة ابنتها إلا للضرورة. لكن الست «هيلا» كانت تطرق بابها بين وقت وآخر لتتفقد الطفلة. بل هي التي كانت تعدّ لها بعض المشروبات الساخنة.

وفي الليلة الرابعة، اشتعلت جبهة الحرب فوق التلال، على جانبي الوادي قريباً من «ربوا»، ففتحت «أبريز» باب غرفتها ومدّت رأسها مستطلعة. كان ثمة نور شحيح في الرواق مصدره جناح الأفندي.

وفجأة ظهر الأفندي في أول الرواق، فلما شاهد «أبريز» قال لها من بعيد:

ــ رجعت الحرب يا «إم راجي». ثم أردف يسألها:

ــ هل تريدين أن تسمعي الأخبار؟

لم تجب «أبريز» إذ ارتبكت، وعاودها القلق من جديد على ابنها، وعلى زوجها العسكري المجهول المصير.

ولمّا لم يسمع الأفندي جواباً من «أبريز» قفل عائداً إلى غرفته.

وما لبثت «هيلا» أن خرجت لترى «أبريز» واقفة أمام غرفتها في نهاية الرواق، فمشت نحوها لتقول لها: «ربنا يستر يا

«أبريز». ثم سألتها إن كانت تريد أن تسمع أخبار الحرب من الراديو في الصالون.

بكثير من العرفان بالجميل قالت «أبريز»: يكفي فضلكم عليّ. لا أريد أن ألقي ظلاً ثقيلاً عليكم. لكن «هيلا» ألحّت عليها، فدخلت إلى الصالون.

كان «الأفندي» متدثراً بعباءته، مشدوداً صوب جهاز الراديو، وكانت الأخبار تُذاع من محطة لندن. وكان جاناد مصغياً باهتمام.

جلست «أبريز» منحنية قليلاً، على حافة الكنبة الوثيرة. كانت ترتدي فستاناً طويلاً محتشماً. لم تضع مرفقها على حافة الكنبة، إنما ضمت ركبتيها، وجمعت راحتيها في حضنها، وخفضت بصرها. كانت تسمع الأخبار، ولا تنظر إلى الراديو، ولا إلى أحد.

وفي لحظة قطع المذيع في محطة لندن نشرة الأخبار ليُذيع بياناً عسكرياً عاجلاً صادراً عن قيادة محور الحلفاء في شرق البحر الأبيض المتوسط.

أعلن البيان أن قوات «فرنسا الحرة» في الشرق، التابعة لقيادة الجنرال ديغول، تقدمت من حدود فلسطين الشمالية، واجتازت حدود لبنان، تدعمها القوات البريطانية الحليفة، فسيطرت على موقع جبل الباروك في أعالي منطقة الشوف، فيما تقدمت قوات بريطانية ـ فرنسية حليفة في الوقت ذاته من موقع «الناقورة»

البحري في الجنوب اللبناني، فاحتلت مدينة «صور»، ثم وصلت إلى مدينة «الدامور» البحرية، على مسافة عشرين كيلومتراً من العاصمة اللبنانية بيروت.

وأكّد البيان أن القوات الفرنسية ـ البريطانية الزاحفة من فلسطين، سوف تطبق خلال ساعات بفكي كمّاشة على فلول قوات «فيشي»، من أعالي «حمانا» إلى ميناء بيروت.

ما إن سمع «جاناد» ذلك البيان حتى صفَّقَ ابتهاجاً. ثم التفت إلى «أبريز» يسألها:

ـ منذ متى التحق العم «أبو راجي» بالجيش الفرنسي؟

رفعت «أبريز» عينيها نحو جاناد، وهي تراجع ذاكرتها، ثم قالت:

ـ منذ ثلاث سنوات تقريباً، فقد لبس البذلة العسكرية في ثكنة «المية والمية»، قرب صيدا. والتحق بثكنة صور، وهو منذ سنة في ثكنة «عيتا الشعب» على حدود فلسطين.

وعلّق الأفندي على ما قالته «أبريز» بسؤال وجّهه إليها:

ـ ثلاث سنوات، أم أكثر، يا «إم راجي»؟

فعلقت «أبريز» وهي مُطرقة:

ـ ثلاث سنوات إلا شهرين بالتمام.

فقال الأفندي:

ـ أتذكر أننا كنا في أوائل شهر نيسان، وكان «أبو راجي» قد أنهى تشحيل العرايش. وكانت أشجار الدراق والمشمس والاجاص، قد بدأت تبرعم. وكنتِ أنتِ تأخذين له زوّادة الغداء إلى الحقل.

بدأت «أبريز» تحسّ برجفة خفيفة في ركبتيها، وأخذ ريقها ينشف. لم تكن خائفة، إنما كانت قد بدأت تتوتر، فالأفندي يتعمّد محادثتها مباشرة، في حين تتابع «هيلا» ما يُذاع في الراديو مع «جاناد».

وأرادت «أبريز» أن تعتذر لتعود إلى ابنتها، لكن «هيلا» أصرّت عليها أن تبقى لتتابع الأخبار. فبلاغات الحرب كانت تتوالى، ودويّ المدافع يشتد على محوري الوادي الذي لا يبعد سوى بضعة كيلومترات شمالي الخط الدولي. ووقف الأفندي مُتثاقلاً ليدلف إلى غرفته. وما لبث أن عاد، وقد فاح منه عطر تذكرته «أبريز» فوراً. إنه العطر الذي كان يفوح منه في الحقل حيث كان يتعمّد ملاقاتها عندما يراها تحمل الزوادة إلى زوجها.

لوْ أنّ الأثير الذي كان يسري تلك الليلة في صالون الأفندي يكشف ما يدور في الصمت السائد، لكان كشف إشارات عاصفة في صدر «أبريز».

وحده «الأفندي»، كان يعرف ماذا تضمر له «أبريز»: الكراهية

والاحتقار. . فهو الذي أغرى زوجها بترك العمل في الزراعة ليلتحق بالجيش الفرنسي. قال له:

ــ البزّة العسكرية تليق بك، ومستقبلك مع فرنسا، وليس مع لبنان.

ولقد نجح الأفندي بإبعاد سالم الطراش عن زوجته وعائلته. كان خياله المريض يُصوِّر له أن «أبريز» سوف تسقط رهينة ضعيفة بين يديه.

كانت «أبريز» تتميز بالبساطة، والرقة والطيبة.

وحسبما وصفها أستاذ مدرسة «ربوا»، فإنها ذات قوام متناسق. لها عينان تتكلمان ألف لغة جميلة. صوتها له رنّة نادرة بين أصوات النساء. جمالها خارق ينقض بقوة صاعقة. ولها وهج عاطفي ساحر. ظلها شفاف، حتى ليكاد يكون ظل فراشة.

هذا الوصف الذي بقي سرّاً في ضمير أستاذ المدرسة، له تتمة. فالأستاذ نفسه أضاف في وصف أبريز: لكنها إذا مُسَّتْ كرامتها، انقلبت شرسة. ولديها قاموس شتائم من العيار الثقيل، ولا تتوانى عن الضرب.

حتى أن أستاذ المدرسة، ذاك، نسي ذات مرّة على طاولته بضعة أسطر كان قد كتبها، وفيها: إن كثراً من الأدباء والشعراء يصنعون عشيقاتهم من كلمات، ثم ينغمسون في حبهن فلا يجنون سوى الإلهام. أما أنا فإني أرى معشوقتي مسكوبة أمامي، لكن بيني وبينها جداراً من الرهبة لا يُخترق.

كانت ليلة مُرعِبة تلك الليلة في جوار «حارة الأفندي». فالحرب كلمة في الفم، كما تقول العامة، لكنها على الأرض تفوق الخيال. وكانت أبريز قد رقدت إلى جانب فراش ابنتها «ياسمين». كانت الحمى ونوبات السعال أقوى على الطفلة من دويّ القذائف في الخارج. وقد لجأ الجميع في الطابق الأول إلى الطابق الأرضي، حيث كانت «الست جوهر» غافية كأنها في غيبوبة، فيما الخادمة الصغيرة تجلس القرفصاء مرتعدة. ولم يعرف أحد طعم النوم.

من نافذة خلفية، كان «الأفندي» يطلّ على بيوت الفلاحين في الحقول المجاورة، فلا يرى بصيص نور. فالجميع كانوا في «المعصرة».

ومع خيوط الفجر، ساد هدوء شجع الأفندي على الخروج من الباب إلى فناء الدار، فشاهد جماعات من الجنود المشاة تمرّ في الحقول. وما لبث أن عاد إلى الداخل ليزف البشرى: «انتهت الحرب»، فعلّقت هيلا ساخرة: كيف عرفت أيها البطل؟. فأجاب: الذي يخرج من المخبأ يعرف.

وخرجت هيلا، وجاناد، و«ام سامح»، فشاهدوا جنوداً يهبطون من المرتفعات نحو الوادي. وسارع الأفندي إلى منظاره ليصوِّبه على تلة «حرج العقاب». وأخذ يمسح الحرج، من التلة إلى الوادي، ومن الوادي إلى التلة. لكنه لم يرَ ثلة من الجنود كانوا يستلقون على ظهورهم في ظل شجرة قريبة. جاناد رآهم. كان

جندي واحد منهم واقفاً في حراستهم، والآخرون متمددين، مسندين رؤوسهم إلى أكياسهم المحزّمة.

«هل هم ديغوليون أم فيشيون؟» تساءلت «هيلا»، فلم يجد الأفندي جواباً. لكنه قال: أرجو أن يكونوا ديغوليين.

ثم رأى أن يخرج إلى «مقعد الليمون»، فيكون على مقربة من الجنود ليكتشف من هم. وما لبث أحدهم أن توجّه إليه:

ـ «سْلامْ عليك.. يا أخي» قال الجندي ملقياً التحية على الأفندي الذي لم يفهمها بسرعة، ولم يعرف كيف يردّ عليها. فقال:

«أهلاً وسهلاً».. ثم نادى ابنه جاناد.

وعرَّف الجندي عن نفسه بأنه عربي تونسي، ثم سأل بلهجة بلاده: «بربّي.. واش تكون القرية هذي؟».

بالكاد فهم الأفندي سؤال الجندي التونسي، فقال: هذه قرية «ربوا».

كان ضابط يرافقه جندي قد لحقا بالجندي التونسي. وكان جاناد قد انضمّ إلى والده.. فقال الجندي مُعرِّفاً عن الضابط: «إنه الكابيتان الفرنسي، ضابط فرقتنا».

ثم التفت إلى الجندي الآخر: وهذا رفيقي. إنه «ماروكين».. أقصد مِراكشي عربي.

كان الكابيتان غائباً عن الفهم. وكان منصرفاً إلى تأمل بيت

الأفندي والأشجار العالية حوله، حين سمع من يكلمه بالفرنسية معرّفاً عن نفسه:

ـ أنا جاناد آلافاندي. . وهذا والدي.

ومدّ الكابيتان يده مصافحاً جاناد: أنا الكابيتان «جان مونار».

ثم وضع يديه على خصره واستدار يميناً، ويساراً، وقال:

ـ منطقة رائعة، وبيتكم جميل.

ـ شكراً، سيدي الكابيتان. قال جاناد. ثم سأل الضابط:

ـ متى تنتهي هذه الحرب؟

نفخ الكابيتان فمه ثم أفرغه: بف. . .

غير أن السؤال الذي فاجأ الكابيتان نبَّهَهُ إلى أن الشاب الواقف أمامه يتكلم الفرنسية بلكنة مميزة، وقد لثغ بحرف «الراء» فلفظه بحرف «الغين».

ـ كأنك فرنسي أيها الشاب؟ قال الكابيتان، وأردف: لا يبدو عليك أنك فرنسيّ. فأنت تشبه والدك كثيراً، لكنك تتكلم مثل تلميذ في مدرسة باريسية.

قال جاناد:

ـ أنا تلميذ في القسم الداخلي في مدرسة لبنانية فرنسية تطبّق منهاجاً تعتمده المؤسسة الأم في باريس.

زمَّ الكابيتان شفتيه ورفع حاجبيه إعجاباً، فكرَّر جاناد سؤاله: متى تنتهي الحرب أيها الكابيتان؟

لم يجب الكابيتان. بل حبس أنفاسه مرة أخرى حتى انتفخت أوداجه، ثم راح يردد السؤال: «متى تنتهي هذه الحرب؟ متى تنتهي هذه الحرب؟».. لا أعلم! ثم سأل:

ـ قل لي، أيها الشاب، كم تبعد «حمانا» من هنا؟ وفي أي اتجاه هي؟

أحال جاناد السؤال على والده بعد ترجمته إلى العربية، فقال الأفندي وهو يتطلع نحو الجنوب: حمّانا في هذا الاتجاه.

ثم طلب الأفندي من ابنه أن يسأل الضابط كيف وصلوا إلى «ربوا»؟

وإذ ترجم جاناد السؤال إلى الفرنسيّة ظهر الاستياء على وجه الضابط، فقال لجاناد:

ـ قلْ لوالدك أن هذا الأمر لا يعنيه.

بيد أن جاناد اعترض قائلاً للضابط:

ـ لن أترجم جوابك لوالدي.

ـ لماذا لن تترجمه؟

ـ لأن والدي لم يرتكب خطأ بسؤاله لترد بهذا الجواب.

وأردف جاناد:

ـ هل تعلم، أيها الكابيتان، أننا لم ننم ليلتنا في الأمس؟ هل تعلم أن في بيتنا هذا عجائز وأطفالاً أضناهم المرض والرعب؟ . . فما علاقتنا نحن بحربكم، أنتم الفرنسيين، على أرض بلادنا؟

وفي ما بدا الضابط مشدوهاً، كان الجندي التونسي والمراكشي يتبادلان نظرات الإعجاب بجاناد.

وما لبث الضابط أن أشار إلى الجنديين بالعودة إلى رفاقهما. ثم مد يده إلى الأفندي مصافحاً، وكأنه يعتذر منه، ثم سأل جاناد:

ـ هل لي أن أجلس معك أيها الشاب؟.

ـ على الرحب والسعة. قال جاناد. ثم أشار إلى مدخل البيت: تفضل.

لكن الضابط اعتذر شاكراً: «لا، لا. نحن لا ندخل البيوت».

فدعاه إلى الجلوس في «مقعد الليمون» حيث الأرائك الصيفية تحت عرائش تتدلى منها عناقيد عنب كانت ما تزال حصرماً.

ـ «هذا عنبكم، أليس كذلك؟» سأل الضابط، فأكد له جاناد أن تقديره صحيح. . قال الضابط:

ـ أنا من منطقة «بياريتز» في فرنسا. لكن نصوب العنب عندنا ليست بهذا الشكل.

ثم تمنّى عليه أن يترجم لوالده في ما بعد خلاصة ما سوف يقوله.

وبدا على الضابط أنه يريد أن يبوح بشيء لكنه يتردد. . ثم قال: «اسمع يا عزيزي جاناد. لا تصدق أن الحرب خارج بلادك مشروعة، أو أنها واجب. إنها أمر. بل هي اعتداء على المحارب المأمور».

وأردف: ثم إنني سوف أبوح لك بما لم يكن يرد في خاطري أن أبوح به لأحد غير فرنسي، لكنني خائف أن أسقط قتيلاً في هذه الحرب، في أي لحظة، قبل أن أطلق الكلام الحبيس في صدري. فسواء سقطتُ أو نجوتُ من هذه الحرب، تذكّر أيها الشاب اللبناني أن ضابطاً فرنسياً مرَّ من هنا وقال لك هذه الكلمات:

أنا ضابط فرنسي فارّ من ساحة حرب إلى ساحة حرب أخرى ضدها. وإذا شئت، فأنا ضابط فرنسي يخون قائده. أنا أخون الآن من خان فرنسا، وهذا شرف لي.

ولأنك طالب في مدرسة فرنسية مميّزة، فلا بد أنك تحفظ جزءاً كبيراً من تاريخ فرنسا عن ثورتها، وعن انتصاراتها، وهزائمها. ولا بدّ أنك سوف تقرأ في المستقبل القريب عن موقع فرنسا ودورها في هذه الحرب العالمية الثانية التي تدور، في جانب منها الآن، على أرض بلادك، ولا علاقة لبلادك بها.

ولا بدّ أنك ستقرأ اسم قائد فرنسي سوف يحفظه التاريخ بإكبار، وسوف تقرأ اسم قائد فرنسي آخر سوف يلعنه التاريخ. القائد الأول هو الجنرال شارل ديغول، أما الثاني فهو الماريشال فيليب بيتان الذي يفتك الآن بشرف فرنسا.

وبحماسة بالغة تابع الضابط الفرنسي:

اسمع يا عزيزي جاناد: لا تنخدع إذا ما قرأت في المستقبل لأحد الكتّاب، أو المُؤرّخين، من يزعم أن الماريشال الفرنسي «بيتان» قد سلم باريس إلى الماريشال الألماني ليتفادى تدميرها وإحراقها. لا يا عزيزي، ليس «بيتان» الذي أنقذ باريس من الدمار، إنما المقاومة الفرنسية الشعبية هي التي حمت كنوز باريس.

وسجِّل، يا عزيزي جاناد في دفترك ما أقوله لك الآن، وتذكره عندما تزور باريس، وسوف تزورها في المستقبل حتماً. وعندما تزورها لا بد لك أن تتساءل: «كيف كان يمكن للعالم أن يكون من دون باريس».

لم يتكلَّف جاناد عناء الترجمة لوالده، فالأمر لم يكن يعنيه. كان يعنيه أن يعرف كيف وصل الضابط الفرنسي وجنوده إلى «ربوا».

وحين أعاد السؤال على الكابيتان أجاب ضاحكاً: قل لوالدك أننا هاربون من جيش «فيشي» إلى جيش ديغول.

وإذ ترجم جاناد الجواب لوالده، طلب منه أن يسأل الضابط إذا كان يعلم شيئاً عن جندي اسمه «سالم الطراش».

وقد شكر جاناد والده على أنه تذكر سالم الطراش، فقال للكابيتان:

ـ هناك جندي لبناني محارب في الجيش الفرنسي، وهو من هذه القرية. زوجته هنا، ومعها طفلة عليلة. وله ابن فتى في

ملجأ القرية. فهل من الممكن الاستعلام عن مصيره؟. لقد علمنا أن آخر موقع كان فيه هو «عيتا الشعب» في جنوب لبنان.

ببالغ الاهتمام سجل الكابيتان في دفتره اسم «الجندي سالم الطراش».

في ذلك النهار الذي عبر فيه الضابط الفرنسي وجنوده قرية «ربوا» ساد الهدوء، فلم تُسْمَع طلقة رصاص أو قذيفة مدفع خلف التلال. لكن، مع حلول الظلام، عادت أصداء المعارك تصل من بعيد.

كان «مقعد الليمون» قد خلا، ولجأ الجميع إلى الداخل. وعاد «الأفندي» وهيلا إلى غرفة الراديو لمتابعة الأخبار، فيما انصرف جاناد إلى دروسه.

وكانت حالة الطفلة «ياسمين» قد تحسّنت قليلاً، وقد جلست على الدرجة السفلى من السلم المخملي في صالون المدخل. كانت تقضم قطعة من خبز الصاج الرقيق مملسة بالزيت والزعتر. أما والدتها فكانت منصرفة إلى الشغل بالصنارة في ركن من الصالون.

وتحوّل الطقس حاراً. وكانت نسمة هواء رطبة تهبّ بين الفينة والفينة عبر باب المدخل المفتوح على الوادي، فتشعر الطفلة بالانتعاش.

ثم، كما صاعقة تنقضّ في سماء صافية، دوّى انفجار في

صحن الدار، وانهار زجاج النوافذ، وعبّق الغبار في صالون المنزل، وعمّ الظلام. فقد انطفأ قنديل «اللوكس» الذي كان يُضيء الزاوية حيث تجلس أبريز.

مضت ثوانٍ قبل أن يسمع أحد في الطابق العلوي صوت أبريز صارخاً في صالون المدخل: «ياسمين.. ياسمين..»

وهرع الجميع، من فوق، متعثرين على الدرج. جاناد أولاً، وبعده والدته هيلا، ثم الأفندي، و«ام سامح».

كان في يد جاناد ضوء بطارية صغير. ومن أعلى درج السلم، شاهد «ياسمين» نائمة على الدرجة السفلى. لم تكن أمها قد لامستها بعد، فقد حال دونها الظلام، والغبار، والرعب. وما إن لمحتها أمها في الضوء حتى سقطت أمامها لتحتضنها.

كان الضوء يرتجف في يد جاناد. وفي حين انحنت هيلا و«ام سامح»، على أبريز، فإن أياً منهما لم تستطع ملامسة ياسمين.

بيْدَ أن «ام سامح» صرخت بأبريز: «دعينا نعرف ماذا حدث للبنت».

وفي تلك اللحظة انهارت أبريز غائبة عن الوعي، فتلقفتها هيلا بين ذراعيها، فيما احتضنت «ام سامح» الطفلة.

كانت «ام سامح»، المرأة الجبلية الخبيرة في حالات الموت، قد أدركت أن ياسمين لن تستيقظ. وإذ هي أمسكت بيد الطفلة ولثمتها، شمّت رائحة الخبز على أصابعها.

ظهيرة اليوم التالي، خرج مجتمع «المعصرة» ليُشيّع الطفلة ياسمين. كان جاناد وراجي، شقيق ياسمين، في المقدمة. وكانا يحملان النعش الأبيض الصغير.

وبعد ظهر ذلك اليوم بالذات، صعد جاناد إلى التلة، وحفر اسم «ياسمين» على جذع السنديانة، فاحتفظت بالاسم في رحمها.

مضى أسبوع لم تستطع خلاله أبريز النهوض من الفراش. ولم تكن قد غادرت غرفتها في بيت الأفندي. وكانت هيلا في خدمتها، بمساعدة «ام سامح».

وفي اليوم العاشر كانت أبريز قد استعادت بعض عافيتها، فطلبت من ابنها راجي أن يأتيها بالفستان الأسود الخاص بالمآتم. فلبست ذلك الفستان، وجمعت ثيابها، وثياب «ياسمين»، وحشرتها في الكيس الذي كانت قد حملته من المعصرة يوم أتت إلى بيت الأفندي مع طفلتها.

ــ «ظلي معنا، يا أبريز..»

قالت هيلا للمرأة الغاطسة في السواد عندما رأتها تخرج حاملة كيسها، وقد أتت لتودِّع عائلة الأفندي في مقعد الليمون، عائدة إلى بيتها.

وقال لها جاناد: لن تعود ياسمين، لكن روحها مستقرة الآن في السكينة، وبوجودكِ معنا نتذكر حضورها ونتخيلها قريبة، فظلي معنا.

وتنحنح الأفندي ثم قال: «ياسمين» كانت مثل ابنتنا، وزوجك سالم كان عزيزاً علينا.

فانتفضت أبريز وتطلعت إلى هيلا مذعورة كأنّها تسألها: «هل قُتل سالم أيضاً»؟.

فقالت هيلا: سوف تنتهي هذه الحرب. وسوف يعود زوجك أبو راجي سالماً إن شاء الله.

لم يدرك الأفندي أنه ارتكب خطأ، فعاد يقول لأبريز: هيلا تمون عليكِ، فاقبلي طلبها.

كانت أبريز مرتبكة، فقالت من دون أن تتطلع إلى أحد: سوف أعود إلى «المعصرة» لأُبعد عنكم سواد مظهري وحزني.

وعلقت هيلا: نريدك معنا لنخفف عنك حزنك. ظلي معنا يا أبريز. اذهبي متى شئت. وعودي متى شئت. وتصرَّفي كما تشائين وكأنك في بيتك. وأنت من أهل هذا البيت.

وإذ كرّرت هيلا وجاناد الإلحاح قالت أبريز بعد تردد: عليّ أن أستشير ابني راجي.

وسريعاً، توجه جاناد إلى «المعصرة»، وعاد مع راجي. فبادرته هيلا قائلة:

ــ نرجوك، لا تسمح لوالدتك بالعودة إلى المعصرة.

ونظرت أبريز إلى راجي: «ماذا تقول يا ابني؟»

وقبل أن يجيب راجي، عادت هيلا تقول لأبريز:

ــ اذهبي متى شئت وعودي متى شئت، لكن ظلي معنا.

وعادت أبريز تسأل راجي:

ــ ماذا تقول يا ابني؟ فقال راجي: الخيار لك..

والتقطت هيلا جواب راجي، فقالت بصوت خافت، وبنظرة رجاء: ظلي معنا، يا أبريز.

ولم تستطع إلا أن ترضخ، فقد وُلد لديها سبب أقوى من كل ما مضى يشدّها إلى بيت الأفندي، إذ على درجات السلم الداخلي، في هذا البيت، دخلت ياسمين في غفوتها الأخيرة.

كانت الحرب قد انتهت في لبنان بانتصار جبهة «ديغول»، ولم يعد سالم الطرّاش إلى بيته.

وصارت أبريز تأتي إلى بيت الأفندي يوماً، وتغيب يوماً آخر في بيتها. وبمروءة منها كانت تسابق هيلا على ترتيب الصالون الفاخر الذي نادراً ما كان زائر يدخله.

وكانت هيلا تستأنس بحضور أبريز، فتكسر وحدتها في تلك المزرعة المنعزلة على حافة الوادي.

أما «شاهين أفندي»، فكان يظلّ متنقلاً، حائراً في أرجاء البيت، محاولاً أن يكون في المكان الأقرب والمواجه لأبريز.

ولم يكن جاناد ليأتي من مدرسته إلى «ربوا» إلا في عطلة السبت والأحد، بين أسبوع وآخر.

وكان راجي قد اعتكف في بيته لا يبارحه. كان يقول أن بيته يجب أن يبقى مفتوحاً، وأن يبقى فيه ضوء يؤنس روح شقيقته ياسمين في عتمة الليل ويدل والده المجهول المصير على درب البيت.

وفي ظهيرة يوم من أواخر ذلك الصيف، شاهد أهالي «ربوا» سيارة عسكرية تنحدر على الطريق المتعرج نحو «حارة الأفندي». كانت سيارة مقفلة لم يروا مثلها من قبل. وقد ظهر صليب أحمر كبير على سطحها، وعلى جانبيها، كما على واجهتها الأمامية وعلى بابها الخلفي.

عند البوابة الخارجية لحارة الأفندي، كان عساف واقفاً. وما إن رأى السيارة تقترب حتى سارع إلى فتح البوابة وقد تنحّى جانباً، مؤدياً تحية عسكرية. ثم سبق السيارة، ركضاً، ليبلغ الأفندي، وجاناد، أن سيارة عسكرية في الباحة. وخلال لحظات كان جاناد يهبط الدرج، فيما كان ضابط قد ترجّل ونزع نظارات مانعة للغبار عن عينيه، وقد رفع قبعته.

ــ أهلاً وسهلاً كابيتان مونار. قال جاناد، وكانت عيناه تومضان بلمعة أسى.

ــ أراك حزيناً يا صديقي.

هزَّ جاناد رأسه: لقد كلفتنا حربكم كثيراً أيها الكابيتان. ويؤسفني أن اقول لك أنك، بعد أن غادرت أنت وجنودك حارتنا، سقطت ليل ذلك اليوم في هذه الباحة قذيفة قتلت الطفلة العليلة ابنة «سالم الطراش» الجندي المحارب المجهول المصير في جيوش فرنسا.

ـ طفلة الطراش؟، سأل الكابيتان بألم.

ـ نعم. ثم أشار جاناد إلى مكان سقوط القذيفة.

أَعربَ الكابيتان عن أسفه.. ثم قال مشيراً إلى سيارة الإسعاف:

ـ هل تعلم من في داخل هذه السيارة؟

ـ ....

ـ سالم الطراش. إنه هنا.

ـ سالم؟

قال جاناد بدهشة. وسأل: حيّ أم ميت؟

ـ سوف تراه بعد قليل. لكني أطلب الآن مساعدتك لتأمين وصوله إلى منزله.

ـ وهل تعرف من هنا، في بيتنا، أيها الكابيتان؟ هنا زوجة الطراش، أمّ الطفلة الضحية. إنها غاطسة في الأسود.

قال الكابيتان: «اسمع عزيزي جاناد، في هذه السيارة، مع

الطراش، مساعد طبيب عسكري، وفيها أيضاً الجنديان التونسي والمراكشي اللذان كانا معي في رحلة الفرار».

ـ هل حالته خطيرة؟

ـ لا. لقد زال الخطر عنه وتعافى، وإلاّ لما كان سمح الطبيب بنقله إلى منزله.

ـ وماذا تقترح يا كابيتان؟

ـ أقترح أن لا تفاجئه زوجته باللباس الأسود. فإذا علم الآن بموت ابنته فقد يتعرض لصدمة يصعب تقدير عواقبها.

ـ هل إصابته بالغة ؟

ـ إنه برِجل واحدة. لقد فقد رجله اليمنى.

وفكّر جاناد، ثم سأل الكابيتان:

ـ إذا حاولنا تجنيب الطرّاش رؤية زوجته في اللباس الأسود، فكيف نجنّب الزوجة صدمة رؤية زوجها برجل واحدة وملفوفاً بالضمادات؟

وبدوره فكر الكابيتان قبل أن يجيب:

ـ حسناً، عزيزي جاناد، فلنضع الطراش في منزله أولاً. إنه الآن على السرير الطبّي في داخل السيارة، ولا يتطلب الأمر إلا نقله من السيارة إلى داخل بيته.

استأذن جاناد ودلف إلى المنزل. ولم يمضِ وقت طويل حتى عاد وإلى جانبه أبريز وقد ارتدت فستاناً بلون غامق، لكنه ليس أسود، وكانت هيلا قد اختارته لها من خزانتها.

كان وجه أبريز بشوشاً، وقد اتجهت، بمفردها، إلى سيارة الإسعاف يتبعها الكابيتان «مونار».

«كأنهما رفيقا سلاح التقيا في الميدان. . » هكذا وصف الكابيتان الفرنسي لقاء سالم الطرّاش بزوجته.

فقد اقتربت أبريز من السرير ووضعت يدها على جبين سالم.

قالت له: «الحمد لله على السلامة»، فأخذ يدها بين راحتيه، ووضعها على صدره، وضغط.

لا شيء غير ذلك سوى الصمت، والغصّة في العيون.

لم يكن ثمة طريق أمام سيارة الإسعاف للوصول إلى بيت الطراش. كان الطريق صالحاً فقط للمشاة وللدواب. لذلك تقدم أربعة رجال ليرفعوا الجندي الجريح على النقالة الطبية، ويمشوا به.

الأربعة كانوا: الكابيتان وجاناد، من جهة، والجنديان التونسي والمراكشي، من الجهة الثانية. وخلفهم أبريز وعساف، والطبيب العسكري المساعد.

كان الزاروب الذي ينتهي عند حافة حقل توت، خالياً، إلا من

بعض الدجاج. وفي آخر ذلك الزاروب كان بيت الطراش.

وتقدمت أبريز، سابقة الجميع، لتدخل أولاً، وتبلغ ابنها راجي أن عليه الخروج لاستقبال والده الآتي برجل واحدة.

حين تلاقت عيون الأب والابن تبادلا النظرات بصمت أبلغ من أي كلام. مدّ الأب يده ليعانق ابنه، فأخذ الابن يد الأب وقبّلها.

على الفراش الممدود على حصيرة، في داخل البيت، أُجلس المحارب، المقطوع الرجل، سالم الطراش، فتلفت حوله وسأل بلهفة:

ـ أين ياسمين؟

فبادرت أبريز إلى الجواب برباطة جأش:

ـ ما كنا ننتظر أن تعود من الحرب ونراك من جديد. وقد عدت. لكن القدر حكم بأن أحداً منا سيبقى غائباً، فالشظيّة التي أصابتك وقطعت رجلك، عادت وأصابت «ياسمين» فذهبت بها. ولن تعود.

وضع الطراش يده على عينيه، في حين أطرق الكابيتان، والطبيب العسكري المساعد وجاناد. وهكذا فعل الجنديان المراكشي والتونسي، وقد فتحا راحات أيديهما، متمتمين صلاة.

والتفت الكابيتان الفرنسي إلى أبريز:

ـ لديك زوج بطل، مدام طراش. .

فأحنت أبريز رأسها، من دون أن تفهم ما قاله الكابيتان.

وترجم لها جاناد كلام الكابيتان، فرفعت رأسها نحو الكابيتان، ووضعت يدها على صدرها شاكرة.

ثم التفت الكابيتان إلى راجي قائلاً:

ـ تستطيع أن تفخر بوالدك أيها الشاب.

كان راجي يفهم اللغة الفرنسية بدرجة تمكّنه من أن يجري محادثة عادية. لذلك طلب من جاناد أن يُترجم للكابيتان كلامه:

«والدي، يا سيدي الكابيتان، قام بواجبه كمحارب شجاع. الشجاعة هي شيمتنا، فنحن قومٌ إذا دخلنا معركة لا يمكننا أن نخرج منها مهزومين».

انبهر الكابيتان بكلام ابن الطراش. قال له:

ـ على أي حال، أن يعود والدك برِجل واحدة، لهو أفضل من أن لا يعود أبداً. هذا هو منطق الحرب يا عزيزي.

ثم توجّه إلى الطراش وخاطبه: «بتكليف من قيادتي أقدم لك هديّتين».

ثم تناول من الطبيب العسكري المساعد، الواقف إلى جانبه،

رِجلاً اصطناعية، وانحنى ووضعها على فراش الطرّاش في موازاة رِجله اليسرى. وحين استقام واقفاً، قال للطراش:

«أما الهدية الثانية لك فهي وسام الحرب، ورتبة «كابورال».

وعاد الكابيتان وانحنى على فراش الطرّاش ليسلمه الوسام، وشريطة «الكابورالية».

وإذ عاد واستقام، تراجع بضع خطوات إلى الوراء، ثم انتزع مسدسه من حزامه، وخاطب الطراش:

ـ أيّها الكابورال طراش، لا أملك ما أُهديك إياه، لكني حصلت من قيادتي على إذن خطي بإهدائك مسدسي الشخصي. إنّ هذا المسدس يعود إلى سلاح قوات فرنسا الحرة، وإنك لتستحقه.

رفع الكابورال يده بتحية عسكرية، قائلاً بلغة فرنسية بسيطة:

ـ ميرسي، مون كابيتان. عاشت فرنسا الحرة.

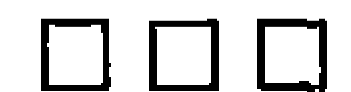
وفي تلك اللحظات نسي الطراش مصيبته.

أما راجي فقد لمعت عيناه إذ رأى المسدس هدية في يد والده.

لكن جاناد خاطب الكابيتان قائلاً:

ـ أيها الكابيتان، ما علاقة سالم الطراش بحروبكم؟ ومن يعيد إلى هذه العائلة ابنتها، ومن يعيد إلى ربّ هذه العائلة رِجله؟.

فأجاب الكابيتان: تذكّر يا عزيزي جاناد ما تداولناه معاً في حديقة بيتكم. كل الحروب تنتهي بهزيمة أو نصر، مخلّفة الأحزان والدمار فيحصد بضعة قادة كبار شهرة المجد بالنصر، ويتوارى آخرون في القبور وفي عتمة الهزيمة.



V

ظهر ذلك اليوم كان الطقس حاراً. وكان الصيف يمدّ بساطه أمام شهر حزيران. وكانت أبريز تجلس وحيدة في «مقعد الليمون» في حارة الأفندي.

سبع سنوات قد مرّت على موت ياسمين، وعلى سقوط زوجها سالم الطرّاش، برجل واحدة، في الحرب.

وكانت أبريز قد خلعت اللون الأسود حداداً على ابنتها دام ثلاث سنوات.

سبع سنوات مرّت كبر خلالها الجميع. كبر جاناد وسوف يتخرج بعد أيام من الجامعة بشهادة بكالوريوس في التاريخ والعلوم السياسية. وكبر راجي، وصار ناطوراً على الأرزاق، وكبر الكابورال أبو راجي في مساحة تمتد بين فراشه داخل البيت، و«الإفريز» الذي يجلس عليه في الدار.

سبع سنوات كبرت خلالها أبريز ولم تتبدل نضارتها وفتنتها الراقية، وكبرت «هيلا» ولم يتبدل سحرها، واستمرت أناقتها تتجدد. لكن مدى حركتها، في معظم الأحيان، لا يتعدى الصالون الفخم الذي يبقى بابه مفتوحاً، والمقاعد خالية.

سبع سنوات مرت، كبر خلالها الأفندي شاهين. لكن إشاراته الصبيانية لأبريز لم تتبدل. ولم تكن إشاراته الهزيلة تلك لتخفى على زوجته هيلا. كانت هيلا تقول دائماً لأبريز: لا تكترثي. إنها ولدنات سخيفة.

ومع مرور الوقت تحولت ولدنات الأفندي نوعاً من الفكاهات المسلّية «لهيلا» وأبريز.

في زاوية من ذلك الصالون كانت آلة «فونوغراف» لها بوق بشكل زهرة زنبق. وكانت بالقرب من «الفونوغراف» مجموعة أسطوانات مصرية، أشهرها لمحمد عبد الوهاب، وأسمهان، وأم كلثوم، وليلى مراد.

وكان الأفندي، حين يرى أبريز آتية، يسارع إلى وضع أسطوانة لأسمهان، فيصدح صوتها عالياً:

«ايمتى حا تعرف ايمتى.. إني بحبك إنتَ»

كانت أبريز، وهي تسمع الأغنية، ترى هيلا منتشية طرباً، ثم تقول بلهجتها المصرية، وهي تضحك، وتغمز بطرف عينها:

ـ دي على شانك يا أبريز.

وما أن تنتهي أسطوانة أسمهان حتى تقوم هيلا وتضع أسطوانة لأم كلثوم، فيصدح صوتها تغني:

«على بلدي المحبوب ودِّيني»

«زاد وجدي. . والبعد كاويني»

ثم تمضي هيلا وأبريز تضحكان عالياً. ويسمع الأفندي ضحكهما الساخر ولا يشعر بحياء، بل يعاود الكرّة.

ولم تكن الشجاعة لتنقص أبريز في كل مواجهة معه.

وخلال سبع سنوات مضت، كان قد نشأ بينها وبين هيلا ما تعدّى الصداقة إلى ما يشبه علاقة بين أخت وأختها.

ورغم الفارق الشاسع بينهما في النشأة، والثقافة، كانت هيلا تجد في أبريز الذكاء والقدرة على اختلاق الفرح. ففي غياب الأفندي، لبعض الوقت، كانت هيلا تنتقي أسطوانة فيها موسيقى رقصة بلدية مصرية، فتقوم أبريز وترقص على الإيقاع، وهي التي لم تر في حياتها رقصاً مصرياً. ثم تقوم هيلا لتعلّمها رقص بنات الإسكندرية، ولم تكن هيلا إلا إسكندرانية تعشق الفرح البلدي.

أما أبريز فكانت تعشق الدبكة اللبنانية. وفي بعض الأعراس، والأعياد، لم تكن صبية تجرؤ على الانفراد في ساحة الرقص إلّا أبريز. وحين كانت تفك شالها، وتلوِّح به لا يبقى أحد في مكانه. وتقول النساء: جنّت أبريز.

إلاّ أن شعوراً غريباً أخذ ينتاب أبريز كلما شاركت هيلا في الرقص البلدي المصري. كانت تتلوى على صوت الناي، وكانت تطلب من هيلا إعادة الأسطوانة أكثر من مرة.

وبدأت هيلا تلاحظ أن أبريز لا ترقص فرحاً، إنما هي تدخل في نوبة حزن لا تتوقف قبل أن تسقط متلاشية في نوبة نشيج، ولا تتوقف النوبة إلّا بعد أن تستقطر «أبريز» مخزون عينيها من الدموع، فتستعيد أنفاسها، وتستريح، وكأنها ألقت حِملاً ثقيلاً عن صدرها.

لقد اكتشفت أبريز أن في الحزن، أيضاً، نشوة لا تجدها إلا في ذلك الرقص البلدي المصري على إيقاع الناي. لم تكن تدري أن ذلك الشعور ما هو إلّا نوع من نشوة الفرح الصوفي. لكنها أدمنت ذلك الرقص الذي كان، أيضاً، يجلب السرور إلى قلب هيلا.

ولم تكن هيلا لتصمد أمام نغم الرقص البلدي، فلا تلبث أن تربط شالها على خصرها، ثم تروح ترقص، حتى تبدو وكأنها هائمة على وجهها في حارات الاسكندرية.

هكذا كان يتّحد الحزن والفرح في لقاءات هيلا وأبريز، فلا تعود تعرف الواحدة منهما أيهما هي الأخرى.

سبع سنوات مضت أتقنت خلالها أبريز لعبة الفأرة مع الهر. ودائماً كانت تنجح.

.. وذات يوم وصلت أبريز إلى بيت الأفندي ولم تر السيارة السوداء في الباحة، فشعرت بالأمان التامّ. فالأفندي ليس في البيت، وفي الداخل لاحظت سكوناً شاملاً. لم يكن ثمة أحد سوى «ام سامح» وقد سألتها «أبريز» عن الست هيلا فقالت: «أظن أنهم ذهبوا في زيارة».

ـ ألم تقل لك الست هيلا شيئاً ؟

ـ أبداً، أجابت «ام سامح». وأردفت: كنتُ قد سمعتُ التلفون يرنّ، وسمعتُ الست هيلا تسأل «أي ساعة؟» ثم خرجوا. أظن أنهم ذهبوا بدعوة إلى الغداء.

لم يكن مجيء أبريز إلى بيت الأفندي في ذلك اليوم بالمصادفة، أو بالخطأ. إنما كان اليوم الأول، من ثلاثة أيام في الأسبوع، تكون فيها على موعد لقاء مع هيلا.

تفقدت الصالون وغرفة السفرة، والمكتبة. كانت مطمئنة تماماً. فتحت غرفة هيلا، وألقت نظرة سريعة. وكالعادة لم تكن الغرفة تستدعي أي ملاحظة، فاستدارت لتخرج، فإذا بها تفاجأ بالأفندي واقفاً يسدّ الباب بعرضه. كان وجهه محتقناً، وعيناه جامدتين، وقد مدّ ذراعيه، وفتح أصابعه، كما لو أنه يتهيأ للقبض على دجاجة.

ظلت أبريز هادئة، وصامتة، لبرهة. ثم قالت له بأدب:

ـ أرجوك، اسمح لي يا أفندي، دعني أخرج.

لم يجب. كان يبتلع ريقه ويتطلع إليها بشراهة فجّة.

فاستجمعت شجاعتها، وتقدمت خطوة إلى الأمام، فإذا بها تجد رأسها يصطدم بذراعه. كان قد مدّ ذراعه اليمنى بين حافتي الباب مثل عارضة خشبية.

ولم يبق على أبريز إلا أن تستعدّ لخطوة ثانية فتتحرر. لكن الأفندي سارع إلى مد ذراعه اليسرى وطوَّقَ عنقها، فصارت مثل حمامة عالقة في فخ. كانت أصابعه الغليظة باردة. وأخذ قلب أبريز يخفق بشدة. وكان الأفندي ينظر بعينين فارغتين إلى صدرها يعلو ويهبط.

هي ظلّت متماسكة، وهو ظل صامتاً. ثم رفعت بصرها إليه بنظرة عتب، وغضب. واستمر يحملق في عينيها وكأنه لا يتنفس. حنجرته فقط، كانت تتقلص وتتمدد ببطء.

وبدأت أبريز تحسّ بالأصابع الغليظة الباردة تُلامس عنقها.. وما لبثت أن أطلقت صرخة مُرعِبة وقفزت إلى الرٌّواق.

هرعت «ام سامح» من المطبخ مرتعدة لتفاجأ بالأفندي واقفاً في باب غرفة هيلا، فيما «أبريز» مستندة إلى جدار الرواق وهي تلهث. كانت أنفاسها متلاحقة، ووجهها يتصبب عرقاً.

أما الأفندي فكان صنماً مُتجمِّداً.

ـ «لقد تحدّاني. . .».

قالت «أبريز» لأم سامح، وهي تلهث وتشير إلى الأفندي.

وأكملت: قال لي إن صوتي يشبه صوت «حسون»، فأردت أن أثبت له العكس، وأطلقت صرختي.

ولم يتفوه الأفندي بكلمة. ولم تكن «ام سامح» ساذجة إلى درجة أنها لم تفهم حقيقة ما حدث. فألقت على الأفندي نظرة لا تنمّ إلا عن لعنة.

وإذ مشى ببلادة إلى غرفته، قالت أبريز لأم سامح:

ـ لم تقولي لي إنه هنا.

ـ لم أكن أعرف. قالت «أم سامح» معتذرة، وكانت لا تزال في حالة ذهول.

لم يكن باستطاعة أبريز أن تحمل الصدمة إلى بيتها، فهناك زوج مكسور، معتزّ بعنفوانه وبشيَمه. وهناك ابن شاب، شرس الطبع، سريع الغضب. بطّاش.

وهناك الأفظع: الخوف من أن ينتشر الخبر في «ربوا» والجوار، فترسو الفضيحة على أبريز، ويتباهى الأفندي.

وعزمت «أبريز» على البقاء في بيت الأفندي حتى تعود الست هيلا لتصارحها بما حدث. وفضّلت أن تنتظرها في «مقعد الليمون».

كانت الأشجار حولها تبشر بموسمها الواعد. وكان نبات «الوزال» يتوهّج بالأصفر المعطر، فتنشقت أريج «الوزال» ملء صدرها، واسترخت على المقعد منحنية ومسبّلة يديها على ركبتيها، وقد أرخت عينيها ذابلتين مُثقلتين بالهمّ.

كثيراً ما ضحكت هيلا من أبريز حين كانت تشكو لها حركات الأفندي، وتمثلها أمامها. تارة كان يغمزها. وتارة يضع أصابعه على شفتيه ثم ينفخ أصابعه في اتجاهها. وكانت هيلا تضحك وتقول لها:

ـ لا تكترثي، فما هو إلا هرّ جبان». هو ليس إلا «جدع»!

مرّت فترة، وأبريز جالسة ساهمة في «مقعد الليمون».

وحانت منها التفاتة إلى المقعد الخاص بالأفندي، فرأت الهر السيامي، المسمى «جدع»، ممدداً على المقعد، غارقاً في عزّ نومه. نهرته، فجفل، ورفع رأسه قليلاً نحوها، فلمعت عيناه مثل كرتين صغيرتين من البلّور البني اللامع.

وما لبث «جدع» أن راح يتمطّى، ثم استقام قاعداً على عقبه، عاكفاً ذنبه إلى جانبه، شامخاً بوقار هيبته.

وكما لو أنه الأفندي، ذاته، هو الجالس على المقعد، خاطبت أبريز الهر السيامي مزمجرة:

ـ يا نذل. .

وأردفت: «لأنتف شواربك يا كلب!».

ولم تنتبه «أبريز» إلا والسيارة السوداء تتوقف في الباحة، وتنزل منها هيلا، وبرفقتها جاناد، فلما رأت أبريز في «مقعد الليمون»، قالت لها من بعيد:

ـ لا مؤاخذة يا أبريز، لا مؤاخذة. لقد نسيت أن أكلِّف عساف إبلاغك أني مدعوّة إلى الغداء. وعلى أي حال لقد ربحتك اليوم.

كان جاناد قد دخل إلى البيت فيما هيلا تُكرِّر اعتذارها لأبريز، وتدعوها إلى الجلوس. وقد لاحظت التزامها الصمت، فسألتها:

ـ ما بك أبريز؟

لم تجب أبريز. كانت تُحدِّق في عيني هيلا وهي تحفّ شفتيها بأسنانها.

أمسكتها هيلا من كتفيها، وهزّتها:

ـ ماذا حدث أبريز؟

ـ حدث ما كنت أتحاشاه .

وإذ ارتبكت هيلا، طفقت أبريز تتكلم من دون أدنى حذر. روت لهيلا بالتفصيل كل ما حدث. ثم قالت لها حاسمة:

ـ خلاص، لقد انتهت علاقتي مع هذا البيت. أعذريني ستّ هيلا.

لكن هيلا ظلت رابطة الجأش:

ـ إسمعيني، يا أبريز، وافهميني..

وتابعت: الأذى الذي وقع عليكِ، وقع عليّ أنا أيضاً.

ثم أردفت: كلّ امرأة جميلة تتعرّض للمعاكسة، وقد تعرّضتِ أنتِ للأسوأ، لكنك نجوتِ من الأفظع. ربّنا ستر، يا أبريز.

وأكملت: المرأة الحكيمة تتصرّف كما تصرّفتِ أنتِ. وأعترف لك بأنني ساهمت من غير قصد في ما حدث، فاعذريني وافهميني: أنا تحمّلت من هذا الأفندي الكثير من الضيْم. ولا أزال أتحمل. كل ذلك من أجل أن أحمي سمعة ابني جاناد. والآن، علينا أن نتعاون، أنا وأنتِ، بالصمت والكتمان، لحماية سمعتك وسمعة جاناد.

وعلى سبيل التنبيه قالت هيلا:

ـ اسمعي يا أبريز. مجتمع أهل البلد عندكم، كما عندنا في مصر، لا يرحم بريئاً عندما تحصل فضيحة. مجتمعنا يتلقى أخبار الفضائح بلهفة. يغوص في البحث عن تفاصيلها. يُضخّمها، يعيد نسجها. الفضيحة، صحيحة كانت أو كذبة، هي حلوى الفراغ بين من ليس لديهم كلام في جلسات القرى.

ـ هل تفهميني يا أبريز؟

ـ أفهمك ست هيلا، لكني سوف أتحمّل الأذى وحدي، ليس

حرصاً منّي على سُمعة الأفندي، بل حرصاً على شرفي أنا، وعلى شرف زوجي، وابني، وشرف عائلتنا، وعلى شرفك أنت أيضاً. . وعلى سُمعة جاناد أفندي.

وأردفت: «أنا خائفة يا ست هيلا. خائفة من صمتي على ما فعله الأفندي. وخائفة من زوجي، ومن ابني. فإذا أخفيت الأمر عنهما خطر، وإذا كشفتُه لهما فالأمر أخطر».

ــ أقول لكِ يا أبريز. .

ــ نعم ست هيلا.

ــ أقول لك تعالي نكمل اللعبة.

ــ مستحيل.

ــ لا مستحيل ولا حاجة. اسمعي يا أبريز، انقطاعك عنا سوف يثير الأقاويل، وربما الشبهات.

ــ اللعبة انتهت يا ست هيلا. بل صارت خطرة. واسمحي لي أن أقول لك أن أفنديك الهر الجدع، غدّار.

ــ اتركي أمره لي. إنه زوجي وأنا أدرى بطبعه.

ولم تترك هيلا لأبريز فرصة للكلام. فقالت لها:

ــ أتعلمين ماذا عندنا في نهاية هذا الأسبوع؟ عندنا حفل تخرج جاناد من الجامعة يوم السبت، فهل يُعقل أن لا تكوني في

استقباله لدى عودتنا من بيروت؟ سوف يفتقدك إذا لم تكوني موجودة في هذه المناسبة. أليست هذه فرحتك أيضاً يا أبريز؟

ـ إنها فرحتي التي لن أحظى بها لابني. هي فرحتي، وفرحة «أبو راجي»، وفرحة راجي أيضاً.

ـ إذاً، سوف تأتين.

سكتت أبريز.. فأعادت هيلا الإلحاح.

ـ إقطعي لي وعداً بأنك سوف تأتين.

وأردفت ضاحكة: وأنا أقطع لك عهداً بأن «الجدع» أفندي سوف يكون معي في بيروت، ولن أدعه يفلت منّي، لكنه سوف يعود معي إلى «ربوا» ولا يمكننا استبعاده.

ولم تستطع أبريز أن ترفض الرجاء، فقالت:

ـ ماذا تطلبين مني ستّ هيلا؟

ـ لا شيء.. تأتين كضيفة صديقة.

كان يوماً رائعاً لعائلة الأفندي ذلك اليوم الذي تخرّج فيه جاناد بشهادة بكالوريوس في التاريخ والعلوم السياسيّة، وكانت شهادته بدرجة امتياز. وقد سُجّل ذلك اليوم بمئات الصور للمتخرجين وهم يعبرون «الملعب الأخضر» في حرم الجامعة

الأميركية، متباهين بـ«الكاب الأسود»، مكلّلاً بـ«الغاون» المتعالي، زهواً وأملاً.

أمّا في «ربوا» فقد كان يوماً لا ينسى، وسوف يتحوّل مرجعاً لحكايات تُروى، وتزاد، في ليالي الفراغ.

نهضت «أبريز» باكراً كعادتها. ساعدت زوجها الكابورال أبو راجي على الوقوف. ناولته رجله الخشبية، فأدخل فيها بقية فخذه اليمنى، ثم شدت حزام الساق إلى كتفه، ورافقته إلى باب المرحاض في الخارج، وانتظرته حتى عاد، وغسل وجهه ويديه.

كانت قد هيأت لراجي «زوّادته» قبل أن يحمل عصاه ويتمنطق بالمسدس والخنجر، ثم يذهب ويلقي ظل هيبته على الحقول.

كان الكابورال قد شدّ حزام بنطلونه وتقدم بخطوات حذرة، من دون عكّاز، نحو المرآة الصغيرة المعلقة على حافة الجدار في محاذاة حاجب الباب.

وكما في كل صباح في مثل ذلك الوقت، بدأ الكابورال حواره الصامت مع وجهه. زمَّ عينيه محدقاً في المرآة، وأخذ يُملِّس شعره الفضي بأصابعه. كان يخشى أن تنبت شعرة سوداء في تلك الكومة من النفناف الأبيض.

ثم تحوّل إلى الاعتناء بشاربيْه المعقوفين بشكل ذيل عقرب. وإذا كان ذيل العقرب دائماً أسود، فإن شاربيْ الكابورال كانا بلون الحنة، وقد اكتسبا هذا اللون بفضل أنفه الذي لا يكف

عن نفث الدخان الرمادي منذ نحو ثلاثين سنة. والآن، لا تسلية ولا متعة للرجل شبه المُقعد سوى سيجارته. إنه يعرف التبغ البلدي الجيد. وهو يختار منه الأشقر الناعم.

كانت «أبريز» قد أخذت دورها ذلك الصباح أمام المرآة الصغيرة المعلقة قرب حافة الباب. وكانت بالكاد تستطيع أن ترى فيها أكثر من وجهها وتسريحتها.

كانت تلك الرقعة الزجاجية المعلقة، المسماة مرآة، أصغر من أن ترى فيها «أبريز» عنقها وفتحة الفستان الوردي الذي ارتدته في ذلك الصباح، وقد ابتكرت لشعرها الأشقر الطويل تسريحة لم تخطر في بالها من قبل، إذ جمعته في ضمة واحدة، وعقدته بشريطة زرقاء، ثم ردّته إلى الخلف مثل ذيل مهرة في ربيعها الثالث.

كان الكابورال يتأمل «أبريز» خلسة، وهو قليلاً ما يراها بذلك الفستان الذي كان يلبسها لبساً، وهي لا ترتديه إلا عندما تكون متهيئة للخروج إلى عرس، أو عيد.

لكن الكابورال، وهو يتأمل «أبريز» خلسة، في ذلك الصباح، رآها أجمل بكثير من أي مرة من قبل. فقد بدت أمامه مثل عروس تخرج من البيت للمرة الأولى.

وللمرة الأولى لاحظ لوناً أحمر على شفتيها.

وسمعته يقول:

ـ ما طعم هذا اللون الأحمر؟ لم يسبق لي أن ذُقت طعمه.

شعرت أبريز بخدش عاطفي لذيذ، فالتفتت إلى الكابورال، ورمقته بغمزة من طرف عينها. وسمعها تقول، وهي تكمل زينتها:

ـ أتعلم، يا «أبو راجي»؟

ـ ماذا ؟

ـ إن أي امرأة تنظر إلى شفتيك تظن أنك تضع عليهما شيئاً من أحمر الشفاه.

ضحك الكابورال. . فقد كانت شفتاه، كما شارباه، وإصبعاه بلون الحِنّة. وكذلك بقية أسنانه المبعثرة في فكه الأسفل. وكل ذلك بسبب دخان التبغ البلدي الأصيل.

وقال الكابورال، معزياً نفسه:

ـ السيجارة هي متعتي الوحيدة الباقية.

ثم استدرك: ماذا بقي لي غير السيجارة وغيرك يا «أبريز»؟

وكانت قد أكملت زينتها، فتحولت عن رقعة المرآة الصغيرة نحو الكابورال، فرأته ينظر إليها مفتوناً بها.

وكادت تقول له: «ليتك تستطيع أن تكون معي في سهرة الليلة في بيت الأفندي، فكم كنت سأتباهى بك».

لكنها كظمت حسرتها. . فقال لها:

ـ ألا تظنين، يا «أبريز»، أنك قد تثيرين غيرة الست هيلا في الحفلة؟

فوجئت «أبريز»، لكن السؤال أعجبها. فقالت:

ـ الست هيلا أحلى مني بكثير.

ـ لكنّ الرجال عيونهم دوماً على نساء الآخرين يا أبريز.

ـ وهل ما تقوله ينطبق عليك؟

وأردفت:

ـ هل تضع عينك على امرأة أخرى يا كابورال؟

تنهّد الكابورال، ورفع صوته بـ«الآه»:

ـ يا حسرتي. أنا راحت عليّ.

وتقدمت أبريز نحوه، وكان لا يزال جالساً على مقعده ورجله ممدودة أمامه، وعكازه إلى جانبه.

ـ لماذا تتحسّر يا «أبو راجي»؟. أنت الكابورال البطل. أنت عشقي الأول. أنت حبيبي. أنت والد ابني. أنت والد ابنتي. أنت زوجي.. أنت تاج راسي.

كانت «أبريز» تطلق كلماتها بعفوية، لكنها لم تكن تلاحظ أن حنجرة «أبو راجي» أخذت تعلو وتهبط فيما هو يجهد ليستدر ريقه. كان يحاول أن يرطّب شفتيه بطرف لسانه. إلا أن لسانه كان ناشفاً.

وما لبث أن ابتسم، فأخذت أبريز وجهه بين راحتيها . . وتخاطبت عيونهما. ثم بدأ وجهها يدنو من وجهه، بطيئاً، بطيئاً، ببطء عقرب الثواني. وهمست له:

ــ تَذَوّق طعم اللون الأحمر أيها البطل . .

وساد صمت عميق طاف على أطراف العمر.

ــ أبريز؟!

ــ نعم، ماذا يا أبو راجي؟

ــ أريد أن أسألك .

ــ إسأل.

ــ أخاف أن يزعجك السؤال.

ــ لماذا تفترض أنه يزعجني؟

ــ أظن أنه يزعجكِ.

ــ إذاً، احتفظ به.

ــ لكنني أريد أن أقوله.

ــ منذ متى يخطر في بالك هذا السؤال؟

ــ الآن. الآن خطر في بالي.

ــ قله.

كان وجه «أبريز» لا يزال قريباً من وجه الكابورال. وكانت نظراته تصب في عيني أبريز، وتنمّ عن السؤال الذي يحاذر النطق به.

وعادت تقول له:

ـ أحكِ يا كابورال. ماذا تريد أن تسألني؟

وعاد أبو راجي يتلمظ، ثم قال:

ـ أبريز..

ـ نعم.

ـ هل حاول الأفندي أن يقبّلك؟

لم تجب أبريز ولم ترتبك، لكنها تقدمت ووضعت ساعدها تحت إبط الكابورال لينهض، ثم مشت معه إلى «الإفريز» في صحن الدار، فساعدته على الجلوس، ثم قفلت عائدة إلى الداخل، دون أن تنبس بكلمة. لعلها تركته في حيرة، بل في حالة قلق وشكّ. بيد أنها لم تتأخر سوى بضع دقائق لتعود حاملة إليه ركوة قهوة، وضعتها أمامه على طاولة صغيرة، ثم وضعت قربها علبة التبغ النحاسية، وفي داخلها دفتر ورق السيجارة.

جلست إلى جانبه، وصبّت له فنجان قهوة، وفنجاناً لها. انتظرت حتى لفّ سيجارته، وأشعلها، ثم أخذ المجة الأولى.

ــ «أبو راجي»؟ . .

ــ نعم . .

ــ أستحلفك، يا أبو راجي بشرفك أن تجيبيني بصراحة عن سؤال، فهل أنت مستعد؟

ــ إسألي.

ــ بشرفك، يا أبو راجي، لو لم تتزوّجني أما كنت ستتزوج امرأة غيري؟

ــ طبعاً. أكيد.

ــ طيِّب، يا أبو راجي. لنفترض أنك تزوجت امرأة غيري، وأنا تزوجت غيرك، وكانت زوجتك جميلة، لكنك كنت تراني أجمل منها، وكنت أنا أزورها باستمرار، وكنت تراني وأراك. . . ثم سنحت لك فرصة. . بشرفك يا أبو راجي، أما كنت لتحاول أن تغويني؟. قل لي الحقيقة.

مَجَّ «أبو راجي» سيجارته، ثم فرك أنفه وفمه، وقال:

ــ لا أعرف.

فقالت «أبريز»:

ــ طيّب. افترض يا أبو راجي، أن زوج تلك الصديقة حاول أن يقبّلني، فماذا تفعل؟

ــ أنا سوف أسألك: ماذا كنتِ أنتِ ستفعلين؟

ــ كنت سأحطّم أسنانه.

ــ هذا أقلّ ما يجب أن تفعليه.

ــ وإذا قبّلني عنوة، ماذا تفعل يا أبو راجي؟

انتفخت أوداج الكابورال، فقال:

ــ إذا أخبرتني أنتِ، أقتله.

ــ وإذا أخبرك أحد غيري؟

ــ أقتلكِ أنتِ.

ــ وإذا كان ناقل الخبر كاذباً؟

ــ أعود فأقتل ناقل الخبر.

ثم انتفض الكابورال ممتعضاً:

ــ لكن لماذا هذه الأسئلة في هذا الصباح يا «أبريز»؟

ــ كنت أريد أن أمتحنك.

ــ وهل نجحت في الامتحان؟

ــ أنا، كامرأة، أعطيك علامة خمسة على عشرة.

ــ يعني؟

ـ يعني نص على نص.

ثم سألته:

ـ منذ متى لم ترَ الستّ «هيلا»؟

ـ منذ سبع سنوات، ليس أقل.

ـ أكنت تراها جميلة؟

ـ أكيد. هل ما تزال سمراء؟

ـ لقد ازدادت سماراً. صار سمارها فتّاناً، وأنا أراها الآن أجمل.

ـ أجمل منك؟

مثل هدية ثمينة تلقفت «أبريز» سؤال الكابورال فقالت له:

ـ لقد سمعت مرة إحدى ضيفات الست «هيلا»، تقول لمن حولها:

أنظروا إلى «هيلا».. ألا تشبه كليوباترة؟

ـ من هي كليوباترة؟ سأل الكابورال.

ـ لا أعرف.. إنما سمعتُ تلك الضيفة تصف «هيلا» فتقول:

«لها وجه أسمر بلون البنّ، وعينان خضراوان برموش طويلة، وعنق مثل عنق غزالة، وخصر ممشوق مثل عود الخيزران. سبحان الخالق..».

كان الكابورال يسمع وصف هيلا بلسان «أبريز»، نقلاً عن امرأة أخرى، فيحني رأسه ثم يرفعه بتؤدة وإكبار. ثم أوصى «أبريز» بأن تبلغ الست هيلا التهاني بشهادة جاناد أفندي.

كانت الساعة قد قاربت الظهيرة حين خرجت «أبريز» من بوابة بيتها وانعطفت في الزقاق الذي يحاذي جدار صحن الدار.

كان الجدار مبنياً من حجار البراري. ومن فتحة صغيرة فيه كان بإمكان أبريز أن ترى الكابورال جالساً على الإفريز. كانت تراه، وهو لا يراها. لكنها كانت تسمع شهيقه وهو يمجّ سيجارته وينفث دخانها. كان يرفع السيجارة بين إصبعيه أمام عينيه، فيتأملها وهو يتلمّظ. كان يتأملها كما يتأمل «جوهرجي» حبة ألماس.

نادراً ما كانت «أبريز» تتوقف في الزقاق لتراقب زوجها من فتحة الجدار. لكنها، في ذلك اليوم، السبت، كانت تشعر بغصّة لأنها تفارق الكابورال وهي بكامل زينتها وفتنتها، وهو مُقعد على الإفريز.

رأته يلامس رجله الممدودة مثل قطعة حطب يابس. وسمعته يطلق تنهيدة عميقة.

ثم ما لبث أن جذب طرف بنطلونه، فانكشفت رجله الخشب. وأخذ ينقر عليها بأصابعه.

مضت «أبريز» في الزقاق وفي أذنيها نقرات أصابع الكابورال

على رجله الخشب. لكنّ سؤاله كان يلاحقها: هل حاول الأفندي أن يُقبّلك؟

كانت تلوم نفسها، فهي التي استدرجته بأسئلتها المُحرجة، حتى هدّد بقتل من يحاول تقبيلها، وبقتلها هي إن تعرضت للمحاولة ولم تخبره.

«هل أخطأت؟» أخذت «أبريز» تتساءل وتُعنِّف نفسها.

هل كان عليها أن تصارح الكابورال، فتخبره أن الأفندي حاول تقبيلها وقد أفشلت محاولته؟

لكن لو أنها أخبرته فكيف كان له أن يقتل الأفندي وهو لا يستطيع مغادرة صحن الدار؟

وهل كان ليفشي السرّ أمام راجي، فلا يتردد الشاب البطّاش في قتل الأفندي، فتكون الحصيلة جريمة عقوبتها الإعدام للابن، وربما موت الزوج قهراً؟

وإذا كرَّر الأفندي محاولة تقبيلها، وكتمت هي السرّ، ثم انكشف السر في «ربوا» والجوار، كفضيحة، فهل يُعقل أن ينجو الأفندي من القتل بيد راجي؟

وهل يُعقل أن يدعها أبو راجي على قيد الحياة، والمسدس في متناول يده، ورأسها أقرب ما يكون إليه؟

كانت «أبريز» تمشي إلى بيت الأفندي، وكانت الأسئلة المُفزعة تملأ رأسها.

لم تكن تخشى الموت. كانت تخشى الفضيحة. فموت امرأة قتلاً برصاص زوجها يُعتبر أفظع ميتة، وأبشع فضيحة في مجتمع الجبل. هي واثقة بأنها بريئة، ونقيّة، لكن المجتمع لا يرحم.

كانت «أبريز» تمشي، وهي تحاكم ذاتها على جُرم لم ترتكبه. جرم لم يقع أصلاً. كانت تتحسس عاراً لم يمسّها. لكنها كانت ترتعد وهي تلامس وجهها وعنقها حيث لامستها أصابع الأفندي.

قريباً من بوابة حارة الأفندي، كانت هناك شجرة «ميس» هائلة الارتفاع والانفلاش. وكانت ظلالها وارفة.

أمام تلك الشجرة توقفت «أبريز» فشعرت برغبة الجلوس على حجر أملس تحت الشجرة التي يعبرها الهواء همساً.

ليس من عادة نساء «ربوا» الاستراحة على ذلك الحجر الأملس، فهو خاص بالرجال الذين يفيئون إليه في الأمسيات، ومعظمهم من المُسنّين.

لم تكن شجرة «الميْس» من أملاك الأفندي، إنما هي من المُشاع العام، وفي ظلها المسائي يتسع مجلسها لسبعة رجال. ويبقى الحجر الأملس مقعداً محجوزاً لكبير السنّ «أبو قوسين». هذا هو لقبه فهو يمشي على رِجلين كأنهما قوسان من عيدان الخيزران.

لقد تجاوز «أبو قوسيْن» الثانية والتسعين، لكنه حين يمدّ يده ليصافح أحداً يتعمّد الضغط على يده قاصداً التحدّي. أما إذا صافح امرأة جميلة فإنه يأخذ أصابعها برفق بين أصابعه المرتعشة.

كل نساء «ربوا» يعرفن لمسة أصابع «أبو قوسين»، وخصوصاً «أبريز»، التي حين يصافحها يقول لها مُلاطفاً:

ـ ليست أصابعي التي ترتعش، إنما قلبي.

تذكرت أبريز «أبو قوسين» وهي تقف في ظل شجرة «الميْس». كان الحرّ قد اشتدّ. وكانت مُتعبة من دون بذل جهد. نظرت حولها في الجهات الأربع، وحين لم تلمح أحداً، ولم تسمع صوتاً، رفعت ذيل فستانها الحرير وجلست على الحجر الأملس، فشعرت ببرودة هدّأت أنفاسها المضطربة.

وهبّ من الوادي نسيم لفح وجهها الرطب، فمسحت جبينها بمنديل اليد، وتنفست عميقاً، كما لو أنها كانت قد شبعت بكاء، وهي لم تكن قد بكت.

لم تحسب «أبريز» كم من الوقت بقيت جالسة في سهوها على الحجر الأملس تحت شجرة «الميْس». ولم يكن في خيالها المضطرب سوى ذراع الأفندي ممدودة فوق رأسها وأصابعه تلامس عنقها.

عند بوابة الحديقة كان «عساف» هناك. استقبلها بالتحية، واضعاً

كفه على جبينه، ثم على صدره، تماماً كما يحيّي الست «هيلا»، وقال لها:

ـ جميعهم في بيروت، ولن يعودوا إلّا مساءً. لكن «ام سامح» هنا».

ـ أعرف، قالت «أبريز».

كانت شجرة الحور تلوح فوق الطريق. وكانت الريح تقلب أوراقها بين الأخضر والأبيض، كأنما هذه الشجرة ما نبتت إلّا لتتمايل، وكأنما الريح لا تهبّ إلّا لتلاعبها.

ألقت «أبريز» نظرة على «مقعد الليمون». كان الهر «جدع» هناك مستلقياً على الأريكة، متلاشياً، في عزّ غفوته.

فتحت الباب وصعدت إلى الطابق العلوي، وإلى المطبخ حيث كانت «ام سامح» قد أنجزت كل المطلوب منها للعشاء، وهي في «ربوا» أشهر من طبخت «الهريسة».

ـ أتعرفين بماذا كنت أفكّر يا أبريز قبل وصولك؟..

ـ بماذا؟

ـ قلت في نفسي، طالما أني أنهيت شغلي، وطالما أنتِ آتية، وهم في بيروت، ولن يعودوا قبل المساء، فلماذا لا أذهب إلى بيت ابني لأرى أولاده؟ لقد اشتقت إليهم. فهل أستطيع أن أغيب ساعتين واعود؟

فوراً رحبت أبريز، وشجّعت «ام سامح» على الذهاب.

كانت «ام سامح» أرملة وحيدة تركت بيتها بعد أن تزوج ابنها وملأ البيت بالأولاد، فلم يبقَ لها في بيتها إلا موضع فراشها، ولم يبق لها وقت للراحة، فجاءت إلى بيت الأفندي لتطبخ وتعجن، وتخبز، وتغسل وتنظف، وتنام.

كانت ساعة الصالون تدق العاشرة صباحاً عندما غادرت «ام سامح» بيت الأفندي، فانصرفت أبريز إلى إجراء كشف على غرف النوم، ثم نزلت إلى الصالون، وأجالت النظر في أرجائه. كانت مطمئنة إلى أن «الأفندي» في قبضة الست هيلا في بيروت.

على صندوق قديم، مطعّم بالعاج، صورة لجاناد مع والدته هيلا.

«لولاك يا جاناد أفندي، ولولاك يا ست هيلا، لما وطأت قدماي أرض هذا البيت من جديد.» قالت أبريز في الفراغ.

ثم مالت نحو المرآة العريضة العالية.

نادراً ما رأت نفسها كاملة في هذه المرآة. هي تشعر بالحياء إذا أطالت الوقوف أمامها، وهي تخشى أن يراها الأفندي فيروح يهمهم ويحمحم.

لكنها اليوم حرة، ومطمئنة، فليس في البيت أحد. إنها في مقام مالكته.

شدّت قامتها إلى فوق، وواجهت المرآة. رأت قامتها حتى خصرها. كثيراً ما تخيّلت نفسها سيدة هذا البيت الكبير. وها إنها الآن بفستان يليق بها كسيدة لهذا البيت: بتسريحتها، بشالها الأزرق، بكحلة العينين، وحمرة الفم، ونفحة العطر الخفيف بروح الياسمين.

إنها تحب كل تحف هذا البيت، وكم تمنت لو أنها تملك ذلك «الفونوغراف» لتسمع الأسطوانة التي تحب ساعة تشاء.

تطلعت إلى الجرن الخشب المُطعّم في الزاوية، وإلى المهباج، وذاك «الهاون» النحاسي اللامع الذي يرسل رنيناً مثل رنين الصنوج، وإلى جانبه المدقّة، وذاك السيف الطويل المجرد من غِمدِه، والمحني فوق عتبة الباب.

وكم تمنّت، أكثر ما تمنّت، لو أن الخنجرين المرصّعين بحبات الفضة، هما ملك ابنها راجي. فلمثله تليق الخناجر الفضة المصنّعة في بلاد اليمن.

لكنها ما لبثت أن عادت لتتأمل قامتها في المرآة.

كانت تشعر برغبة جامحة لتتحدى الأفندي في غيابه. فما من أحد في البيت في تلك الساعة. واستدارت لتقفل الباب من الداخل، وتعود إلى المرآة.

وكما لو أنها لم تر وجهها من قبل، أخذت تتفحص تقاسيم هذا الوجه، كما لو أنه ليس وجهها. حدّقت في عينيها، فلمحت فيهما حياء، كأنها استحت من ذاتها.

بيْد أنها كانت عازمة على أن تغالب حياءها، وأن تستكشف جسدها، فرفعت ذراعيها إلى ما وراء عنقها، وفكت الزر الأول الأعلى في فتحة الفستان من الخلف. ثم فكّت الزر الثاني، فبدأ فستانها الحرير ينحسر عن كتفيها، فشعرت بتنميل خفيف في أطراف أصابعها، وأخذت تبلع ريقها.

وتوقفت لتشحذ شجاعتها. ثم عادت واستدارت بقامتها ما استطاعت أن تستدير، ولم تكن تحرك قدميها. استدارت يميناً ويساراً، أكثر من مرة، حتى تمكّنت من أن ترى قامتها بالكامل. هكذا كانت تفعل «هيلا» أمام المرآة عندما تبدل فساتينها.

ثم، مثل فتاة مراهقة، راحت أبريز تتمايل أمام المرآة كأنها غير مصدقة أن المرأة التي تراها في المرآة هي هي ذاتها، وليست امرأة أخرى.

وأخذها الغرور إلى حدّ تقليد نجمات السينما. إنها تشاهد صورهنّ على أغلفة المجلات في غرفة النوم الخاصة بالستّ «هيلا».

وتجرأت على كشف المزيد من كتفيها حتى وسط الصدر. حدّقت جيداً في المرآة، وأخذت تميل يميناً ويساراً كما لو أنها عارضة أزياء.

وفجأة شهقت، وجحظت عيناها، وتجمدت في مكانها، كما هي، كأنها جسد منحوت.

لقد ظهر أمامها الأفندي. رأته من خلال المرآة. كان واقفاً ينظر إليها بوجه جامد وقد تسمّرت عيناه على جسدها.

للحظات كادت تسقط غائبة عن الوعي. لكنها تجالدت، وتمكنت من أن تستر ما كان مكشوفاً. ثم استدارت. كان العرق قد انساب على عنقها وبلَّل فتحة فستانها. وإذ شعرت بأنها تفقد توازنها، لم تستطع إلّا أن تسند ظهرها إلى الجدار.

ثم بدأ جسدها يتراخى ببطء، حتى وجدت نفسها قاعدة أرضاً، فغرقت في نوبة بكاء. بكت حتى نشفت دموعها. ثم أخذت تتنفس عميقاً وهي ترفع رأسها وتتنهد، فيما كانت أنظارها تدور في فراغ الصالون. لم تكن تدري إلى أين، وإلى ماذا تتطلع. كان أمامها الجدار. إلّا أنّ الجدار كان يتراءى لها غمامة بحرية.

ولحظة بعد لحظة، أخذت الغمامة تنحسر وتتلاشى. وبدأ وجه ينجلي أمامها. وحين اكتمل، وبات واضحاً، اكتشفت أنه وجه الأفندي تماماً. هو عينه الوجه الذي مرّ أمامها في المرآة. لكنه الآن في الصورة الكبيرة المرسومة المعلّقة على الجدار.

هل كان هو الوجه الذي شاهدته في المرآة، أم أن الأفندي نفسه، كان في زاوية الصالون، مختبئاً يتلصّص عليها؟

لفترة وجيزة ظلت أبريز حائرة مضطربة. لقد استضعفت نفسها حين اكتشفت أنها سقطت فريسة وهم في خدعة المرآة. لكنها ما لبثت أن واجهت الحقيقة بشجاعة. فهي وقعت فريسة خوفها من

الأفندي الذي جعلت منه كابوساً ساهراً عليها في ليلها ونهارها.

كانت ما تزال قاعدة أرضاً، مسندة ظهرها إلى الجدار، ورجلاها ممدودتان، ويداها على ركبتيها، فوقفت تنظر إلى المرآة، وتتساءل: «هل هذه المرآة العريضة العالية، وُجدت من أجل أن تظهر فيها صورة الأفندي. أم أن صورة الأفندي رُسمت بهذا الحجم لتملأ صفحة المرآة؟».

وضحكت أبريز ساخرة. ضحكت حتى استراحت.

ثم عادت تنظر في المرآة. ومن جديد رأت فيها وجه الأفندي خلفها، تماماً كما رأته قبل قليل. تأمّلته بهدوء. تراجعت بضع خطوات إلى الوراء، وتأملته. ثم عادت وتقدمت بضع خطوات إلى الأمام وتأملته: إنه هو، وجه الأفندي، الذي رأته يوم اعترضها على باب غرفة الست «هيلا». تذكرت الشراهة في عينيه وهو يمدّ أصابعه ليلامس عنقها. كانت أصابعه قاسية ورطبة. لكنها لا تدري الآن لماذا تراءت لها اصبع إبهامه بحجم قبضة مدقة الهاون. ربما لأن نظرها وقع قبل قليل على مدقة الهاون في زاوية الصالون.

ووجدت نفسها تتراجع من أمام المرآة لتنحني وتلتقط مدقة الهاون. أمسكتها من قبضتها، ورفعتها. لم تفاجأ بالشعور بثقلها، فكثيراً ما سحقت بها حبوب نبات «السماق» التي لا تعادل قساوتها إلا قساوة البحص الصوان.

ثم عادت لتقف قبالة المرآة وقد عرفت أين تضع قدميها ليظهر

أمامها وجه الأفندي. فلمّا ظهر وجهه في زاوية المرآة راحت تتأمله. كم تمقته. وكم تتمنى لو أن بإمكانها أن تجعل أظافرها مخالب من فولاذ لتنشبها في وجهه.

رفعت مدقّة الهاون أمام المرآة إلى فوق، فانحسر كُمّ فستانها الحرير، وانكشفت ذراعها عارية حتى الكتف.

ثم عادت تحدق في وجه الأفندي كما لو انها تتحدّاه وتستنطقه. حدّقت طويلاً في وجهه حتى بدأت ترى في عينيه وميضاً غريباً، هو ذلك المزيج من الشراهة والنذالة.

وشعرت بلهاث أنفاسه على عنقها، فأطلقت صرخة هائلة، ثم هوت بالمدقة على الوجه، فانفجرت المرآة الأثرية، وتناثرت على الأرض.. واختفى وجه الأفندي.

للحظات ظلت أبريز متجمِّدة أمام المرآة التي لم يبق منها إلا البرواز الفاخر وقد بان خلفه الجدار الحجري.

ثم ما لبثت أن استدارت نحو الجدار المقابل. كانت صورة الأفندي المكبّرة في مكانها، وكان وجهه كما تراءى لها محدقاً في عينيها بشراهة ودناءة. هزّت رأسها، وألقت مدقة الهاون جانباً، ثم تناولت أحد الخنجرين المعلقين على الجدار، وانهالت بنصله على وجه الأفندي تعمل فيه تمزيقاً وتقطيعاً، حتى لم يبق منه، ولا من الصورة المرسومة بالزيت، سوى نتف من القماش تناثرت على الأرض، فأخذت تدوسها بقدميها. لم تعد هناك صورة للأفندي في الصالون، ولا مرآة

تعكسها. لقد حطّمت وجهه في المرآة، ومزّقت معالمه في اللوحة، فشعرت بأنها قتلته.

ثمّ وقع نظرها على صورة هيلا مع جاناد على سطح الصندوق القديم، فوقفت أمام الصورة، وخاطبت هيلا:

ـ اعذريني ست هيلا. أرجوكِ اعذريني. وسامحيني. أحبكِ. وسوف أبقى وفية لكِ. ولا أملك شيئاً غير محبتي واحترامي لك.

ثم خاطبت جاناد:

ـ أحبك يا جاناد مثل ابني. لا أستطيع أن أحبك أكثر. أبارك لك شهادتك. وأدعو لك بطول العمر. سامحني. لن أستطيع أن أحضر حفلة فرحكم هذه الليلة، لكنك سوف تكون في خيالي. أقبّلك كما أُقبِّل ابني راجي.

ثم فتحت الباب وخرجت.

ومن دون قصد مسبق وجدت نفسها في «مقعد الليمون»، كان الهر «جدع» ممدداً على الأريكة. بالكاد فتح عينيه ليتطلع إليها، ثم عاد وغفا. فتوجّهت إليه:

ـ سامحني يا «جدع». سامحني. ربما أنك سمعتني مرة أقول لك: «سوف أنتف شواربك يا نذل. أنا كنت أقصد الأفندي، وقد نتّفت شواربه، فسامحني..

وفجأة أطلت «ام سامح» عائدة من بيتها، فسألت أبريز بلهفة: «هل أعجبك ترتيب الصالون والغرف؟».

ضحكت أبريز، وقالت وهي تضع يدها على كتف «ام سامح»:

ـ لم تولد بعد المرأة التي لها ذوقك وترتيبك.

وأردفت: لكن اعذريني، يا «ام سامح»، سوف تعيدين ترتيب الصالون من جديد.

لم تفهم «ام سامح» ماذا تعني أبريز.

كانت حرارة الظهيرة قد بلغت ذروتها في «مقعد الليمون»، وكانت جوقة صرصار الصنوبر تؤدي معزوفتها، فتجلب النعاس عنوة، لكن أبريز كانت تسمعها كمعزوفة نشيد النصر، فودعت «ام سامح»، ونزلت درج «مقعد الليمون» كبطلة تُدق لها النوبة.

وفي ذلك المساء تعرّضت «ربوا» لطوفان ضباب أخذ يفيض صعوداً من الوديان، وما لبث أن ابتلع القرى التي كانت ساهرة.

كان باستطاعة الناظر إلى «ربوا» من تلة عالية أن يتخيل نفسه في طائرة تسبح فوق السحاب.

لكن طوفان الضباب لم يتأخّر حتى بدأ ينحسر.

كان بيت الكابورال أبو راجي قد انكشف. وكان الكابورال قد خلع رجله الخشب، وقذف بها إلى زاوية الغرفة، ثم قعد على

الحصيرة، وإلى جانبه علبة التبغ، والولاعة، وصحن صغير من الفخار لرماد سجائره. وما كان ليطفىء سيجارته إلّا بعد أن تلسع جمرتها أصبعيه، وكثيراً ما تلسع إصبعيه ولا يحسّ إلّا بعد أن تلسع شفتيه.

وكانت «أبريز» قاعدة متربعة على الحصيرة إلى يسار الكابورال، وعلى مقربة منها طاولة منخفضة عليها قنديل كاز يرسل خيط دخانه الأسود إلى السقف.

كانت تنسج بالصنارة جورباً من الصوف لركبة الكابورال استعداداً لفصل الشتاء المقبل. كانت تقرّب الصنارة من القنديل لتتأكد في ضوئه من صحة القُطَب. لكنها حين كانت تضطر لإحناء رأسها قليلاً، كان ظلّ رأسها يحجب النور عن الكابورال، فيطلع صوته: «زيحي رأسك عن الضوء، يا امرأة، حتى نشوف وجه ربنا».

وكان راجي، كعادته، يتسلى بلعبة «البرجيس»، وهي لعبة تحتاج إلى ثنائي، لكنه كان يلعبها وحده، فلا يربح ولا يخسر، إنما يربح فقط متعة تضييع الوقت.

وتثاءب الكابورال مرة، وثانية، ثم ثالثة، فقالت أبريز:

ـ «ابو راجي.. قمْ إلى فراشك».

لكن الكابورال تثاءب مرة رابعة، وظلّ مسترخياً في مكانه.

لم يكن فراش الكابورال أبعد مما تطال رجله اليسرى، فثبّت

كفيه أرضاً على جانبيه، وضغط حتى ارتفع قفاه قليلاً عن الحصيرة.

وقبل أن يزحف إلى الفراش جاء صوت من الخارج، من خلف جدار الدار. فقال الكابورال، وكان لا يزال مستنداً إلى قبضتيه:

ـ من ينادي؟. سمعت من يقول «يا ام راجي».

وأرهفت أبريز السمع.

ومرة ثانية جاء الصوت:

ـ «ام راجي، يا ام راجي..».

كان الصوت الآتي من خلف جدار الدار يشبه صوتاً صادراً من فم مكمم. فقال راجي الذي كان ما يزال منهمكاً بلعبة «البرجيس»:

ـ «هذه ام فاضل».

كانت أبريز قد ألقت الصنارة والخيطان جانباً، وخرجت من الباب، ورفعت صوتها ممدوداً في الليل: نعم.

ولم تسمع جواباً.

ثم راحت تقترب من حائط الدار قائلة: نعم، من نادى؟

ولم تسمع جواباً إنما انطلقت رصاصة، ثم تبعتها رصاصة ثانية..

كان راجي قد نزع مسدسه من حزامه للتوّ، ووضعه بالقرب منه، فتناول المسدس وهبّ خارجاً إلى الدار ليرى أمه تهوي بمحاذاة الحائط قرب الأفريز.

لم يهرع لإسعاف أمه، إنما قفز، مثل جندب، فوق الحائط إلى الزقاق، وراح يركض متعقباً مطلق النار.

كان القمر يطل من خلف تلة «ربوا»، وكان ضوءه ممشحاً بطبقة رقيقة من غمامة بيضاء.

وكان راجي منطلقاً بأقصى سرعته ليدرك مطلق النار.

ولم يركض طويلاً حتى رأى رجلاً يعدو أمامه. وأيقن أنه الرجل الذي أَطلق الرصاص حتماً.

كان بإمكان راجي أن يقبض على الرجل، لكنه لم يكن ينوي أن يقبض عليه حياً. كان يخشى أن يسقطه جريحاً فلا يعود يجوز له، أخلاقياً، أن يجهز عليه. لذلك كان يريده صريعاً. وكان قد صار على وشك أن يدركه، وبات واثقاً بأنه لن يخطئه، فأطلق عليه الرصاصة الأولى، وأتبعها بثانية، فخرّ الرجل على ركبتيه، ثم انطرح أرضاً.

توقف راجي حيث أطلق الرصاصة الثانية، ولم يتحرك إلّا بعد ثوان بات خلالها على شبه يقين بأن الرجل فارق الحياة. فتقدم نحوه.

كان ضوء القمر كافياً ليتبين وجه الرجل الصريع. كان الرجل ملثماً بكوفية سوداء من الصنف الذي يرتديه المزارعون.

انحنى راجي وأزاح اللِّثام عن وجه الرجل الصريع. وما إن انكشف الوجه، حتى بادر راجي إلى إطلاق الرصاصة الثالثة عليه. على جبينه تحديداً.

لم تكن رصاصة الرحمة، كما تقضي آداب الإعدام بالرصاص. كانت رصاصة الثأر. فالرجل الذي بين يدي راجي لم يكن إلّا الأفندي بالذات.

«ولكن . . لماذا؟ لماذا؟ . .».

أخذ السؤال يضجّ في رأس راجي وهو ينظر إلى وجه الأفندي في ضوء القمر الشاحب فيُخيّل إليه أنه يسمع صدى صوته مدوّياً عبر الوديان: «لماذا؟. لماذا قتلت أمّي؟»؟.

ولم يتأخّر حتى ترك الأفندي جثة هامدة، وعاد إلى الدار ليجد أمه جثة ثانية.

كان راجي مُهيأً لمواجهة هذه الحقيقة. فلحظة رأى أمه تهوي عند حافة الافريز، أدرك فوراً أنها فارقت الحياة.

لكنه، في تلك اللحظة، لم يشعر بدافع الركوع إلى جانب أمه. إنما شعر بقوة الاندفاع وراء القاتل للقضاء عليه.

وها هو الآن يركع إلى جانب أمه، فيرفع راحة يدها ويلامس بأصابعها جبينه وعينيه، وأنفه، وفمه. ثم يعود ويلثم اليد، وينتحب بصوت مخنوق.

كان يسمع صوت والده في الداخل. كان الكابورال يكرر الصراخ: أبريز.. راجي..

وما من أحد يردّ بجواب.

ولدقائق قليلة ظن الكابورال أن أحداً أطلق النار لتهرب جماعات «أبناء آوى» التي كانت تعوي في الجوار.

ثم ساوره الظن بأن أبريز وراجي هرعا على صوت الرصاص لاستطلاع ما حدث.

وفي الحالين ظل قاعداً في مكانه مضطرباً.

وإذ أطل عليه راجي من الباب صرخ في وجهه:

ـ «ماذا حدث؟ أين أمك؟

لم يجب راجي، ولم يكن ضوء القنديل كافياً ليكشف معالم وجهه.

ـ ماذا حدث؟ أين أمك؟

صرخ الكابورال بأعلى صوته.

ـ أمي قُتلت. قتلها الأفندي.

أجاب راجي بصوت أعلى.

وصمت الكابورال، وراح ينظر في الفراغ.

ولاحظ جاناد أن والده يشدّ قبضتيه، ويكزّ على أسنانه، وقد تحوّل وجهه إلى لون التراب. ثم انهال على رجله المبتورة لكماً، والشّرر يتطاير من عينيه.

وحاول راجي أن يُهدّىء من روع والده، فانفجر في وجهه مزمجراً:

ـ ماذا ستقول لي بعد؟

ـ سأقول لك إني قتلت «الأفندي». أجاب جاناد بأعلى صوته.

ـ أين قتلته؟

ـ قتلته في آخر الزقاق، إنه ملقى هناك.

وكأن برميل ماء بارد نزل على رأس الكابورال، فهدأ.

ثم سأل راجي:

ـ أين أمك الآن؟

إنها نائمة قرب الافريز في الدار.

ـ إرفعني. قال الكابورال وهو يرفع ذراعيه كطفل.

انحنى راجي على والده، ونهض به حتى استقام واقفاً على رجل واحدة، مستنداً إلى كتف إبنه.

ـ إحملني.

فحمله راجي إلى الدار، وأقعده إلى جانب أبريز.

ـ هل رأيتها؟ سأله راجي.

ـ ليس بوضوح. هناك غباشة على عيني.

كان وجه أبريز، في ضوء القمر وردياً، مثل فستانها الحرير الذي لم تكن قد خلعته بعد. وكان ثقب صغير في صدرها قد بدأ ينبع لوناً أحمر.

ـ ساعدني لأركع خلف رأسها، قال الكابورال لابنه.

رفع راجي والده وأقعده خلف رأس أمه، فركع على ركبته الوحيدة.

وانحنى الكابورال على جبين أبريز، ولم يعد يقوى على رفع رأسه، فتقدم راجي ورفعه، ثم حمله إلى داخل البيت.

أجلسهُ على الحصيرة، ووضع إلى جانبه إبريق الماء.

ـ «لماذا قتلها؟».

ذاك هو السؤال الصارخ الذي كان يتردّد في صدر الكابورال، وقد حاذر إطلاقه.. وهو كان قد سأل أبريز لماذا لم تبقَ لتشارك في حفل العشاء بمناسبة تخرّج جاناد، فقالت له إنها فضلت أن تكون إلى جانبه.

ـ الآن، عليّ أن أذهب. قال راجي.

ـ إلى أين ستذهب؟

ـ ليس بعيداً.

وأردف موصياً والده:

ـ قل لرجال الدرك فقط: إني قتلت «الأفندي» لأنه قتل أمي.

ثم انحنى ولثم يد والده، وقال له:

ـ لن تكون وحدك، ولن يطول غيابي عنك. وسوف تجد كل أهل «ربوا» إلى جانبك.

كان القمر قد توسّط كبد السماء، وبدا بدراً كاملاً، نقياً، مثل صاج من الفضة على سطح بحيرة زرقاء، حين وضع راجي على أمه شرشفاً ناصع البياض يفوح منه عطر الغار، وقد غطّى وجهها وجسدها بالكامل.

ثم خرج إلى الزقاق ومشى. مرّ بجثة الأفندي ولم يتوقف، ولم يلتفت.

في الوقت نفسه، في تلك الساعة، تماماً، كان المشهد في بيت الأفندي نقيض المشهد الذي في بيت الكابورال.

كانت «هيلا» جالسة في الصالون، منحنية، ورأسها بين يديها. كانت ما تزال مرتدية «التايور» الذي حضرت به حفل التخرّج.

وكان جاناد يذرع الصالون دائراً حول نفسه، محاذراً أن يدوس الزجاج المتناثر، ونتف الصورة الممزقة المبعثرة على الأرض.

كانت تساؤلات كثيرة تدور في ذلك السكون، حين أعطت ساعة الصالون الإشارة التي تسبق دقاتها. كانت تشبه دقات ناقوس كنيسة صغيرة في يوم جنّاز.

وأخذت هيلا تعدّ دقات الساعة بحركة رأسها.

وتوقف جاناد عن الدوران، ونظر إلى الساعة:

ـ إنها العاشرة، لقد تأخر والدي.

كانت العائلة قد عادت من بيروت وشاهدت ما حل في الصالون، فقال «الأفندي» مزمجراً: بنت الكلب.

وعلى الفور أبدل الأفندي ملابسه وخرج مرتدياً بنطلوناً خفيفاً، ومنتعلاً حذاء يستعمله عادة للمشي.

وبعد قليل سأل جاناد أمه:

ـ إلى أين يمكن أن يكون قد ذهب؟

ـ ربما يكون قد ذهب إلى بيت «أبو قوسين» ليستشيره في ما حصل.

وعاد جاناد إلى الدوران في الصالون، ثم ما لبث أن توقف:

ـ يجب ان أذهب إلى بيت «أبو قوسين» .

ـ لا، لا. لا أعتقد أنه سيتأخر بعد. لننتظر قليلاً.

وعادت الساعة ودقّت الحادية عشرة.

ولم تمضِ دقائق حتى سُمِعَ طرق قوي على الباب، فتقدم جاناد مسرعاً. وما إن فتح الباب، حتى فوجىء براجي الطراش منتصباً أمامه.

ــ هذا أنت؟ قال جاناد مستهجناً، ثم تراجع ليدخل راجي.

فما إن وضع راجي قدمه في الصالون، حتى وقع نظره على الحطام المتناثر على الأرض، فتبادر إلى ذهنه أن معركة دارت في ذلك الصالون، وأن أمه كانت شريكة فيها.

ــ ماذا حدث؟ صرخ راجي عالياً.

وقفت هيلا مذعورة، وقد رأت مسدساً في حزامه. أما جاناد فظل هادئاً ينظر إلى راجي. ثم قال له بصوت بارد:

ــ تسأل ماذا حدث وأمك هي التي فعلت كل ذلك؟

فانفجر راجي صارخاً:

ــ لكن، ماذا حدث؟

وأخذ يحدّق في وجه جاناد منتظراً جواباً، فتدخلت هيلا طالبة منه أن يهدأ:

ــ إسمع يا راجي، أمك فعلت كل هذا الذي تراه أمامك.

ــ ولكن لماذا؟ لماذا فعلت أمي ذلك؟ أنا أسأل ماذا حدث؟

ــ هذا ما نسأله نحن أيضاً. قالت هيلا، ثم تابعت:

ــ وصلنا من بيروت نحو الساعة الثامنة، ففوجئنا بما تراه أنت الآن، ولا يزال كل شيء على ما هو. وأفادتنا «ام سامح» بأنها اغتنمت وجود أبريز لتذهب إلى بيت ابنها، ولما عادت اكتشفت ما حدث.

وكأن راجي لم يكن يسمع ما قالته هيلا، فأطلق من جديد صرخته:

ــ ولكن ماذا حدث؟. ما الذي حدث لتفعل أمي ما فعلت؟

فطلع صوت جاناد:

ــ لماذا لا تسأل أمك؟

فأطلق راجي صوتاً مرعباً:

ــ أمي؟. لقد قتلها والدك يا جاناد.

ندّت عن هيلا صرخة رُعب.. ثم انهارت.

أما جاناد فقد بدا جاحظ العينين، ثم صرخ:

ــ ولماذا قتلها؟.

ــ ليتك تستطيع أن تستنطق والدك، لو أنه يستطيع أن ينطق.

ــ ماذا تعني؟.

ــ لقد قتلته.

أجاب راجي، وقد همدت ثورة أعصابه. أما هيلا فقد أطلقت صرخة ثانية.

وطلع صوت جاناد:

ـ قتلت والدي يا راجي؟

ـ قتلت قاتل أمي.

أجاب راجي بهدوء، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه:

ـ أب مقابل أم. جثة مقابل جثة. من الجاني؟

ثم التفت إلى جاناد:

ـ لو لم أبلّغ والدي أني قتلت والدك، لكان قضى بنوبة قلبية.

كان راجي وجاناد واقفين متواجهين عن قرب. وكان كل منهما يحدق في وجه الآخر. أما «هيلا» فقد كانت ترتعش وهي تختلس النظر إلى المسدس المعلق في حزام راجي، فيما كان جاناد مُسبّلاً يديه.

وبحركة بطيئة مدّ راجي يده إلى حزامه وسحب مسدسه، فأطلقت هيلا صرخة مجنونة: لا.

ثم ارتمت على كتفي جاناد لتحميه.

وما لبثت أن استدارت لتجثو أمام راجي. كانت تطلق صوتاً عالياً، وطويلاً، ولم يكن إلّا عويلاً.

فانحنى راجي ليمسك الستّ هيلا من كتفيها برفق. ثم يساعدها

لتنهض وتجلس على مقعدها. وقد ظل واقفاً أمامها حتى هدأت أنفاسها، فوضع مسدسه على طاولة في وسط الصالون.

ثم عاد وأخذ المسدس، لكنه أمسكه من الماسورة، مصوباً الفوهة إلى صدره. وقدمه إلى جاناد.

بيد أن جاناد لم يتحرك، ولم يتفوّه بكلمة. لقد استعار شكل تمثال الشمع.

كانت هيلا تتابع المشهد الجامد بين جاناد وراجي وكأنها تتابع لقطة من فيلم صامت لا يتحرك.

ثم مدّ جاناد يده إلى راجي، وأخذ منه المسدس، فوضعه على «الكونسول» الرخام تحت الخنجر الباقي معلقاً على الجدار.

وحانت من راجي نظرة بليدة إلى الجدار الخالي من صورة الأفندي. ثم لمح على الأرض، بين حطام المرآة، الخنجر الذي استعملته والدته في تمزيق الصورة المرسومة. كذلك رأى مدقة الهاون التي حطمت بها المرآة.

كانت كل تلك الأشياء ما تزال في مكانها على الأرض، ولم يمسّها جاناد، ولا هيلا، حرصاً منهما على بقائها، كما هي، لسلامة التحقيق.

وقال راجي لجاناد:

ـ أنا ووالدي، لنا الآن جثة أمي. وأنت ووالدتك، لكما جثة والدك. فمن الجاني؟

وإذ ظل جاناد ساكتاً كانت هيلا تتعذب بشعورها أنها مذنبة ببراءة وبطيبة قلب، فلولاها لما عادت أبريز إلى بيت «الأفندي».

وكان راجي قد بدا هادئاً حتى الذبول، فقال لجاناد:

ــ أنت تعرف هذا المسدس. إنه مسدس والدي الذي كسبه من الجيش الفرنسي كوسام حرب بعد سقوطه في المعركة، وقد حملوه إلينا برجل واحدة، وكنتَ أنتَ حاضراً يوم سلمه الضابط الفرنسي في بيتنا هذا المسدس مع رتبة كابورال.

هزّ جاناد رأسه مؤكداً. فتابع راجي:

ــ لم يحمل الكابورال سالم الطراش هذا المسدس، فكان من نصيبي. وسكت برهة، ثم قال:

ــ وكان لوالدك نصيب منه.

ولم يعلق جاناد. فاستدرك راجي:

ــ لكن من يعيد إليّ أمي؟

وكاد جاناد يقول: «وأنا من يعيد إليّ أبي؟».

لكن الكلمات علقت على لسانه، فإذا به يقول لراجي:

ــ هناك مصيبتان على الأرض، فلنجعلهما مصيبة واحدة.

فصاح راجي: لا، لا، أبداً، أبداً. هناك قاتل وهناك ضحية. أنا ووالدي أهل الضحية.

وبدا جاناد واجماً.. ثم قال:

ـ اسمع يا راجي.. أمك لن تعود ووالدي لن يعود. أنت وأنا باقيان، هل تريد أن نعيش؟

ـ وما هو المطلوب مني؟

ـ المطلوب أن تسلم نفسك.

ـ وإلى منْ أسلِّم نفسي؟

ـ إلى العدالة.

ـ وهل في هذه البلاد عدالة؟

ـ لدينا قضاء في سلكه قضاة يلتزمون أحكام القانون، ونزاهة الضمير، وجرأة النطق بالعدل. فسلِّم نفسك يا راجي.

ـ وهل أستطيع أن أختار القاضي الذي سوف يحاكمني؟

ـ سلم نفسك أولاً، واترك الأمر لي، وإلا فإنك سوف تظل ملاحقاً طول حياتك.

ـ وأي أمر سأتركه لك؟

ـ أنا سأتكفل نفقات محامين للدفاع عنك.

ـ أنا لست جانياً. أنا لم أقتل والدك، أنا قتلت قاتل أمي، ولم أكن أعرف من قتلت.

ـ هذا سند براءة لك من جرم القتل عمداً، وسوف تكون العدالة إلى جانبك. وإني أتعهد لك بإسقاط الحق الشخصي وعدم الادعاء. بل أكثر من ذلك، أقول لك ما قد يصعب على سواي أن يقوله: لا فائدة لي بالوقوف إلى جانب جثة والدي. إنّ ضميري يدعوني للوقوف إلى جانبك، وإلى جانب والدك. فلا تسقط هذه المبادرة: اذهب وسلِّم نفسك.

من «حارة الأفندي» إلى «المنطرة» مشى راجي في دغشة الفجر ليقرع باب مخفر الدرك، ويسلم نفسه مع مسدسه.

وفي ذلك الوقت، كانت هيلا قد باحت لجاناد بالسرّ الذي أودى بأبريز، ثم بوالده.

□□□

VI

ذات يوم أحد من شهر آب، كانت سيارة «تاكسي» تتسلق التلال المشرفة على بيروت، وعلى مقعدها الخلفي سيدتان تنظر كل منهما من نافذتها إلى الأحراج والهضاب. كانت «مدام أولغا» إلى اليسار، وليديا إلى اليمين. كانت وجهتهما «ربوا»، والجو كان لاهباً.

وإذ شاهدت «أولغا» صليباً مرفوعاً فوق قبة كنيسة على تلة صخرية، هتفت بشبه صلاة، وهي ترسم على وجهها، وعلى صدرها إشارة الصليب بأصابع ثلاث:

ـ ها أنذا الآن أمام كنيسة مشرقيّة لم أرَ مثلها إلّا على قمم جبال اليونان.

كانت السيارة تحاذي حقولاً مثمرة على جانبي الطريق، وكان في الحقول رجال ونساء.

ثم التفتت أولغا إلى ابنتها:

ـ انظري ليديا، ها نحن أمام وجوه مشرقية أراها أقرب إلى الله، ربما لأنها أقرب إلى بيت لحم. انظري إلى هؤلاء الذين وجوههم بلون القمح، يحملون رؤوساً منحنية على الأرض. إني أراها شبيهة برأس يسوع المنحني على جراحه.

وإذ أطلَّت السيارة على تلة تتدرج صخورها الصوّانية من عُلوٍّ شاهق حتى النهر، شاهدت أولغا صخرة تخيلتها الصخرة التي اتخذها بولس الرسول منبراً لمخاطبة أهل أثينا. وتراءت لها كل الصخور التي تحتها أدراجاً للوصول إلى منبر بولس الرسول.

غير أن الدهشة التي أصابت أولغا وليديا كانت حينما شاهدتا بهيماً لونه أغْبَر، وعلى كتفيه خط أسود عريض، فطلبت أولغا من ليديا أن تستعمل براعتها باللغة العربية لتسأل السائق ما اسم هذا البهيم؟.

ورتّبت ليديا السؤال في ذهنها ثم لفظته بالعربية المحكية:

ـ يا أخ شو إسمو هيدا؟ وأشارت إلى البهيم.

فالتفت السائق يساراً، ثم أجاب:

ـ هذا حمار.

ـ «هُمار، هُمار..».

رددت أولغا، ثم طلبت من ليديا أن تقول للسائق بالعربية: «نحن في اليونان عندنا الكثير من هذا «الهُمار».

ولما ترجمت ليديا السؤال إلى العربية قال السائق وهو يبتسم:

ــ «نحن أيضاً عندنا منه الكثير»!

في ذلك اليوم، كانت العريشة فوق «مقعد الليمون» في «حارة الأفندي» مزدهية بأروع موجات توهجها. كانت العناقيد البارقة، بين الأوراق الخضر، قد بدأت تقطر عسلاً بنكهة الحامض.

تحت العريشة كانت هيلا وجاناد ينتظران أولغا وليديا. كانت هيلا ترتدي فستاناً باللون الكحلي الغامق مرقطاً بنقاط بيض صغيرة.

وصلت أولغا باللون الأسود، مراعاة لواجب التعزية، وحين همّت بمعانقة هيلا قالت لها:

ــ هذا الأسود يزيدك روعة ورونقاً يا مدام أولغا.

فقالت أولغا:

ــ لقد لبسني هذا الأسود زمناً، حتى عشقتُه، ثم خرجتُ منه.

فعلقت هيلا:

ــ الموت يمر عابراً، ولا يتوقف. لكنه يترك علامة للتذكير به.

تنهدت أولغا، وعلّقت:

ــ على الأقل أنتِ عرفتِ من قتل زوجكِ، أما أنا فلا أعرف.

فقالت هيلا:

ــ نحن غفرنا لقاتل زوجي.

استهجنت أولغا ما سمعت، وبدت كأنها لا تفهم: «ترى، هل تواطأت هذه السيدة المصرية على قتل زوجها؟». تساءلت في سرها. فهي كانت قد قرأت في صحيفتها الفرنسية التي تصدر في بيروت أن «شاهين آلافاندي» قُتِل برصاص شاب كانت أمه قد قُتلت لتوها. فسألت هيلا إن كان ما قرأته صحيحاً، فاستأذن جاناد والدته ليوضح لأولغا الأمر:

ــ نعم. هذا صحيح، مدام أولغا. والدي قتل والدة ذلك الشاب، فقتل الشاب والدي بعد دقائق آخذاً بثأر أمه.

فقالت أولغا:

ــ عذراً، لا أدّعي أني ضليعة في الحقوق والقوانين. ولكن حين قُتل زوجي «بانوس» أدركتُ، باقتناع تام، أن الجريمة عملية انتقام نفذها قراصنة شيوعيون. لم أكن أحتاج إلى أدلة وأسباب، لأني كنت أعلم أن زوجي قد نال من عدد كبير من هؤلاء. لكن فضولي غير المبرر، يحفزني الآن على التساؤل: «ما هو تقديركم للأسباب التي دفعت والدك لقتل تلك المرأة حتى بادر ابن الضحية إلى قتله؟».

فقال جاناد:

ـ هذا السؤال منطقي، وقد طرحه المحقق العدلي علينا، وقلنا له إن الشاب قال لنا إنه لم يقتل والدي، إنما قتل قاتل والدته، وأنه لم يكن يقصد أحداً سوى القاتل الذي فرّ أمامه هارباً في الظلام، فلحق به وأرداه، ولم يكن القاتل القتيل سوى والدي.

وقال جاناد لأولغا إن المحقق سأله عن تقديره للأسباب التي حملت والده على قتل تلك المرأة والدة الشاب، فأجاب أنه، ووالدته هيلا، أبلغا المحقق أنهما يعتبران الضحية صديقة للعائلة، وأنّها صديقة وفية، وشريفة، وأنهما أعلنا بصراحة أمام المحقق: أياً يكن السبب الدافع للقتل فلا يمكن أن يكون عادلاً، بل لا يمكن أن يستحق أكثر من مجرد عتاب.

بدت أولغا مشدوهة وهي تستمع إلى جاناد، فما استطاعت إلّا أن تقول لـه:

ـ كأنك، يا جاناد، القاضي الذي سيصدر حكماً بالبراءة في دعوى قتل والدك.

فعلق جاناد:

ـ لم نقم دعوى. والدتي وأنا أسقطنا حقنا الشخصي. وزوج الضحية وابنهما أسقطا حقهما في المقابل. والقاضي نظر في الوقائع والأسباب والدوافع، فأصدر حكمه على القاتل بالسجن لأقصر مدة يُجيزها القانون والعدل.

وأردف جاناد:

ـ أعتقد أن الحكم كان عادلاً، بل أنا أعتبر أن والدي كان هو..

ولم يكمل جاناد جملته، فتوقف برهة، ثم قال: والدي كان هو الجاني.

فأغمضت أولغا عينيها، وأخذت تفرك جفونها. لم تجد كلاماً تقوله. كانت تتساءل في سرها إن كانت قد أخطأت بارتداء الثوب الأسود وجاءت إلى «ربوا» للتعزية.

ثم تذكرت رسالة حملتها إلى جاناد من بيروت فأخرجتها من حقيبة يدها وقدمتها إليه، فلم يفضّ الظرف. بل تريّث حتى دلف إلى داخل المنزل بداعي واجبات الضيافة.

كانت رسالة من العم «خوليو» تحمل تاريخ الأول من تموز، وقد وجد فيها جاناد ما كان يتوقعه: بطاقة سفر على باخرة إيطالية (بيروت ـ بوانس آيرس). كما وجد صفحة واحدة فقط بالخط الرديء الذي يتميز به العم وفحواها:

«أُهدي سلامي إلى الجميع، وانتظر وصولك إلى بوانس آيرس بين أيلول وتشرين الأول».

ثم يقول له العم ما مفاده: «لا لزوم لأن تشتري قبعة. فأنا عندي هنا واحدة لك. انتبه إلى نفسك بين الركاب على الباخرة. إنك لن تعرف أصلهم من فصلهم. لا تأمن لأحد

منهم، وعليك أن تتحمّل الزحمة والروائح الكريهة في عنابر النوم. وانتبه إلى أغراضك من اللصوص. وحين تسجل حجزك على الباخرة أكتب لي وبلِّغني قبل سفرك. وحين تصل إلى بور «بوانس آيرس» سأكون في انتظارك. وما عليك إلا أن تنظر لترى قبعة مرفوعة على عصا، ومعها لافتة تحمل اسمك بأحرف كبيرة بالعربية. وأنا سأكون رافعاً اسمك».

طوى جاناد رسالة العم «خوليو» وعاد إلى حيث تجلس أمه مع أولغا وليديا. وكان قد بدا عليه شيء من الارتباك، فهو لم يفاجأ بتذكرة السفر، إنما فوجىء بأن القرار الذي اتخذه هو بملء إرادته قد قرّب موعد استحقاقه. إنه السفر.

وبغتة، طرحت أولغا سؤالاً على «هيلا» من خارج الجو:

ـ من أتى بك من مصر إلى هنا، مدام آلافاندي؟

فوجئت هيلا بالسؤال، فقالت فوراً: أمي.

ـ وهل تقيم أمك معك هنا؟

ـ إنها لا تقيم معي، إنما هي قريبة من هنا.

ـ هل تزورينها وتزورك؟

ـ أنا أزورها كل أسبوع، وفي بعض الصبحيات، وفي مناسبات بعض الأعياد.

ـ وهي، ألا تزورك؟

ـ لا أبداً.

ـ لماذا؟

ـ لأنها لا تستطيع أن تنهض من مكانها.

ـ هل أمك لبنانية؟

ـ لا، إنها مصرية.

ـ وهل كانت متزوجة من لبناني؟

ـ لا، كانت متزوجة والدي المصري السكندراني.

ـ إذاً، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

ـ القدر والنصيب. قالت ذلك هيلا، وقد غشت وجهها ابتسامة حزن. فقالت أولغا:

ـ مدام آلافاندي. إنني أتململ بفضولي. فهل لك أن توضحي لي؟

فوقفت هيلا واستدارت نحو الجنوب:

ـ أمي مدفونة هناك. وأشارت إلى مكان قرب شجرة بريّة.

ـ آسفة مدام آلافاندي. آسفة جداً، قالت أولغا. ثم سألت هيلا إذا كان ممكناً أن ترافقها لزيارة ضريح أمها.

فردّت هيلا بكثير من الامتنان:

ـ في المساء سوف يكون الطقس مناسباً أكثر.

ـ لكننا عائدتان إلى بيروت.

ـ لا، هذا غير ممكن. أنتما هنا في ضيافة الجبل، وغير مسموح لزائر من بيروت أن يعود في يوم واحد.

وعلقت أولغا:

ـ إذا بقيت هنا، فلكي أسمع منك حكاية مجيئك من مصر إلى هذه البقعة الجميلة.

ـ لكن حكايتي ليست ممتعة.

ـ مهما تكن، يهمّني أن أسمعها. هذا إذا أردت.

ـ سوف أكون مهيأة لذلك بعد الغداء.

ومن جديد، في «مقعد الليمون» مع فناجين القهوة والسجائر، رُفعت الكلفة بين السيدتين فطلبت أولغا من هيلا أن تروي حكاية مجيئها من مصر إلى «ربوا».

ـ أتعلمين أولغا؟ إنك تزيحين ستاراً تغفو خلفه طفلة.

أجابت أولغا:

ـ لا أريد أن أثير أحزاناً. يكفيني ما عشت من حُزن.

والحقيقة أن هيلا كانت متلهفة لتروي حكايتها، فنظرت إلى

جاناد، ثم مالت نحو أولغا، واستأذنتها لتتكلم معه بالعربية، فقالت له:

ـ لا أدري السبب الذي يلح على ضيفتنا كي تلحّ عليّ لأروي لها حكايتي. أنت تعرف حكاية زواجنا أنا ووالدك. وتعرف أن جدتك مدفونة هنا. لكنك لا تعرف أصل الحكاية. فهناك الكثير مما أختزنه في صدري منذ اثنتين وعشرين سنة، ولا أظنّ أني سأجد أفضل من هاتين الغريبتين لأتحدث إليهما، وأنت تسمع. والحقيقة أني سأتحدث إليك، وقد تسمع كثيراً مما لا تعرفه. فأتمنّى أن تسمعني، لا كأم، إنما كامرأة تتعرف عليها.».

وأردفت:

ـ إيه رأيك يبْني؟ أحكيلها حكايتي؟

فأومأ برأسه «نعم». وقد رأى أن الفرصة السانحة لن تعود مرة ثانية لوالدته هيلا، فانطلقت تتكلم بالفرنسية:

لم أكن قد تجاوزتُ الخامسة حين جئت إلى هنا مع والدي ووالدتي من الإسكندرية. كان ذلك في صيف العام ١٩١٤. لم نأتِ لنصطاف في ربوع جبل لبنان كما كان يأتي باشاوات وبورجوازيون من مصر. إنما أتينا طلباً لهواء عليل يشفي صدر أمي التي كانت مصابة بداء الرئة. (الداء الذي أصيبت به الطفلة ياسمين)، ولم يكن لدينا عنوان إلّا «ربوا» التي تختبىء في غابة الصنوبر هذه.

والواقع أننا لم نكن من خارج طبقة هؤلاء المصريين الذين يقال عنهم «الأكابر». فقد كان والدي مهندساً تخرّج من جامعة «مونبيليه» في فرنسا. وهو حين عاد إلى الإسكندرية وجد له مكتباً فخماً في بناية ذات طابع عريق مسجلة باسمه. وكان أول ما وجده على مكتبه بطاقة انتساب إلى «نادي الشموع» في المدينة.

كلّ ذلك كان مجرد هدية، مكافأة من جدي لوالدي «الباش مهندس فرج الساطي». وفي تقديري أن بطاقة الانتساب إلى «نادي الشموع» كانت بالنسبة إلى والدي أثمن من المكتب الفخم، فذلك النادي كان عنوان «مجتمع الأكابر»، وكان بين هؤلاء أطباء، ومهندسون ومحامون ورجال أعمال، وصحافيون، وأدباء، وشعراء، بينهم زملاء لهم من «شوام مصر»، كانوا قد وفدوا من لبنان وسورية وفلسطين منذ أواخر القرن التاسع عشر.

وفي ذلك النادي تعرّف والدي الباش المهندس إلى طبيب، وعُقدت بينهما صداقة قادت إلى التعارف بين والدي وشقيقة الطبيب، وتطور التعارف إلى حب، ثم إلى زواج، كنت أنا ثمرته الأولى.

وتوقفت هيلا لتتحسّر، ثم تابعت: لم تمرّ سنوات قليلة حتى أصيبت والدتي «حليمة» بذلك الداء الذي يصيب فقراء المصريين، ولكنه يصيب أيضاً بعض الأغنياء، ومنهم كانت والدتي. . ولقد عجز الطب في مصر عن شفائها، وهي شقيقة الطبيب الذي يعرف أين يمكن أن يكون دواؤها الشافي. وكانت

غابات الصنوبر في جبال لبنان وصفة أطباء مصر للمصابين القادرين على السفر. وهكذا جئت إلى «ربوا» مع والدي ووالدتي. ومع أنني كنت صغيرة فقد سحرتني غابة صنوبر «ربوا» والفندق الصغير الذي نزلنا فيه، واسمه «فندق الهرم». ولا أدري كيف تجرأ صاحب ذلك النزل، المؤلف من ست غرف فقط، على أن يسميه «فندق الهرم». لكنه لم يكن مخطئاً. فالبناء يعود إلى منتصف القرن التاسع عشر، وهو متوج بسقف قرميد على شكل هرم، فلماذا لا يكون «فندق الهرم؟»

وذات صباح، ونحن على شرفة الفندق، جاء من يتعرف علينا، ويرحّب بنا. قال الزائر الذي كان بالزي القروي لوالدي: «السيدة زوجتك قريبتنا». ثم عرّف عن نفسه: «مسعود الأفندي»، وتوجه إلى والدتي:

ـ قيل لي أنكِ من عائلة «شاكر».

ـ «نعم، أجابت أمي، فقال الزائر: لا بد أن عائلتكم من أصل لبناني، ومن بلدتنا «ربوا» هذه، فهنا أيضاً عائلة «شاكر».

ورغم مرضها ظلت والدتي محافظة على سرعة الخاطر والظُرف لديها، فقالت للزائر: ولماذا لا تكونون أنتم من أصل مصري، ومن الإسكندرية؟

فعلّق الزائر: على أي حال أهلاً وسهلاً بكم في بلدتنا، وبيوتنا مفتوحة لكم. ثم دعانا إلى الغداء إلى مائدته، فاحتفت بنا عائلته الصغيرة.

كانت والدتي تنتعش نهاراً، وتنتكس ليلاً، وعند الصباح خصوصاً. وما كانت لتهنأ إلا في ظلّ صنوبرة باسقة تلتقط الهواء وتحوله نسيماً يداوي صدر الأم التي يضنيها السقم.

وما لم نكن نحسب له حساباً حصل. لقد عدنا إلى الإسكندرية من دون أمي، فقد استقرت هنا».

قالت هيلا ذلك، وأشارت نحو قبر أمها تحت الشجرة البرية ثم مسحت دموعها.

وتدخلت «أولغا» لتكسر وطأة الحزن الذي دهم الجلسة:

ـ لا بدّ أن والدتك رحلت قبل نحو ثلاث وثلاثين سنة، فدعينا نتذكر الفرح. كيف وقعتِ في حب زوجك آلافاندي؟

وتدخّل جاناد ليؤيد كلام أولغا، وخاطب والدته باسمها:

ـ هيلا، إحكي لنا قصة حبك مع والدي. لقد سبق لجدتي جوهر أن حكت لي قصة حبها مع جدي مسعود.

ولم تكن هيلا تنتظر غير هذا الطلب فتابعت:

بعد حوالى أحد عشر عاماً على وفاة أمي ودفنها هنا عدنا إلى «ربوا» وإلى «فندق الهرم» عينه.

كنا خمسة: والدي مع زوجة جديدة، وشقيق جديد لي، وشقيقة عمرها خمس سنوات. وفي اليوم التالي لوصولنا توجهنا جميعنا إلى قبر والدتي. كان والدي قد حمل معه من الإسكندرية قطعة رخام كُتب عليها:

«هنا ترقد حليمة شاكر الساطي (١٨٨٧ ـ ١٩١٤) ». وضعنا الرخامة على القبر وأشعلنا شموعاً، ثم أدينا صلاة. لم نكن نعلم أن قبر والدتي بات معروفاً في «ربوا» ويُشار إليه بأنه «قبر المصرية».

بعد زيارة قبر أمي كان علينا ان نزور بيت الأفندي لتقديم واجب الشكر لرب البيت، وقد علمتُ متأخرة أنه هو الذي تبرّع بفسحة من أرضه لتكون مثوى لأمي، إذ استحال على والدي نقل جثمانها من لبنان إلى الإسكندرية، لأنّ الحرب العالمية الأولى كانت قد اندلعت.

في البدء لم يعرفنا مسعود الأفندي. لكنه خف لاستقبالنا ببشاشة أهل الجبال.

وإذ قدّم والدي نفسه معرّفاً عنه وعن زوجته الجديدة، ترحّم الأفندي على والدتي ثم سأل عن البنت الصغيرة التي اسمها «هيلا»، فأشار والدي إليّ. ولم يتوان الأفندي عن تطويق عنقي بذراعه قائلاً لي:

ـ متى صِرتِ صبية وحلوة إلى هذا الحدّ؟

والحقيقة إنني فرحت بذلك، إلا أن والدي بادر إلى مخاطبة مسعود أفندي، قائلاً:

ـ لقد جئنا من مصر لنحيي ذكرى المرحومة «حليمة»، ولنقدم إليكم شكرنا وعرفاننا بجميلكم، فأنت الذي جعلت لحليمة مقام ذكرى في هذه البلدة الجميلة.

بدت «هيلا» حزينة وهي تلفظ الكلمات الأخيرة. ثم التفتت إلى أولغا وأكملت: «. . وفي تلك اللحظات اقتحم فارس على صهوة جواده باحة بيت الأفندي وتقدم حتى اقترب من مجلسنا، ثم ترجّل تاركاً الجواد يصهل وكان قد ربط زمامه بشجرة، فعرّف عنه مسعود الأفندي قائلاً: ابني «شاهين.»

وتابعت هيلا: لم ألتفت إلى الفارس، كنت أركّز نظراتي على الحصان الأبيض الذي يصهل. وقد لاحظ الفارس ذلك عندما صافحني، فيما كان والده يُعرّفه عنا بأسمائنا. وقد قال له وهو يضع يده على كتفي:

«هل تذكرت الصغيرة هيلا؟ لقد كبرت. صارت عروساً».

لم أحفل بقوله «عروساً». ففي مصر يجاملون الفتاة بمخاطبتها «يا عروسة». ثم إنني لم أتذكّر أني كنت قد رأيت ذلك الولد «شاهين» عندما جئت طفلة إلى «ربوا». والحقيقة أني كنت في تلك اللحظات أتأمل الحصان الأبيض، وقد باغتني «شاهين»، ولم أكن لأنتبه أنه كان يتأملني ثمّ سألني:

ـ هل تحبين الخيل؟

ـ أموت فيها. . لكني أخاف اعتلاءها.

قلت ذلك بعفوية لا تخلو من الدلع، فما كان من «شاهين» إلّا أن مدَّ يده إليّ، قائلاً: تعالي. .

تطلعت إلى والدي أسأله بطرف عيني، فسمعته يقول لي: جربي.

والتفتّ إلى زوجة والدي فرأيتها تغمزني مشجعة. وتدخّل والد «شاهين» ليقول لي: «يلا يا عروس».

كانت يد «شاهين» ما تزال ممدودة نحوي، فأعطيته يدي، ومشيت معه نحو الحصان.

ـ مستعدة؟

ـ نعم، قلتها بكبرياء، لكن قلبي كان يرتجف. فقال لي:

ـ لا تخافي. سوف أكون إلى جانبك.

ولم أشعر إلا وقد أمسكني من ردفيّ، ثم رفعني مثل دمية، لأجد نفسي على صهوة الحصان. كان قد فات الأوان لأنتبه أن فستاني الصيفي رقيق وقصير، وقد انكشفت ساقاي حتى الركبة.

وسألني «شاهين»: هل أنت خائفة؟

ـ أبداً، أبداً. قلت وأنا أشدّ كتفيّ إلى فوق مثل فارسة. فما كان منه إلّا أن وضع يده على ركبتي ليطمئنني بأني في أمان. وحين أمسك بلجام الحصان أطبق قبضته اليسرى على ساقي ليجعلني أكثر أماناً. وكنت قد تمسّكت بمقدمة السرج. ثم أصدر صوتاً خفيفاً طلع من بين أسنانه، فتحرك الحصان

ومشى. . ومشى «شاهين» إلى جانبه متشبثاً بساقي ليحميني من السقوط، والحقيقة أني لم أكن خائفة.

وبدلاً من الاكتفاء بدورة واحدة حول حارة الأفندي، قمنا بأربع دورات.

ثم صمتت هيلا، حتى قالت: «لقد فاز الفارس وسقطت الفارسة».

ـ إنها بداية ممتعة. قالت أولغا.

خفضت هيلا عينيها وهي تسترق النظر إلى جاناد الذي كان يستمع مطرقاً. لكنه لم يملك إلّا أن يبتسم.

وعادت أولغا تقول لهيلا:

ـ لا تقولي لي أنك عشقت الأفندي من أول نظرة.

ـ لا، لقد عشقته من أول لمسة!

وضحكت هيلا، فصفقت لها أولغا ابتهاجاً بظرفها، وكان يمكن لهيلا أن تتوقف عند هذا الحدّ، لكنها مضت إلى يوم الاحتفال بعرسها:

في ذلك اليوم كنت أنتظر على شرفة «فندق الهرم». كان حولي والدي وزوجته وشقيقي وشقيقتي. وكنا قد أتينا من الإسكندرية قبل أسبوع. وكانت معنا على الشرفة «مجدلا» زوجة «أبو قوسين»، ولطيفة زوجة صاحب الفندق وابنتها.

كنت أرفل في فستان العرس الأبيض الفضفاض وأتألق بالطرحة العالية. لكننا كنا غرباء. ننتظر ولا نعرف من، وماذا ننتظر، فالزفة اللبنانية الجبلية غير الزفة المصرية السكندرانية. كانت زوجة أبي نشوانة بالفرح. ربما أنا وحدي كنت أعرف لماذا هي نشوانة، فهي سوف تعود إلى مصر من دوني.

ومن الشرفة سمعنا صهيل خيول. أطلّت مجدلا وألقت نظرة، ثم قالت مبتهجة: وصل «أبو كايد» ومعه مُهرة.

لم نكن نعرف «أبو كايد» ولم نسمع عنه من قبل. وقفنا جميعاً على حافة الشرفة لنرى رجلاً هائل المظهر باللباس العربي التقليدي: كوفية بيضاء وعقال أسود، وعباءة سوداء لمّاعة.

كان «أبو كايد» صديقاً لعائلة الأفندي، وهو من أهل المقلب الشرقي، خلف الجبل، من قرية تربض على سفح يلامس سهل البقاع. وكان معروفاً في «ربوا» بأنه رجل شهم ذو خصال من طبائع العشائر.

ترجّل «أبو كايد» عن فرسه وربط زمامها بشجرة صنوبر. وكان فارس آخر يتبعه قد ترجّل عن حصانه، وكان يقود خلفه مهرة حمراء.

كانت مهرة جميلة. وكانت هي أيضاً كعروس في أبهى حلة. عليها سرج يليق بالفرسان المنتصرين، وتتدلى من أطرافه ضفائر رفيعة مجدولة من خيوط ملونة تشبه ضفائر الصبايا.

كانت المهرة الحمراء ذات جبين أبيض بشكل قلب، ولذلك سميت «الصبحة». وكان جبينها مزيناً بعقد، في وسطه خرزة زرقاء.

أخذت المهرة تصهل في ظلال الصنوبرة، كأنها تنادي فارساً لم يمتطِ صهوتها بعد. وكانت «مجدلا» زوجة «أبو قوسين» قد خفّت لاستقبال «أبو كايد»، ودعته للصعود إلى شرفة الفندق، حيث أنا العروس وأهلي. لكن «أبو كايد» اعتذر بأدب جمّ، قال إنه سوف يبقى واقفاً في مكانه، ممسكاً بزمام المهرة حتى يصل العريس.

وإذ عادت «مجدلا» لتنضم إلينا على الشرفة راحت تشرح لنا أن ما نراه هو من تقاليد عشائر السهل. إنهم يقدّمون أغلى هداياهم، يداً بيد. ولم يكن لديهم ما هو أغلى من المهارى.

ثم بدأنا نسمع حداء يأتي من أطراف الغابة، يرافقه نغم ساحر يشبه نغم ناي صعيدي على حافة ترعة.

وهتفت «مجدلا» مزغردة: وصل العريس وأهله يتقدمهم والده مسعود أفندي.

ولم يطل الانتظار حتى ظهر موكب العريس يتقدمه لاعبو «السيف والترس». لم أرَ من قبل مثل تلك المبارزات الحافلة بالرجولة والرشاقة. كنت قد شهدتُ أفلام كرّ وفرّ في البوادي. ورأيت سيوفاً بارقة يسيل على جوانبها الدم. أما هذه السيوف فقد رأيتها باسمة. وقد لاحظت أن فرسان تلك اللعبة يبرعون

في كرّهم وفرهم، مأخوذين بعيون الصبايا، وهنّ يطلقن الزغاريد نشوانات بالفرح.

كنتُ قد نزلت من شرفة الفندق، إلى غابة الصنوبر، مُتأبطة ذراع والدي. فتقدم «شاهين»، ووقف أمامي، فتركت ذراع والدي وتمسكت بذراعه.

وما لبث «أبو كايد» أن تقدم، وخلفه المهرة، فسلّم زمامها إلى عريسي.

نظرتُ إلى عيني المهرة، فرأيتها تنظر إليّ. ولا أدري لماذا رأيتها تهمس لي بعينيها كلاماً خلت أني أسمعه: «أنتِ وأنا، سواء في هذا العرس!».

وما هي إلا لحظات حتى أمسكني «شاهين» من ردفيَّ، ورفعني مثل دُمية على صهوة المهرة الحمراء، ثم قبض على زمامها تحت عنقها، ومشى بي معها إلى هذا البيت.

وإذ أطرقت هيلا صامتة. التفت جاناد إلى أولغا وغمزها بإشارة نحو والدته، ففهمت أولغا أن لدى «هيلا»، بعد، الكثير مما تحبسه في صدرها.

والواقع أنها كانت قد كشفت عن الجانب الجميل من بداية زواجها. وبقي الجانب الآخر.

ــ وماذا بعد يا هيلا، كيف كانت سهرة العرس؟ سألتها أولغا.

فلم ترفع هيلا رأسها إلا لتنظر إلى جاناد، فقال لها بالعربية:

ـ لديك الآن صديقة نادرة أتتكِ من حيث لا تنتظرين، فخففي عنك أثقال ما تكتمين. تكلمي.

ثم اعتذر من أولغا وليديا لمخاطبة أمه بالعربية.

وكررت أولغا: وماذا بعد يا هيلا؟ كيف كانت سهرة العرس؟

وكانت هيلا تنتظر تكرار السؤال، فتابعت:

كانت سهرة رائعة. وأنا وجدت نفسي في جوّ لبناني ـ مصري ـ أوروبي. ففي ذلك الفندق الشهير في أعالي الجبل كانت لنا غرفة وصالون صغير. وخلتُ، ونحن إلى طاولة العشاء، أنني جالسة في صالة فندق «لوكريّون» الباريسي. أنا لا أعرف ذلك الفندق. لكنّ والدي كان قد حدّثني عن عراقته.

كنا، «شاهين» وأنا، في ملابس السهرة الرسمية. أنا كنت متباهية بأناقتي، أما «شاهين» فكان مسربلاً. ولا أنسى كيف حاولت أن أدفعه إلى حلبة الرقص كما لو أني أدفع تيساً إلى الجزّار!

ضحكت أولغا وليديا، في حين بدا الامتعاض على وجه جاناد. لكن هيلا رمقته بنظرة تسامح، ثم تابعت:

ـ لم نكن وحدنا العروسين في الفندق. ولم يكن من الصعب معرفة العرسان والعرائس الآخرين. فكأننا كنا تلك الليلة في

حفل عرس جماعي، ذلك أن الصيف في الجبال هو «موسم الأفراح». وفي ذلك الفندق كان يلتقي من يسمونهم «علية القوم»، وهم من الموسرين، من كبار التجار، ومن أصحاب الألقاب المرهقين بأكلاف ألقابهم.

وقد لاحظنا أن بعض الساهرين، وبينهم عرسان، كانوا يتوجهون نحو نهاية رواق مميز، فسرنا معهم. وإذا بنا في قاعة «الروليت». أنا كنت أسمع من والدي عن «الروليت» في «نادي الشموع» في الاسكندرية. أما «شاهين»، فلم يكن يسمع تلك الكلمة. قلت له إن هنا لعبة حظ يسمّونها «روليت». فلنجرِّب حظنا كما يفعل غيرنا من العرسان.

ولقد انقاد إليَّ طائعاً، حائراً، مرتبكاً. كانت اللعبة سهلة. سألته أي رقم تختار؟ ففكر قليلاً، ثم اختارالرقم ١٣. وأدركت فوراً أنه لا يفقه مطلقاً المعنى الشائع لذلك الرقم. أما أنا فاخترت الرقم ١١.

وكان أن ربح هو، وخسرت أنا من الجولة الأولى، ولم يعد بإمكاني سحبه من قاعة «الروليت»، فراح يختار الأرقام، ويلعب، ويربح..

وفي ساعة متأخرة وقفنا عند باب غرفتنا، فقال لي بفرح عظيم: حظّي طيّب.

ووجدت نفسي أقول أما أنا فحظي بائس!

لا أدري كيف انزلقت على لساني تلك الكلمات وأنا على عتبة فرح عمري.

وتوقفت هيلا مطرقة لثوان، ثم رفعت رأسها لترسم على وجهها ابتسامة ذابلة تكشف بعض ما تخفي. . فقالت لها أولغا:

ـ إحكي يا هيلا، إحكي. كلانا، أنتِ وأنا، مرت في مأساة، وإن اختلفت الوقائع والأسباب. أفصحي، فلا يفيدنا إلا البوح والنسيان.

ونظرت هيلا إلى جاناد فخفض عينيه إيجاباً، وهي لم تكن تريد أكثر من ذلك فتابعت:

بعد تلك الليلة توقف عمري. لم أكن أعلم أني انفصلت عن العالم الذي ولدت ونشأت فيه. اكتشفت أنني غريبة منفية إلى جنة صغيرة خالية من الإنس. لم أكن أعلم أني محكومة بعقوبة العزل، والوحدة، والقسوة.

وأقول لكم بصدق إنني صاحبتُ المهرة «الصبحة». كنت أتفقدها كل صباح في الإسطبل، قبل أن يأتي «شاهين» ليمتطيها إلى حافة بركة مياه قريبة من هنا لترتوي، ثم يربط زمامها بذراع مقعد خشبي مثبت بالأرض، فيأتي عساف ويغسلها ثم يتركها في حمامها الشمسي، قبل أن تعود إلى مربطها وإلى معلفها في الإسطبل.

أنا أيضاً لم تكن لي فسحة يومية إلا بين البيت والبِرْكة حيث

كنت أحادث «الصبحة». كنت أستمع إلى همسها الدائم لي بعينيها، فيخيّل إليّ أنها تقول لي: «أنتِ وأنا، سواء».

لقد كنا حقيقة، «الصبحة» وأنا، سواء في الخواء، والملل. تجمعنا الوحدة، ومتعة الشبع، طعاماً وماءً. ثمّة متعة ثانية كانت لي وحدي، وكانت الصبحة محرومة منها. بيد أني بدأت أمقت المتعة الثانية منذ بدء حملي بجاناد.

نادراً ما كان يتبدل نمط حياتي، إلّا في مناسبات طارئة، ونادراً ما كانت تأتي المناسبات لي بقبس، ولو ضئيلاً، من الفرح والسعادة. ففي حين كنت أتهيأ أنا لملاقاة «الصبحة» قرب البركة، تحت أشجار الحور، ربيعاً وصيفاً، يكون «شاهين» قد تهيأ لاستقبال ضيوفه في الطابق الأول.

كان يرتدي لكل يوم بدلة، ويأخذ وقتاً في تنسيق شاربيه. ثم يتدثر بعباءة سوداء، أو حمراء، ويحمل مسبحته ويتصدر البهو، وإلى جانبه طاولة صغيرة، من الستيل الممتاز. وعلى تلك الطاولة يضع علبة سجائر ذات أعقاب مذهّبة. وهو لم يكن يُدخِّن.

حيثُ يجلس مُتصدّراً البهو، كان يعدّ حبّات مسبحته بأصابع يده اليُمنى، وبأصابع يده اليسرى يمسِّد شاربيه. كانت حبات مسبحته تحدث صوتاً ثقيل الوطأة. فكل حبة كانت تسقط أحسّها كسقوط نقطة دلف على صفيحة تنك فارغة فوق رأسي.

أياماً كان يجلس وحيداً، أربع أو خمس ساعات، في البهو،

ينتظر ضيفاً. ولم يكن يأتي أحد. ولم يكن يشعر بضجر. وحين يدقّ ناقوس الجوع في بطنه يُلملِمْ أطراف عباءته، ويتنحنح. ثم يقوم إلى الغداء أو العشاء.

صديقاتي في «ربوا» كان عددهنّ قليلاً. وعندما كانت إحداهن تأتي لزيارتي، فإنها تفضل أن لا يكون «شاهين» موجوداً في المنزل. وحيث إنه دائماً موجود، فإن الزائرة كانت تتمنّى عليّ ألاّ يُجالسنا. وقد صارحتني إحداهنّ مرة، فقالت: إن «عينه فارغة».

كان «شاهين» يعيش حياته، وأنا كنت أعيش حياتي. وكانت «الصبحة» رفيقة وحدتي ومؤنستي، أحدّثها وأسمع همسها.

ثم بدأت أقرأ لها. كنت أذهب كل يوم إليها حاملة كتاباً جديداً. كانت مكتبتي الصغيرة تحتوي مختارات قليلة من كنوز مكتبة الإسكندرية.

كنت أجلس تحت شجرة حور، عند البرْكة، على مقعد خشبيّ مجاور للمقعد الذي جعله «شاهين» مربط «الصبحة». كان لجامها دائماً معقوداً بذلك المقعد. وما إن كنت أقترب منها حتى تنتفض مطلقة صهيلها المدوّي. ولم أكن أملك ما يخفف قيد أسرها إلا أن أُمرِّر أصابعي على عنقها الأملس، الأنعم من الحرير، ثم أُلامِسَ القلب الأبيض على جبهتها، فتصدر نخيراً عالياً، ثم تستكين وتذبّل عينيها الواسعتين، ويخيل إليّ أنها تنتظر ما سوف أتلو عليها من جديد.

لقد أنشدتُ لها عشرات القصائد من عيون شعر الشوق والجنون في خواء القصور، ورويتُ لها روائع الأدب والخيال خلف أسوار جنائن الحرمان. وكم قلت لها: أنت وأنا، يا صديقتي، شريكتان في الأسر.

قرأتُ لصديقتي «الصبحة» تواريخ الأمم وحضاراتها. أسمعتها «فولتير» و«لامارتين» و«راسّين». وراجعت لها ثورة فرنسا على القهر والاستعباد. وتلوتُ عليها خطاب «ميرابو» وأنا أرفع صوتي على مداه.

وقرأتُ لها كتب «قاسم أمين» و«جبران خليل جبران» و«مي زيادة».

لقد أمضيت الأشهر التسعة الأولى من زواجنا برفقة «الصبحة». كنت سعيدة بحملي الأول. وكنت أنتظر جاناد. كنت متأكدة من أنه آتٍ، ولكنني لم أكن أتوقع أن يكون بمثل هذا اللطف والذكاء.

قالت هيلا ذلك، ثم نظرت إلى جاناد، فرأته يبتسم لحنكنتها ودهائها. فأكملت:

«ومع ولادة جاناد اكتفيت به رفيق حياة. نسيت أهلي الذين لم يبق منهم إلا والدي. لكني لم أنسَ مصر ولا الإسكندرية».

ثم استدركت وهي تتطلّع إلى جاناد: لا بدّ أن أزور الإسكندرية بعد أن يسافر جاناد.

وإذ التقط جاناد الإشارة، فهم أن والدته لم تعد تمانع سفره، وأنها لن تبقى وحيدة في"حارة الأفندي».

وفيما ساد الصمت قالت أولغا:

ـ هيلا. إننا نراك الآن أمام أنظارنا. وأستطيع أن أتخيلك كيف كنتِ قبل اثنتين وعشرين سنة، ولا أظن أنك كنت أجمل مما أنت الآن.

فقاطعتها هيلا مقدّرة لطفها، ثم أكملت أولغا:

ـ لكنك لم تقولي لنا ماذا حدث في ما بعد للمُهرة «الصبحة»؟

ـ لقد انتحرت.

قالت هيلا ذلك، وكأنها كانت تنتظر مسبقاً ذلك السؤال.

وحدها «ليديا» شهقت حين سمعت جواب هيلا.

عادت أولغا تسأل:

ـ كيف لمهرة أن تنتحر؟

ـ ومن قال لك إن المهارى العذارى لا تنتحر؟

ـ لكن كيف؟

بلعت هيلا ريقها أكثر من مرة، وتطلّعت جنوباً: هناك، على مسافة صف من أشجار الحور، كانت برْكة المياه. وبالقرب من

حافة البركة، كان المقعد الخشبي المثبت من الجانبين بذراعين من الحديد، لكل منهما رأس مُدبّب، وبذراع ذلك المقعد كان «شاهين» يعقد زمام المهرة.

وذات صباح كانت المُهرة قد ارتوت ماءً بعدما شبعت شعيراً، وكانت قد خرجت للتوّ من حمامها، فأخذت تمارس رجفتها المعتادة لتنفض عن جسدها ما علق به من ماء. كانت تلوّح بذيلها السابل الشعر، الممشّط على الموضة التي أخذتها البنات، وسمّيت «ذيل الفرس».

كانت «الصبحة» الحمراء، في ذلك الصباح، عروساً تلمع في الشمس. ولعل سهول الشمس التي ولدت وترعرعت في ربوعها قد مرت في خيالها. ولعلها تذكرت كيف كانت حرة، طليقة، ترمح في السهول مثل سنونو الربيع. ترعى أخضر الروابي، وتشرب ماء السواقي. تلاعب ظلها وتطلق صهيلها إلى السماء.

في ذلك الصباح كان «شاهين» عائداً على حصانه من حقل قريب، وهو كان يقصد بركة الماء ليروي «النمرود». وهذا اسم حصانه، أو لقبه.

كان «النمرود» يرمح من بُعد، في خطّ مُتعرّج بين أشجار الحور، وما إن رأته «الصبحة» حتى بدأت تطلق صهيلها العالي.

لم تكن المرة الأولى التي تلتقي «النمرود». فهما يبيتان معاً في إسطبل واحد، لكنهما قليلاً ما يتقاربان.

ماذا دهى «شاهين» في ذلك الصباح ليشدّ رأس «النمرود» نحو «الصبحة»؟ هذا ما لم يكن له سبب معروف. قالت هيلا وأكملت:

وكما لو أنهما صديقان، على معرفة وحبّ، اقترب «النمرود» من «الصبحة»، وراحا يتبادلان الشوق بالشمشمة. ثم تحول الشوق وشوشات، وتطور إلى ما يشبه العناق بين حبيبين. فما كان من «شاهين» إلا أن شدّ زمام «النمرود»، بقوة، فتراجع إلى الخلف، ثم أطلق صهيلاً صاخباً وقد رفع قائمتيه الأماميتين إلى فوق.

ولم تكن «الصبحة» مستكينة أو خجولة، أبداً. فهي أيضاً أخذت تشبّ في الهواء مطلقة صهيلاً صاخباً، كأنه الجهر بالظلم والقهر. لكنها كانت مقيدة بزمامها المعقود بذراع المقعد.

كادت «الصبحة» تقتلع المقعد من مكانه وهي تشدّ لجامها بكل ما في عنقها من قوة. لكن المقعد كان مُثبتاً بالأرض. ولجامها كان متيناً.

وكأنها تتلو قصيدة، تابعت هيلا وصف اللقاء العاصف بالشوق بين «النمرود» و«الصبحة» فقالت:

كان «شاهين» مستمتعاً بمشهد جنون الغريزة بين جواد ومهرة في عز ربيعهما. لكن ما هي إلّا ثوان حتى كاد «النمرود» يلقي فارسه أرضاً. اذ هو عاد وشبّ رافعاً قائمتيه الأماميّتين عالياً، مطلقاً صهيلاً مُدوياً.

ومثله كانت «الصبحة»، وقد تقاربا، لكن ظلّ كل منهما مقيّداً بزمامه. زمام النمرود في يد «شاهين»، وزمامِ «الصبحة» معقود بذراع المقعد الخشبي.

صهيل مخيف، وقوائم أربع تتحرك في الهواء، وتؤدي ما يشبه رقصة تعبيرية.

قالت هيلا ذلك، وقد شحّ صوتها. وبالكاد استطاعت أن تلفظ كلماتها. . ثم سكتت. وسكت الجميع.

واحتاجت إلى بعض الوقت، لتهيىء جملة أدبية تقولها في وصف انتحار المهرة، فقالت: وإذ بلغ جنون الغريزة الذروة شبّت المهرة من جديد. ثم هبطت على ذراع المقعد الخشبي، فانغرز الرأس المُدبَّبِ في بطنها.

هكذا انتحرت «الصبحة». انتحرت بكبرياء وعظمة. انتحرت في ذروة شوقها كمهرة بكر. وكان انتحارها جنوناً رائعاً. كانت قد أطلقت صهيلاً مرعباً حين بُقِرَ بطنها، فقطعت زمامها. كسرت قيدها، وانطلقت حرة. وراحت تعدو بأقصى سرعتها ونشوتها، كأنها استعادت السهول، والمدى، والريح. .

استمرت تعدو نحو مئتي متر ثم بدأت سرعتها تخف.

ثم تباطأت، وتباطأت حتى تلاشت. فتوقفت.

ثم أسقطت أحشاءها على الأرض، وهي واقفة.

. . .ثم هوت جاثمة. .

. . . ثم انقلبت على جانبها الأيسر، وقد مدَّت رأسها مدى عنقها.

وتركت عينيها مفتوحتين. .

ونظرت في عينيها، وقرأت فيهما همسها تقول لي:

«أنتِ، وأنا، يا صديقتي، أسيرتان. لكن لا تنتحري».

□□□

VII

كانت الأشجار الدهرية حانية، من فوق، على «حارة الأفندي»، وقد بدأت تفرط جدائلها وتنثرها أوراقاً صفراء، فتطير كفراشات هائمة يغزلها هواء ناشف. إنه الخريف في الجبل.

خلف باب الصالون المفتوح على «مقعد الليمون» كانت هناك ثلاث حقائب. كان جاناد جالساً على كنبة قبالة الساعة الكبيرة. وكانت والدته تجلس إلى جانبه، وذراعها حول عنقه. قال لها:

ـ يجب أن نتحرك ماما، فموعدنا الساعة الثانية على الميناء.

ـ هل تتصور كيف سأكون وحيدة؟

ـ لو لم تكن «ام سامح» هنا لعدلتُ عن السفر. ولو أن والدي رحل قبل وصول رسالة العم خوليو، لما فكرت في السفر.

وأردف: لكنني عائد. لن أتحول مهاجراً.

ضغطت هيلا على كتفه حتى استدار نحوها.

ـ اسمع يبني، يا حبيبي، آن لي أن أخرج من أسري. يجب أن أصارحك. لقد عشت ربيع عمري لأجلك، وبوجودك كنت سعيدة بقيدي وبأسري. كنت أماً، ولم أكن زوجة. لم أكن امرأة.

ولم تدعه يتكلم، فقالت:

ـ سوف أعود إلى بلادي وأهلي. وعندما تعود أنت أعود.

وأدرك جاناد فوراً أن والدته لم تتخذ قرارها فجأة. إنما كانت تحتفظ به منذ مصرع والده لتعلنه في اللحظة المناسبة. وقد انتظرتْ حتى ساعة سفره. فقال لها، من دون أدنى تردد: معك كل الحق.

ثم قام من مكانه إلى الباب، وتطلّع إلى الخارج.

كانت ريح قد بدأت تهبّ من الوادي مرسلة صفيراً متواصلاً. ورأى سُحُباً داكنة مسرعة، مصحوبة بالرذاذ.

وبنظرة على أشجار الحور عرف سرعة الريح. كانت العصافير الصيفية المتخلفة عن السفر جنوباً تطير نحو غابة السنديان لتحتمي في العباب، فيما طائر القاق الأسود يتشبّث بطرف أعلى غصن في قمة شجرة الجوز. كان في ذروة لذته باللهو والعناد. يتمرجح بغصن الجوز العاري، صعوداً، وهبوطاً، لا هو يُفلت الغصن من مخالبه، ولا الغصن ينكسر.

ظلّ جاناد واقفاً يتأمل مشهد الطائر الأسود المعاند في وجه العاصفة.

«ترى، هل هذا درس في الصمود أمام العواصف؟ أم هو دعوة لمعاندة الواقع؟». تساءل جاناد وهو لا يزال ينظر إلى طائر القاق المتشبث بأعلى غصن في شجرة الجوز.

ـ يجب أن نمشي يبني، قالت هيلا.

وبعد دقائق غادرت السيارة السوداء «حارة الأفندي» مخلّفة فيها «ام سامح» وعساف.

على محطة الميناء كانت أولغا وليديا بالانتظار، وكان أيضاً وكيل السفريات «سيمون» اليوناني:

ـ «سينيور آلافاندي، هذه تذكرتك إلى «بوانس آيرس». موعد إقلاع باخرتك الساعة الرابعة بعد الظهر». قال سيمون، ثم تحوّل نحو هيلا:

ـ مدام آلافاندي. هذه تذكرتك إلى الإسكندرية. موعد إقلاع باخرتك غداً الخامسة بعد الظهر.

ـ سينيور آلافاندي، سوف نفتقدك كل يوم في الغرفة رقم (١٧).. قالت أولغا مُودِّعة جاناد حين تهيأ للتوجّه إلى الباخرة.

أما ليديا فقد طوّقته بذراعيها معانقة، ولم تستطع التفوه بكلمة.

ـ «ألا تستطيع أن تأخذني معك يبني؟» قالت هيلا، فضحك جاناد مغالباً عاطفته، ووضع راحتيه على خديها:

ـ ما زلت طفلة، أيتها الأم الشقية الفاضلة. ثم انحنى وقبَّلَ يدها فغمرت رأسه بذراعيها..

وحين ابتعد بضع خطوات استدار نحوها، فلم تقوَ على الكلام. اكتفت بأن وضعت يدها على قلبها. أما هو فقال لها وهو يُلوِّح بيده:

ـ سوف أعود لأراكِ.

فتحت كفها الأيسر، وأشارت له كما لو أنها تكتب شيئاً على راحة يدها بمعنى: أكتب لي..

مثل خوار ثور هرم انطلق بوق الباخرة. كان ذلك إيذاناً باقتراب لحظة الإبحار. وكان على مسافري الدرجة الأولى أن يتقدموا أولاً. فتقدم جاناد في دفعة تضم عشرة مسافرين، وقد عبر خمسة منهم الجسر الخشبي المعلق بين الميناء والباخرة، وكان هو السادس. وما إن رفع قدمه اليُمنى ووضعها على رقبة الجسر الرجراج، حتى شعر برجفة في ركبتيه. فتمهّل لثوانٍ قبل أن ينقل القدم اليسرى ويتقدم.

لم يكن ثمة سبب لما أصابه سوى أنه، في تلك اللحظات، أدرك أنه ينفصل للمرة الأولى عن أرض البلاد. هذا ما كتبه في ما بعد في الصفحة الأولى من دفتر صغير حمل عنوان «دفتر البحر».

لم يكن قد اكتشف أنه من ركاب الدرجة الأولى إلا في لحظة تسلمه تذكرة السفر من «سيمون». فالتذكرة التي تلقاها من العم خوليو كانت تضعه في الدرجة الثانية، وهذا ما قد رفضته والدته، فكان أن طلبت من «أولغا» أن تكلف «سيمون» استبدال الدرجة الأولى بالثانية. وقد فعلت ذلك خفية عنه.

على مدخل الدرجة الأولى تسلّم مفتاح مقصورته، ففاجأه الرقم.

كان الرقم ١٧ . وقد أدرك فوراً أن «أولغا» هي التي أصرت على «سيمون» أن يحجز له القمرة رقم ١٧ ، وهو رقم غرفته في أوتيل «دي مارين». ونجح سيمون.

كان المسافرون على الدرجتين الأولى والثانية، يطلون من شرفات الباخرة لإلقاء نظرة وداع على الأهل والأصدقاء. أما ركاب الدرجة الثالثة فكانوا يدلفون إلى الطبقة السفلى حيث يختفون في العنابر.

من الشرفة العليا أخذ جاناد يبحث عن وجه أمه بين وجوه المودعين على الرصيف، فلم يستطع أن يتبيّنه.

«لقد ضاع وجه أمي. وها هو وجه بلادي أيضاً يضيع. فإلى أين، وإلى متى، يا سينيور؟».

هذا ما كتبه على الصفحة الثانية من دفتر جيبه.

وفي صفحة تالية كتب:

«حين تحرّكت الباخرة، بدأت طيور النورس تقدم عروضها فوق الميناء تحية وداع للباخرة وللمسافرين. ثم رأيتُ حافة الميناء تبتعد عن الباخرة، ولم أكن أدرك أن الباخرة هي التي تبتعد. وبين لحظة وأخرى، كانت الوجوه تغيب، وبينها وجه أمي».

«ومن بُعد رحتُ أراقب جبالنا السماوية تتوارى. صرت أراها أطلالاً تنسحب عنها شمس المغيب».

نصف ساعة، وصار العالم بحيرة زرقاء، والسينيور يرى نفسه مبحراً وحيداً على سطح مدينة عائمة، فلجأ إلى مقصورته رقم (١٧).. الرقم الذي أحبّه وحمله في «أوتيل دي مارين». ولقد وجد مقصورته مرسومة بقياسات السنتيمترات، لكن السرير كان عريضاً بما يكفي لاثنين. وبالإجمال كانت المقصورة غرفة من الدرجة الأولى في أفخم الفنادق.

كانت موسيقى خفيفة تُسمع من ثنايا المقصورة فيُخيّل إلى المسافر أنها آتية من أمواج تتلاشى. أزاح الستارة عن النافذة الصغيرة فلم يرَ إلا المدى الأزرق. وقال لنفسه: ها أنت الآن أيها السينيور على سطح وطنك الموقت السابح بين الأزرق والزرقاء. فأيّ مكان أفضل، وأي وقت أوفر للقراءة والكتابة والرسم؟

أول ما طالعه على منضدة المقصورة كُتيِّب خاص بالباخرة يحوي تاريخ بنائها وإبحارها ومسار رحلاتها، وكتيب آخر خاص بمواصفات الدرجة الأولى، وكان كُتيِّباً فخماً وأنيقاً

يتألف من خمسة عشر جزءاً، وبخمس عشرة لغة. وقد أدرجت فيه صور مرابع السهر، والطعام والترفيه، والرياضة، والاستراحة. وكان أبرزها «بار الدولفين». ومطعم «عين السمكة». ونادي «نجمة الفجر». وهو النادي المفضل لعروض الموسيقى، والغناء، والرقص.

على المنضدة أيضاً، كُتيِّب خاص بحقوق المسافرين في الدرجة الأولى. وتوقف عند ملاحظة أخذها في الاعتبار، ثم طبق باب مقصورته وخرج إلى السطح، حاملاً الكُتيِّب.

ومن جديد أعاد النظر في الملاحظة:

«ممنوع على مسافري الدرجة الأولى دعوة أحد من مسافري الدرجتين الثانية والثالثة إلى أي مكان في الدرجة الأولى إلا بإذن خاص من القبطان. إنما يحق لمسافري الدرجة الأولى النزول إلى الدرجتين الثانية والثالثة».

هكذا، بملاحظة بسيطة، وجد السينيور نفسه في عالم أول يطأ عالماً ثانياً، يطأ عالماً ثالثاً. والعوالم الثلاثة سجينة في هذا الحوت الأسطوري، المقيم الدائم، بين الماء والسماء.

كانت الباخرة تلاحق الشمس في اتجاهها نحو المغيب. وكانت الشمس مثل كرة متوهّجة تطفو على حافة حوض المحيط. وقد راق الجو للسينيور ففضَّل أن يبقى على السطح متفحصاً الوجوه، متسقطاً الأصوات. فلم يسمع حرفاً واحداً بلغة الضاد.

وأوّل ما خطر له أن يبحث عن صديقة، لقضاء السهرة الأولى على الباخرة.

لكن ما من أحد كان منفرداً في ذلك المجتمع الموزع ثنائياً: رجلاً وامرأة.. امرأة ورجلاً..

فعزم على التوجه إلى «بار الدولفين». هناك جلس يشرب كأس «فودكا». لقد أراد أن يظهر انتماءه إلى عالم اليسار، لكنه اكتشف أن العديد من سيدات الطبقة البورجوازية يفضلن «الفودكا». وتذكر «مدام أولغا» في «أوتيل دي مارين». شرب كأسه ثم قفل عائداً إلى مقصورته.

«ها قد صرتُ في المقلب الثاني من الأرض والبحر.» قال لنفسه وهو ينظر صباح اليوم التالي من نافذة قمرته إلى المدى الأزرق.

وإذ مدّ يده إلى جيب البريد المعلق على قفا باب المقصورة وجد بطاقة دعوة تعلن لمسافري الدرجة الأولى عن إقامة «سهرة تعارف» في نادي «نجمة الفجر». وعلى من يريد المشاركة في برنامج السهرة أن يكون مُلماً بالعزف على آلة موسيقية، وأن يقدم وصلة رقص أو غناء، من الفنون الشعبية في بلاده.

وشكر السينيور السماء لأن حقيبته تحوي لوازم السهرة. ففيها «مجوز» و«منجيرة» وغيتار.

وفكّر أن يتوجه مباشرة إلى مكتب الخدمات في الباخرة ليحجز

مكانه في سهرة التعارف. لكنه رأى المسافرين يتوجهون نحو صالة الفطور، فتبعهم.

كان هناك رفّ من المضيفات على باب الصالة. وقد خفّت إحداهن لتقابله بتحية الصباح، وتسأله:

ـ هل نمت جيداً سينيوري؟

تذكر ابتسامة «مايسا» و«مادلين» في «أوتيل دي مارين»، فقال:

ـ الحقيقة أنني لا أعرف إن كنت قد نمت، ذلك لأني لم أحلم بشيء.

ـ هذا جيد جداً، سينيوري. فأنت على هذه الباخرة، وفي هذه الدرجة بالذات، لست بحاجة لأن تحلم بشيء. فكل ما تحلم به تجده أمامك!

قالت المضيفة الإيطالية ذلك بافتخار، فأحنى لها رأسه احتراماً. .

وإذ انصرف إلى موائد اللذائذ، اكتفى بكوب من عصير التفاح مع فنجان «كابوتشينو»، وقطعة من الكعك المحلّى. ثم انتقل إلى صالة الاستراحة الفسيحة. وكانت هناك رفوف كتب بكل اللغات الحية.

وقف يبحث عن كتاب، ولم يكن في ذهنه ماذا يريد. استعرض عناوين كتب بالإيطالية، والفرنسية، والإنكليزية، والإسبانية،

والبرتغالية. وقد اختار رواية بالإسبانية لكاتب بوليفي. عنوان الكتاب سوف يدل على لغة من يقرأه، فيسهل التعارف مع الآخرين. وهكذا يمكن أن يختار صديقاً أو صديقة من الناطقين والناطقات بالإسبانية، على أن يبدل الكتاب بآخر، وبلغة أخرى.

وفي موعد سهرة «نادي الفجر» كان السينيور من أوائل الوافدين إلى الصالة، وكان الرقم (١٧) دليله إلى طاولته.

كان العرض الأول من نصيب هولندا، وبعدها فرنسا.

وكان المشاركون في كل عرض يصعدون إلى المسرح جماعات، فيطلقون غناءهم، ورقصهم، وموسيقاهم، وكانت موسيقاهم على الغيتار، والأكورديون، والكمان.

وما إن أعلن مقدم البرنامج أن «المسرح الآن للبنان» حتى انطلقت صيحة مُدوّية من وسط الصالة: هاي..

فوقف السينيور ليرى صبية تشق طريقها إلى المسرح ملوّحة بشال أورجواني، يتبعها شاب رافعاً عصا.

لم يكن السينيور يعلم أن ثمة لبنانيين غيره على الباخرة، وفي الدرجة الأولى. وفوجىء الثنائي اللبناني بالسينيور الآفاندي حاملاً المِجوز (مزمار لبناني مصنوع من القصب الرفيع).

وإذ نفخ السينيور في المجوز، تصاعد نغم صارخ، فشبك الثنائي اللبناني الأصابع، ثم راح السينيور يعطي «المجوز»

أنفاسه دفعة، بعد دفعة. وبدأت خشبة المسرح ترتجّ على إيقاع الدبكة اللبنانية، وأخذ الجمهور يرافق الإيقاع بخبط الأقدام على الأرض.

وما لبثت الصبية أن انفصلت عن رفيقها لتدبك منفردة، ورفعت صوتها صادحاً بالغناء:

«على دلعونا.. على دلعونا.. بيْ بيّ الغُربي.. الوطن حنونا».

كان ينقص السينيور ذلك الصوت ليأخذه ويرميه على حافة الوطن الذي لم يغادره إلا منذ ساعات، فأطلق بالمجوز نغماً طويلاً، جارحاً، كأنّه صرخة تسبق انتحار بطل بسيفه.

كانت الصبية اللبنانية ذات جمال فجّ، على طبيعته. شقراء، على خدّيها رشّة نمش خفيفة. إذا ضحكت تعود طفلة، فتختبىء عيناها بين غمّازتين..

هكذا كتب «السينيور» وجه الصبية اللبنانية ليرسمه.

ـ من أين؟ سأل السينيور الثنائي اللبناني بعد انتهاء العرض. فقالت الصبية:

ـ من قرطبا ببلاد جبيل.

ـ وإلى أين؟

ـ إلى كوردوبا بالأرجنتين. قال الشاب.

ــ يعني من قرطبا إلى قرطبا؟

ــ نعم، هناك والدي. قال الشاب.

ــ برأيكم أي قرطبا كانت في البدء؟

ــ قرطبا جبيل. قالت الصبية.

ضحك السينيور، وأراد أن يمازحها:

ــ لكن قرطبا الأولى في الأندلس.

ــ لا، مش صحيح. قرطبا جبيل هي الأولى.

ــ لكن قرطبا الأرجنتين أتت من إسبانيا بعد غزوة كولومبوس لأميركا الجنوبية.

ــ صحيح، لكن قرطبا الأندلسية أصلها من بلاد جبيل التي تعود إلى زمن الفينيقيين. قالت الصبية متباهية.

ــ لكن الفينيقيين كانوا تجار بحار، ولم يكونوا فرسان جبال كما أنتم في أعالي بلاد جبيل..

فاعترض الشاب قائلاً للسينيور:

ــ ما تغلط يا حبيبي، ما تغلط. قرطبا اسم فينيقي، وهي كانت مصيف هؤلاء الذين تسميهم أنت تجار بحار. وهم من ابتدعوا الحروف الأولى للعالم. ومن تلك الحروف تألفت أسماء القارات، ثم أسماء الدول، والشعوب، والمدن والأفراد..

صفّق السينيور إعجاباً، وقد أصاب لدى الثنائي اللبناني وتراً يعتبره البعض خرافة، لكنها خرافة عظيمة.

كان الثنائي عريساً وعروساً حديثي العهد، فسأل السينيور:

ـ منذ متى والدكَ في قرطبا الأرجنتينية؟

ـ منذ اثنتي عشرة سنة، قال الشاب، وأردف:

ـ لقد تأخرت حتى ألتحق به بسبب الحرب. وفور انتهاء الحرب أصرّ والدي عليّ أن أتزوج قبل أن أسافر. وها هي عروسي معي.. وأشار إلى الصبية، فتدخلت لتسأل السينيور:

ـ وأنت إلى أين مسافر من غير شرّ؟

ـ إلى بوانس آيرس. لي عم هناك لا أعرفه.

ـ وأين عروسك؟

ـ ليست لي عروس.

ـ هذا يعني أنك لم تقع في الحب بعد.

ـ صحيح. قال السينيور مذهولاً من جرأة بنت قرطبا، وسألها:

ـ كيف عرفتِ ذلك؟

ـ الأمر بسيط، فلو أنك أحببت صبية لكنت تزوجتها.

ـ ماذا أفعل؟ حظي عاثر.

ـ لا، لا تقل هذا.

ـ لكن هذه هي الحقيقة.

وقالت الصبية، التي لم يمر أسبوع على عرسها:

ـ هناك صبية حظها عاثر. أتعرف لماذا؟ لأنك لم تلتق بها بعد..

ولم يجد السينيور الكلمات المناسبة ليفتح فمه.

ونام تلك الليلة وهو يستعيد كلام العروس اللبنانية: «هناك صبية، حظّها عاثر لأنك لم تلتق بها بعد».

ومع الصباح نهض متأخراً، ومتكاسلاً. فقد بدأ يشعر بالضجر والملل من مشهد الأفق الذي لا يتبدل. وخطر له أن يتعرف على عالم الدرجة الثانية، فبطاقته تسمح له باختراق كل العوالم المجتمعة على الباخرة..

خرج من مقصورته باتجاه السلم اللولبي، نزولاً إلى الدرجة الثانية، فما إن رآه الحارس حتى حيّاه وفتح له الباب باحترام. وما إن نزل بضع درجات حتى فوجىء برجل آخر يقف عند وسط السلم. كان الرجل يرتدي لباس طاقم الباخرة، وبكامل أناقته وصلابته. ولم يكن إلا حارس الحدود بين الدرجتين.

لم يتوقف عند مدخل الدرجة الثانية، بل تابع النزول إلى الدرجة

الثالثة. وعند انعطافة السلم الخشبي وجد حارساً ثالثاً، وكان هذا أقل خشونة من الحارس الثاني. إذ إنه تأهّب وأدى التحية.

لكن ما إن عبر السينيور الممر الرطب إلى الدرجة الثالثة حتى خيل إليه أنه أصبح خارج الباخرة. فقد وجد نفسه في شبه سوق شعبية تضجّ بأصوات عالية، وتثرثر بكل اللغات. كانت الروائح تفوح من الأجساد ومن لهاث الأنفاس. رجال، ونساء، وأولاد، كلهم سجناء في أقفاص مفتوحة، وفي داخلها وجوه سماتها الغموض والحيرة والتعب.

وبين التفاتة وأخرى، بين لغة ولغة، بين وجه ووجه، راح السينيور يتنقل من عنبر إلى عنبر، كان غير قادر على أن يميز بين مهجع ومستودع. فأمامه «بقج» ثياب محكمة الربط، أو مفلوشة، ومحتوياتها مبعثرة. وعلى الأرض حرامات، ووسائد، وأمتعة، وأحذية، إلى جانب صحون فيها بقايا طعام، وقشور خضار وفواكه، وأعقاب سجائر..

وكانت هناك أسرَّة معدنية معلّقة بسلاسل، بعضها فوق بعض. كأنها أقفاص دجاج.

وعلى الأسرّة نيام مدْبرون، وآخرون مواجهون. عيونهم مطبقة، وأفواههم مفتوحة، وشخيرهم متقطع. وكان هناك من هم جالسون على أسرّتهم وأرجلهم تتدلى فوق رؤوس من هم تحتهم. وفي ذلك الخضمّ بقيت فسحة لأولاد كانوا يلعبون الكرة في الممر الرطب، ولم تكن الكرة إلا فردة حذاء لأحدهم.

لكن ما أثار اهتمام السينيور المراقب أنه رأى على بعض الوسائد، وفي الزوايا على الأرض، كتباً قليلة وقديمة، ومعظمها كتب دينية بكل لغات الأمم البائسة. ثم طرقت سمعه كلمات عربية أصغى إليها بانتباه. كان أحد المسافرين مستلقياً على ظهره، وأصابعه على عينيه، وإلى جانبه رفيق له يحادثه:

ـ هل زرت ركن الأديان؟

ـ وهل يوجد هنا ركن للأديان؟ سأل الثاني.

ـ لو لم أرَ ذلك الركن لما كنت سألتك.

ثم نهض قائلاً لرفيقه: إتبعني.

ومشى الرجلان، فتبعهما السينيور، وكأنه ثالثهما.

كان ركن الأديان في آخر ساحة الدرجة الثالثة، مؤلفاً من ثلاثة مربعات خشبية مفتوحة في الاتجاهين ومتساوية العرض والارتفاع، تعلوها لافتة كبيرة كتبت عليها عبارة «ركن الأديان» بأربع لغات: الإيطالية، الإسبانية، الإنكليزية والفرنسية.

كانت المربعات الثلاثة تحتضن رموز الديانات الثلاث: الكتاب المقدس، والقرآن، والتوراة. وكان كل رمز في إطار من مهابة القداسة. ولم تكن تفصل بين رمز وآخر سوى فسحة لا يزيد عرضها على متر، ولا يفصل بين فسحة وأخرى سوى حبل يمتد نحو ثلاثة أمتار.

بين حبل وحبل، كان يصطفّ عالم مختلف عن عالم آخر له رمزه.

وكان تحت كل رمز كتابه. وكان كل كتاب في صندوق من الزجاج السميك الشفاف يسمح للمؤمن بأن يلمس الزجاج لنيل البركة.

كان المؤمنون، والذين لا يتذكّرون الله إلا في حالات السفر والمرض، ينتظمون في طوابير، وكل منهم يُتمتم صلاة قصيرة، ويعلن إيمانه بإشارات من يديه، ثم ينكفىء، مفسحاً في الصف مكاناً لآخر.

لكن لافتة غريبة ظهرت فجأة أمام السينيور.

ذراع عارية ارتفعت فوق رؤوس الواقفين في مربع الكتاب المقدس، تحمل لافتة. كانت اللافتة مجرد قطعة من الكرتون المقوّى، كُتب عليها بالحرف اللاتيني الكبير كلمة (Palestine). وإذ انقلبت اللافتة على الوجه الآخر، ظهرت كلمة بالحرف العربي الكبير (فلسطين).

تسمّرت عينا السينيور على اللافتة التي كانت تقلّب «فلسطين»، تارة على وجهها اللاتيني، وتارة على وجهها العربي. وما لبث «السينيور» أن تحرّك مخترقاً مربع الكتاب المقدس ليتعرف إلى حامل لافتة «فلسطين»، فرأى أمامه مُسافراً يرتدي جلباباً مغربياً بلون رمادي فاتح وينتعل خُفاً.

كان مثابراً على تقليب لافتته، متأكداً من أنها عالية بما يكفي لتكون مكشوفة أمام عالم الدرجة الثالثة بكامله.

وإذ عزم السينيور على اكتشاف هوية الرجل اقترب منه وحيّاه بالعربية، ثم سأله:

ـ هل الأخ فلسطيني؟

فوراً ظهر السرور على وجه الرجل لدى سماعه صوتاً بالعربية، فأجاب بلكنة مغربية: أنا «عْربي، مراكشي»..

ـ أهلاً وسهلاً. وأنا لبناني.

ـ مرحْبا بيك..

ـ إلى أين أنت ذاهب بفلسطين، أيها الأخ العربي المراكشي؟

فحكَّ المراكشي ذقنه:

ـ أذهب بها إلى بلاد الله الواسعة.

أبدى السينيور احترامه للجواب، لكنه سأل المراكشي:

ـ أليس الأفضل أن تذهب إلى فلسطين بدل أن تحملها على رقعة كرتون؟

ـ أتتحداني أم تستفزّني أيها اللبناني؟ قال المراكشي بحدة وهو يحدق في عيني السينيور الذي بادر إلى الاعتذار:

ـ عفواً، عفواً يا أخي. لقد أخطأت. سامحني.

فقال المراكشي:

ـ أتعلم من أين أنا آتٍ ؟

ـ من أين؟

ـ أنا آتٍ من فلسطين.

ـ ولماذا غادرتها؟

بدا على المراكشي أنه صُدم مرة أخرى. لكنه أجاب بهدوء:

ـ غادرتها بعد أن ضاقت بغزاتها اليهود من كل أصقاع الأرض؟

ـ لكني أراك تقف في مربع غير مربعك هنا في ركن الأديان. هل أنا مخطىء؟

رفع المراكشي يده نافياً:

ـ أبداً، أبداً، يا أخي، أنا أعرف أين أقف، وأنا قصدت أن أقف هنا، وأنا أعرف لماذا أقف هنا. ثم أردف :

ـ أتريدني أن أقف في صف المسلمين كي أستثير نخوتهم لإنقاذ فلسطين؟

ـ ولم لا؟. أليس العالم العربي بأكثريته الإسلامية هو الأوْلى بالاستثارة؟.

تلفَّتَ المراكشي حوله، ثم قال:

ــ أنا لست من مسافري الدرجة الثالثة. فما رأيك أن نصعد إلى الدرجة الثانية لنتعارف؟

ووافق السينيور على فكرة المراكشي، ثمّ صعدا إلى الدرجة الثانية، وكانت أقل ازدحاماً من الثالثة وفيها أماكن ممتازة لتناول القهوة والشراب والطعام.

وقع نظر السينيور على زاوية كتبت عليها كلمة «بار». إلّا أنه تحاشى أن يعرض على المراكشي الدخول إليه، فقال له بحذر وهو يشير نحو البار:

ــ لا أدري إذا كان هذا المكان يناسبك؟

فردّ المراكشي فوراً:

ــ ليس هذا ما يناسبني. لكن هذا ما يروق لي.

وكان ذلك ما يروق للسينيور بالطبع. جلسا في زاوية من البار مفتوحة على العابرين في الاتجاهين. وقال المراكشي مقدِّماً نفسه:

ــ أنا أدعى «الطيِّب جلال المليلي»، وينادونني «الطيِّب».

ــ وأنا أدعى جاناد آلافاندي. وينادونني السينيور.

ــ اسم جميل. هل أنت من أصل إيطالي؟

ضحك السينيور قائلاً: هذا اسم عائلتي كما هو مكتوب بالحرف اللاتيني على جواز سفري. أما بالعربي فاسم عائلتي «الأفندي».

ـ بأيّ لغة تريد أن نتكلم يا سينيور آلافاندي.. بالعربية الفصحى، أم بالفرنسية؟

ـ باللغة التي تناسبك، يا طيّب.

ـ حسناً، إن اللغة التي تناسبني هي لغتنا العربية الأصيلة. لغة البلاغة والإيمان، ولغة الأدب والعشق والبكاء. فتعال يا سينيور لنتشاكى ونتباكى بلغتنا الجميلة.

فعلّق السينيور: عليّ أن أعترف لك فوراً بأني لا أستطيع أن أجاريك بفصاحتك.

ـ هذا لطف منك، يا أخي، لكنّ اللبنانيين أساطين في اللغة العربية. ومنهم نوابغ برعوا في ما نشروا بالعربية، كما بالفرنسية. ولقد كان لنا أستاذ فرنسي قال لنا مرة إن شخصية المرء تبدأ بلغته، ثم بثقافته، ثم بهويته، وأخيراً باسمه. وسوف أروي لك يا أخي ماذا تعني اللغة لدى بعض أقوامنا في بلاد المغرب وشمال أفريقيا. فإخوتنا البربر لا يتكلمون في ما بينهم إلّا بلغتهم الأصلية «الأمازيغية». ومن شدة تمسكهم وافتخارهم بلغتهم، فإن المرأة البربرية تضرب ابنها بشدة إذا ما سمعته يتكلم مع بربري آخر بالعربية.

وإذ أبدى السينيور استهجانه أكمل الطيِّب :

ـ نعم نعم. يا أخي. إنها تضربه. ومن الطبيعي أن يبكي الولد البربري عندما تؤلمه أمه بالضرب، مثلما يتألم أي ولد آخر. لكن الأم البربرية تعود وتضرب ابنها بقسوة أشدّ لأنه يبكي، فيصاب الولد بشبه هستيريا، ويروح يصرخ في وجه أمه غاضباً: لماذا ؟ . . لماذا؟

فتقول له أمه وهي تهوي عليه بالسوط:

ـ لماذا؟. لأنك تبكي بالعربي. إبكِ بالبربري.

وتساءل الطيّب: هل للبكاء أكثر من لغة يا سينيور؟

ـ بالتأكيد لا. أجاب السينيور، فأكمل «الطيِّب»:

ـ الفرنسيون يعملون منذ مئة سنة لسحب لغتنا عن ألسنتنا، فإذا نجحوا فسوف يسحبون ألسنتنا.

وقال السينيور: هذا ما حاولوا أن يفعلوه عندنا في لبنان أيضاً، لكنهم لم ينجحوا.

كان السينيور و«الطيِّب» يتكلمان بصوت عالٍ لفت انتباه مسافر يعبر بالقرب من واجهة البار، فالتفت إليهما، والتفتا إليه، وتبادلا معه نظرة متفحّصة، ثم مضى. وما لبث أن عاد. كان ذا سمات مشرقية، فناداه السينيور:

ـ هل الأخ عربي؟

بدا الحرج على الرجل، فاعتذر بالعربية:

ـ عفواً، لعلي أثرت الظنون، لكن كلامكم بالعربية أثار فضولي. أنا مصري. ثم إن هذه الكلمة العربية الكبيرة «فلسطين» التي يحملها الأخ قد شدّتني إليكم.

فقال الطيّب: لا بأس عليك، يا أخي، فأنا مغربي مراكشي والسيد، هذا، لبناني.

فعلّق المصري بدهشة: الله الله! مغرب ومشرق مع بعض؟

ـ كلنا في الهمّ شرق. قال «الطيِّب»:

فرفع المصري يديه:

ـ لا، لا يا خويا. إبعد عن الشرق وغنِّيلو!

وإذ مضى المصري، سأل السينيور الطيّب:

ـ ماذا ترغب أن تشرب؟

فكر الطيِّب قبل أن يُجيب:

ـ أنا يا أخي أجتنِب الخمرة.

ثم استدرك: لكن ما دمنا على باخرة إيطالية، فمن باب الأدب أن نطلب شراباً إيطالياً، لذلك أنا أرغب بكأس «مارتيني».

ضحك السينيور حتى احمرّت أُذناه، ثم قال:

ـ وأنا أيضاً لن أخالف الأدب. سوف أطلب كأس «مارتيني».

وبعد أن تبادلا الأنخاب، عاد السينيور وسأل الطيّب:

ـ ما تفسيرك لوجود ركن الأديان في الدرجة الثالثة دون سواها؟

ـ آه، هذا سؤال خطير. قال الطيّب. ثم سأل بدوره:

ـ لماذا لا تجيب أنتَ عن هذا السؤال يا سينيور؟

ـ لقد اعترفت لك قبل قليل. إنني لا أملك بلاغتك وفصاحتك.

ـ العفو، العفو، يا أخي أعتقد أن الدرجة الثالثة على هذه الباخرة ما كانت لتكتمل لولا ذلك الركن. فهؤلاء المسافرون الفقراء ليس لهم من يلوذون به غير الله، ويزداد إيمانهم ويشتد في حالات الخطر، وخصوصاً في أيام المرض والسفر، ونحن الآن في سفر.

ثم ساد صمت قصير قطعه السينيور:

ـ لا بدّ أن لكل منا غاية، أو سبباً، لوجوده على هذه الباخرة. فهل نتبادل أسبابنا؟

للحظات بدا الوجوم على وجه الطيّب. ثم قال:

ـ حسناً. قل لي أنت أسبابك أولاً، إذا سمحت.

ـ أنا مسافر إلى الأرجنتين لأكتشف عمّاً لي هاجر قبل بضع

سنوات من ولادتي، وقد انقطعت أخباره منذ سفره، لكنه ظهر أخيراً في بوانس آيرس.

رفع الطيِّب حاجبيه إعجاباً:

ـ أنت بارع أيها الشاب بالإيجاز. لقد اختصرت لي بكلمات ما كان يمكن أن ترويه في ساعات. أما أنا فلا أستطيع أن أجاريك بالإيجاز. ذلك أن أسبابي كثيرة، وصعبة.

وسكت الطيب ليبتلع بقية «المارتيني» في كأسه. وتابع:

ـ لقد سبق لك أن سألتني، عندما كنا في ركن الأديان، لماذا أرفع «فلسطين» في طابور العالم المسيحي. أتريد أن نبدأ بالجواب عن هذا السؤال؟

ـ نعم، هذا الأمر يهمّني جداً.

ـ حسناً، أنا أرفع «فلسطين» في طابور العالم المسيحي، وسوف أعود لرفعها في هذا الطابور بالذات. لماذا؟. لأن دول العالم المسيحي هي التي ارتكبت الخطيئة الكبرى بحق السيد المسيح. إذ هي أعادت تسليمه ثانية إلى جلّاديه مع صك تمليكهم بلاده.

فقاطعه السينيور:

ـ لكن السيد المسيح قال للرب على الصليب: اغفر لهم يا أبتاه لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون.

ـ صحيح، هذا صحيح. ذلك أن الغفران في صلب عقيدة السيد المسيح. لكن جلاديه كانوا يعلمون ماذا يفعلون. وكانوا مصمّمين على ما فعلوه، ثم لا تنس، يا أخي، أن السيد المسيح طلب الغفران لأعدائه اليهود. أما دول العالم الغربي فإنها من رعاياه، فكيف يغفر الرب لرعاياه الذين يحضنون جلّاديه ؟

ـ لكن ماذا عن البلاد العربية التي وُلِدَ فيها السيد المسيح؟ ففي بيت لحم مهده. وفي القدس مشى درب الجلجلة حيث تعذّب وصُلِب. وماذا عن الدول العربية التي استسلمت على أبواب القدس؟ لماذا تركت كنيسة القيامة، وثالث الحرمين الشريفين؟ هل تحمي الصلواتُ والدعاءُ شعب فلسطين؟

تململ الطيّب وهو يسمع تساؤلات السينيور. ثم أطلق آهاً، وقال:

ـ إسمع أيها الشاب الممتلىء حماسة كما تبدو لي. إن العالم العربي الذي تسأل عنه لا ينتج إلا الأولاد، والمبادىء، وهذه صناعة عظيمة. لكنها لا تكفي لخوض حروب وتحقيق انتصارات. لا بد من صناعات أخرى، لا بدّ من القوانين، والعلوم، والغذاء، والحرية والديموقراطية، وهذه صناعات تكافحها الأنظمة العربيّة.

وبمرارة أضاف «الطيِّب»: لا ينبت العشب الأخضر في أرض الملح والرماد. فعلى من تتلو مزاميرك يا سينيور؟

وحاول السينيور أن يعلق فأومأ له الطيب بأن ينتظر، ثم أكمل:

ـ أنا أخشى أن تنجح إسرائيل بجعل قضية فلسطين قضية حصرية خاصة بالعالم العربي لا علاقة للعالم المسيحي بها. فإذا نجحت إسرائيل في خطتها فقل: «راحت فلسطين». وإذا شئت خذ الدرس من الهزيمة التي سُميت نكبة. أنا آتٍ من هناك، وقد عشت الهزيمة، وذُقت كأس آلامها ومرارتها حتى الثمالة. رأيت جيوش الدول العربية تسقط على أبواب فلسطين مثل كسيح أمام جحافل بني إسرائيل.

ـ لكن يحدث للجواد الأصيل أن يكبو، قال السينيور.

ـ هذا صحيح، لكن الجواد الأصيل إذا كبا، ولم ينهض بعد وقت، فمن الخير له إطلاق رصاصة الرحمة على رأسه.

واستدرك الطيّب، وهو ينظر إلى ساعته:

ـ أرأيت، يا سينيور، لقد مضى وقت لا بأس به ونحن نتشاكى ونتباكى. فهل تأذن لي ببضع دقائق لأتفقد عائلتي في كابينتها؟

ـ عائلتك معك؟

ـ نعم، معي زوجتي الفلسطينية، وابني، وابنتان.

وإذ وقف الطيِّب ألقى نظرة على الكأسين الفارغين على الطاولة:

ـ لن أتأخر لأعود وسأطلب شراباً لك ولي. الآن دوري.

ـ دعك من هذه المعادلة، يا طيّب، فمن فضائلنا نحن العرب أننا نتسابق على إكرام الضيف، وأنت ضيفي.

ـ بل دعك أنت من هذه البدعة العربية التي تزعم أن الكرم ستار العيوب. لا يا عزيزي. فضح العيوب أفضل وأجدى للعرب من الكرم الذي يدّعونه. ثم إنني لست ضيفك، ولا أنت ضيفي على هذه الباخرة. دعك من المجاملات العربية، فكثيرها يخفي كذباً ورياء.

ثم أسند الطيِّب لافتة «فلسطين» إلى الطاولة، وقال للسينيور:

ـ انتبه لفلسطين. إنها في عهدتك حتى أعود.

وحين عاد قال «للسينيور» أن زوجته وابنتيه مصابات بدوار البحر، ثم راح يُردِّد: آه من دوار البحر.

ـ تبدو مهموماً يا طيّب؟

هزّ الطيِّب رأسه مؤكداً:

ـ نعم، همِّي كبير. ألا تراني أرفع همّي على هذه اللافتة في وجه العالم؟

ـ لكني سمعتك قبل قليل تقول لأخينا المصري: كلنا في الهمّ شرق..

ـ كان هذا القول صحيحاً في زمن مضى، أما اليوم فالقول الصحيح: كلنا في الهم فلسطينيون.

وسكت الطيّب ليطلب كوبين كبيرين من البيرة، وقد رفع كأسه وتأمله وهو يفور رغوة بيضاء، ثم أخذ جرعة كبيرة، ومسح فمه وشاربيه، وقال:

ـ منذ زمن لم أتناول قطرة من أي شراب مُخمّر، وقد أتيتَ أنت، يا سينيور، ففتحت جرحي وهمّي معاً، ثم كسرتَ الحظر على متعتي بالشراب.

وأردفَ: «سامحك الله يا أخي!».

فاعتذر السينيور من الطيِّب الذي شرع يُحاكي نفسه: دوار البحر. دوار البحر. آه من دوار البحر. كم عذبني وكم أسعدني. وكم أنقذني، ثم قتلني، وتركني حياً.

ـ هل تؤمن بالقدر يا سينيور؟

ـ كأنك تسألني، يا طيِّب. إن كنت أؤمن بالله.

ـ وهل التسليم بالقدر غير التسليم بأمر الله؟

ـ نعم، أنا مؤمن. قال السينيور، ثم استدرك: أنا مؤمن بما يتعدى العقل، والأديان، والإيمان، مؤمن بما لن يدركه عقل، ولا دين، ولا إيمان.

ـ بارك الله بك يا أخي، يكفيني أنك مؤمن.

ثم بحركة عفوية، امتدت يدا الطيّب والسينيور إلى البيرة، فأخذ كل منهما جرعة. وقال الطيب:

ـ أتعلم يا سينيور. . لقد يسّرت لي أن أشرح لك أسباب وجودي على هذه الباخرة.

وأكمل: أليست المصادفة التي جمعتنا على هذه الباخرة ضرباً من القدر؟

هزّ السينيور رأسه مؤكداً: صحيح. فقال الطيِّب: هل تمانع أن يكون لنا لقاء آخر صباح الغد على فنجان قهوة؟

ـ بكل سرور.

صباح اليوم التالي، نزل السينيور من الدرجة الأولى إلى المقهى في الطبقة الثانية حاملاً كتاباً بالفرنسية عنوانه «الأمل» لأندريه مالرو، وهو فرنسيّ، عاصر الحرب الأهلية في إسبانيا ضد الديكتاتورية. وكان السينيور قد أمضى شطراً من ليلة الأمس في إعادة قراءة ذلك الكتاب ـ الرواية للمرة الثانية. وهو رأى أن كتاب مالرو يمكن أن يكون هدية مناسبة للطيِّب. فبادره بالتحية ثم قدّم إليه رواية «الأمل»:

ـ لقد قرأتها للمرة الثانية، وقد رأيت أن آتيك بها لعلها تفيدك في ساعات فراغك على هذه الباخرة.

ـ شكراً جزيلاً يا أخي، لقد سبق لي أن قرأت رواية «مالرو» هذه، أو قل «دفتر يومياته» في مرحلة من الحرب الأهلية في إسبانيا. فثمة صديق يهودي مراكشي كان زميلي في الدراسة، أرسل هذه الرواية هدية إليّ، ولا أدري لماذا. فهو نادراً ما يقدم أدنى هدية.

وأردف الطيِّب: لكن قلْ لي، يا سينيور، هل تعتقد أننا، نحن العرب، يمكن أن نفعل ما فعله الإسبان في مواجهة الديكتاتور؟

ـ نعم، قال السينيور جازماً.

عجباً. . أعطني سبباً يجعلني أشاركك هذا الرأي، يا «سينيور».

ـ هل تريد أن تعجّزني يا طيّب؟ سوف أقول لك:

ـ إنك تستطيع أن تتنبأ بمستقبل الملوك والرؤساء العرب، لكنك لا تستطيع أن تتنبأ بمستقبل الشعوب.

ـ وهل تريد أن تقول لي إن لديك «الأمل»؟

ـ نعم، بالتأكيد.

ـ لكنك لم تعطني سبباً.

حسناً، هل لديك حديقة فيها شجرة يا طيِّب؟

ـ نعم، كانت لي حديقة وشجرة في القدس، وكانت لي قبلها حديقة وشجرة في مراكش. ماذا تريد أن تقول لي؟

ـ أريد أن أقول لك إن الشجرة يمكن أن يمرّ عليها فصل جفاف فلا تعطي ثمرة واحدة في موسمها، لكن صاحبها لا يحكم عليها بالقطع. ثم يمرّعليها فصل أمطار، وثلوج، وبعده شمس، فتزهر الشجرة، وتُثمر. وهكذا الأوطان والشعوب، يا طيِّب. الوطن شجرة، والشعب مواسم.

ـ أتريد أن تقول لي إن العالم العربي يمرّ في موسم مَحْل؟

ـ تماماً. هذا ما أقصده بالضبط.

ـ لكن سبق للعرب أن وصلوا بفتوحاتهم إلى مدينة «بواتييه» في جنوب فرنسا، وهناك انكسروا، ثم بدأوا ينكفئون. ومنذ ذلك الزمن، أي منذ ألف ومئتي سنة وهم يتراجعون. وها هم الآن يندحرون في عقر ديارهم المقدسة. فأي جيل عربي ننتظر؟ بل أي قائد؟ . .

كان مضيف المقهى قد أتى بفنجانين من القهوة الإيطالية، فاغتنم السينيور اللحظة ليسأل الطيِّب:

ـ أظنّ أننا اتفقنا بالأمس على أن تحدثني عن أسباب وجودك مع عائلتك على هذه الباخرة.

ـ نعم، نعم. وأنا من أجل ذلك أوافيك إلى هنا.

ثم استدرك الطيِّب: قد لا أستطيع الإيجاز كما أوجزت أنت أسباب وجودك هنا، لكني سأحاول، فاسمع يا عزيزي:

قبل عشر سنوات بالتمام، كنت قد تخرّجت من كلية الآداب والفنون الفرنسية في مراكش. وكنت لا أزال أعيش في كنف عائلتي. وكان والدي «الحاج عمر المليلي» رجلاً ورعاً، صادقاً وأميناً، شجاعاً في قول كلمته بالحق. وكان، رحمه الله، ذا ذمة، وعلم، وإيمان. كان تاجراً ماهراً وفاضلاً. كانت تجارته تمتد من بلاد المغرب إلى بلاد الشام. فهو تاجر أصواف

ونسيج. كان يصدّر الأصواف إلى سورية وفلسطين ولبنان، ويستورد منها النسيج من القطن والحرير، والأصباغ.

وفي تلك السنة، سنة تخرّجي من كلية الآداب والفنون الجميلة، كنت قد عزمت على العمل بنصيحة والدي، فانضممت إلى سلك التدريس في مؤسسة أهلية في مراكش تُعنى بطلّاب من ذوي الحالات المُتعسِّرة.

وتكريماً لي على تفوقي خريجاً جامعياً بامتياز، عرض عليّ والدي أن أكون رفيقه في رحلة حج إلى بيت الله الحرام. قال لي: هكذا تؤاتيك النعمة والبركة، وأنت في بداية طريقك إلى مستقبلك.

ثم شرح لي أنه متواعد مع وكيل له في القدس، ليترافقا في رحلة تقوم قافلتها من حرم المسجد الأقصى إلى مكّة المكرّمة.

هذا يعني أننا سنزور القدس. ولنصل إليها علينا أن نبحر إلى حيفا، ومنها إلى يافا، ثم براً في وجهة ثالث الحرمين الشريفين، الى القدس.

وزيادة في تكريمي وتشويقي، قال لي والدي:

أنا عازم على أن أقوم، بإذن الله، بعد أداء فريضة الحج، بجولة أزور خلالها وكلاءنا في المشرق. وهكذا، يا بني، سوف تجول معي في خمس مدن باهرة. ففي محطتنا الأولى في يافا سوف تتعرف على الثغر الفضي لفلسطين. وفي القدس

سوف تمر بأبوابها وحاراتها، وتزور المسجد الأقصى، وكنيسة القيامة. وفي دمشق سوف تحاكي التاريخ والعراقة في عاصمة الأمويين، أولئك الأفذاذ الأوائل الذين حملوا إلى الأندلس حضارة عمّت أوروبا. وفي حلب سوف تدور حول قلعة العصور والدهور، حيث عبر الغزاة إلى قبورهم. وسوف تزور زوايا العبّاد، والمكتبات العامرة بالآداب والشعر.

وفي بيروت سوف ترى وجه أم الشرائع، فتلامس حجارة مدرسة الحكمة، وأعمدة الحضارة في مدينة النور والثقافة، واللغات والفنون. سوف تبدو لك إحدى أجمل ما كوّن الله من جنات على حافة المشرق.

ثم سألني والدي عن رأيي في ما يعرضه عليّ، فقلت له أني لم أكن أحلم بمكافأة أكرم وأثمن من تلك المكافأة.

كان الفصل ربيعاً يوم بدأنا، والدي، وأنا، رحلتنا إلى المشرق، انطلاقاً من «طنجة». كانت باخرتنا الفرنسية لا تشبه بشيء باخرتنا هذه التي نحن عليها الآن.

كانت باخرة صغيرة وفقيرة. ولم يكن لي فيها نصيب من النوم، ولا الراحة. كنت أتقيأ فوراً الطعام الذي أتناوله من مطبخها، ليس بسبب سوء نوعيته فحسب، إنما، أيضاً، بسبب دوار البحر الذي رافقني طوال الرحلة.

كنت قد أصبحتُ مُتهالكاً عندما وصلنا إلى ميناء حيفا، ولم

تكن رحلتنا قد انتهت. إذ كان علينا أن نتوجه من الميناء، فوراً، إلى محطة المدينة، لنستقل حافلة إلى يافا، حيث نمنا تلك الليلة في ضيافة صديق والدي وعميله التجاري. ويشهد الله أني لم أذق طعم صنف من الأصناف على مائدة العشاء السخيّة التي أقامها لنا مضيفنا. كان همِّي أن تكون المسافة قريبة بين غرفتنا وحمام الضيوف.

لكنني في الصباح كنت قد استعدت بعض عافيتي. وفي أي حال كنت أعدُ نفسي باستكشاف هذه المدينة التي تصورتها في الخيال أسطورة تعود إلى عصر الكنعانيين، فاسمها في الأصل كنعاني، ومعناه «المنظر الجميل». ويافا هي حقاً ذلك المنظرالجميل، بدءاً من مينائها التاريخي، إلى أحيائها المترامية مثل قلاع تعود إلى العصر الروماني.

كانت يافا في ذلك العام (١٩٣٨)، ما تزال تحتضن بقية طلائع ثورة «عز الدين القسّام» التي انطلقت من الحارات القديمة المحصّنة بالجدران العالية، وبالمداخل الضيقة المحروسة بأشجار النخيل.

أمضيتُ نصف نهار مُتجوّلاً في الأسواق. وقد لاحظت أن طبائع الناس متشابهة في مدن البحار، فهم في يافا، كما في «طنجة» و«الدار البيضاء»، أذكياء. حذرون. بارعون في العرض والمساومة.

وظهر ذلك اليوم كنا قد ودّعنا مضيفنا، فغادرنا يافا إلى القدس

في حافلة جديدة. تمكّنت من متابعة الطريق منشغلاً بمناظر بيارات البرتقال التي تطلّ من خلف البحر على المدينة. يومها أدركت معنى تلك الثمرة الصفراء التي نطلبها في مراكش من البقّالين باسم «برتقالة يافا».

وفي القدس كان صديق والدي، وعميله التجاري، رجلاً مضيافاً، دمثاً، وكريماً. يعتمر الكوفية والعقال، ويرتدي بذلة مدنية من جاكيت وبنطلون، وربطة عنق سوداء.

عانق والدي صديقه «عامر فلاح»، وقدمني إليه على أني رفيق الرحلة المباركة، فبادر الصديق إلى معانقتي، ثم قدم إلينا أفراد عائلته؛ مُعرِّفاً عنهم: الزوجة «أم خالد»، والابنة «حسانة»، والابن «خالد». كانت الخالة «أم خالد» سافرة الوجه، بزيّ راقٍ، وتسريحة شعر أنيقة.

وبدت «حسانة» صبية ذات ملامح يغلب عليها طابع البنات الجامعيات. أما «خالد» فكان فتىً لطيفاً، مهذباً.

دماثة تلك العائلة المقدسيّة لم تكن أقل من كرمها. فالمائدة التي جلسنا إليها في موعد العشاء كانت حافلة بكل أطايب الطعام الفلسطيني البلدي. وقد طال جلوسنا إلى المائدة أكثر من ساعتين كان خلالهما والدي و«أبو خالد» يخوضان في أسواق الحرير، والصوف، والنسيج، في حين رحت أنا، وابنة المضيف، نتبادل الكلام عن الأعلام في الثقافة العربية، والثقافة الأنكلوساكسونية، والفرنكوفونية. فالصبية «حسانة» كانت

خرِّيجة كلية التاريخ والحضارات القديمة في القدس، وهذا ما وفّر لنا الكثير من المواضيع المشتركة.

وبين الكلام عن «بالات» الصوف والنسيج من جهة، والكلام عن الآداب، والتاريخ، والفنون، من جهة ثانية، كانت السيدة الفاضلة «أم خالد» تسكب في صحوننا ما تشاء لنا أن نأكل.

كنا نتكلّم ونأكل من دون حساب للوقت، ولا لكميات الطعام الذي نلتهمه. وأنا شخصياً لم أستطع أن أعترض عندما وضعت ربة البيت في صحني، للمرة الثانية، قطعة كبيرة من «الكنافة النابلسية» التي لم أتذوّق ألذّ من طعمها بين كل ما تذوقت من حلويات.

ولقد طالت سهرتنا في ما بعد، لأنك، يا عزيزي السينيور، حين تفتح صفحة من التاريخ، تروح أحداثها تمر في خيالك، فيتجسد أمامك قادتها، ورموز آدابها، وفنونها. تنسى الوقت، وتجد نفسك خارج الزمان والمكان. وهذا ما فعلناه، حسانة وأنا.

كانت حلقة السهرة قد بدأت تضيق حين قامت «أم خالد» و«خالد» إلى النوم. وكانت النوادر قد نفدت من ذاكرة والدي والمضيف، ولم تعد تنفع فناجين القهوة والشاي في صدّ هجوم النعاس، فصار كل منهما يسرق غفوة بين هنيهة وأخرى.

وفجأة انتفض والدي من غفوته، فتنحنح، والتفت إليّ قائلاً بنبرة عالية:

ـ لا تنسَ يا بني، أن يوماً حافلاً ينتظرك غداً. فكما وعدتك، سوف تجول بين أبواب القدس، وتتعرف على حاراتها وأسواقها.

ثم استدار نحو مضيفنا: وسوف أطلب من أخي الكريم «أبو خالد» أن يتفضل علينا بتكليف من يثق به لمرافقتك في جولتك.

اعترض مضيفنا قائلاً: عتبي عليك يا أبا الطيِّب. أتتكلم عن مرافق ولدينا سائق، وسيارة، والحمد الله؟

ثم التفت إلى «حسانة» بافتخار: وأظن أن أستاذتنا في التاريخ قد تجد وقتاً لتكون برفقة الطيب. كما أن خالد في عطلة مدرسية، ويسرّه أن يكون في هذه الجولة.

هكذا تهيأتُ لجولة القدس كما لو أني ذاهب إلى مدينة في الحلم لا يضاهيها إلّا الفردوس. وكانت «حسانة» فائقة اللطف، والنباهة. قالت لي: سوف نجول على أبواب القدس، وعددها إثنا عشر باباً.

وقلت لها إن مدينتي مراكش تزيد القدس بأربعة أبواب. فعدد أبواب مراكش ستة عشر باباً.

ثم راحت تذكر لي أبواب القدس:

الباب المزدوج ـ الباب الثلاثي ـ باب الجنائز ـ باب الرحمة ـ باب الأسباط ـ باب الساهرة ـ باب العمود ـ الباب الجديد ـ باب الخليل ـ باب النبي داوود ـ باب دمشق ـ وباب المغاربة.

فقلتُ لها بنبرة فرح: باب المغاربة يا آنستي.. لنبدأ ببابنا.

غير أننا لم نترك باباً إلّا وعبرناه. مررنا في حارات المسلمين، والنصارى، واليهود. كنت أسمع أستاذة التاريخ تشرح، وهي تشير بأناملها إلى ما نشاهد أمامنا، فيُخيّل إليّ أني أسمع صوت رسولة مقدسية تقول من خلف الأسوار والأبواب:

هذه هي القدس. هذه «أورشليم» التي تعني مدينة السلام. لكنها القدس العربية، مدينة الله والأنبياء، والرسل. هذه مدينة الإيمان والقداسة. هذه مدينتي. هذه أمي..

كانت حسانة تلفظ «القدس» مشددة على حروفها، كما لو أنها ترافع أمام هيئة قضاة يحاولون أن ينكروا عليها أمها.

تصوّر، يا عزيزي «السينيور»، أن حسانة كانت تقترب من الجدران فتلمسها وتتحسسها، ثم تنظر إليّ وتقول: إني أشم رائحة حجارة الصوان تقدح شرراً تحت حوافر خيول جيش صلاح الدين وهو يطارد فلول الغزاة الصليبيين في هذه الشوارع.

فقلت لحسانة التي كانت مسترسلة في غياهب التاريخ:

ـ يبدو لي، يا آنستي، أنك، أنت، وأنا، من جيل شهود على نهاية عصر الشرق، وعلى بداية عصر الغرب. فهل كُتب على جيلنا أن يحوّل وجهته من «الآستانة» إلى لندن وباريس وواشنطن؟

وقلت لها: لنستذكر معاً، يا آنستي، أن الجنرال البريطاني

«أللنبي» دخل القدس فاتحاً في العام ١٩١٨، فتوجه إلى حرم المسجد الأقصى ليقف أمامه، ويعلن كذبته الكبرى:

ـ اليوم أنهينا الحروب الصليبية.

وقلت لحسانة: لكن الأكثر غروراً، وفجوراً، من الجنرال «أللنبي»، كان الفرنسي الجنرال «غورو»، ذاك الذي دخل دمشق بعد ثلاث سنوات، وتوجه إلى ضريح صلاح الدين الأيوبي ليصيح أمامه:

ـ ها قد عدنا يا «صلاح الدين».

واستذكرت مع حسانة بيت الشعر الشهير من قصيدة أحمد شوقي الذي خاطب فيه الجنرال أللنبي:

«يا فاتح القدس خلّ السّيف ناحية

ليس الصليب حديداً كان بل خشبا»

كان الطيّب مسترسلاً في رحلة القدس. وكان «السينيور» مصغياً للمغربي، عاشق المشرق، فاستأذنه ليسجل ملاحظة:

ـ أخاف، يا الطيّب، أن يتحول القادة العرب إلى الشعر، ليصنعوا منه سيوفاً يحاربون بها جيوش بني إسرائيل وأساطيلهم.

ـ ربما، ربما. قال الطيّب وأضاف: لكن دعنا من التشاؤم. فقد قلت لحسانة بعد شعر شوقي:

لولا الإنكليز لما صدر وعد «بلفور» بإنشاء دولة لليهود في فلسطين. ولولا الإنكليز لما تجرّأ اليهود على رفع السلاح في وجه الفلسطينيين. ولولا الفرنسيون لما تشرذمت بلاد المغرب.

ومرّة ثانية، تدخل السينيور ليقاطع الطيِّب، فدار بينهما جدل سريع:

ـ السينيور: لكن لولا الفرنسيين والانكليز لما تحرّرت بلاد المشرق من السلطنة العثمانية.

ـ الطيِّب: لكنهم حرّروها ليستعمروها.

ـ السينيور: صحيح، لكنهم فعلوا الكثير ليُمدِّنوها.

ـ الطيِّب: كأنك تدافع عن الاستعمار!!

ـ السينيور: أحرجتني، يا طيِّب، لكن التخلف أخطر من الاستعمار.

ـ الطيِّب: صحيح، يا أخي، هذا صحيح، لكن فاتني أن أقول لك، أن حسانة قادتني، ونحن نجول في أحياء القدس، إلى الكلية التي تخرّجت منها. أرادت أن تقدمني إلى راعي الكلية. كان ذلك الراعي بلباس أسود رسمي، تميّزه عن سائر الأساتذة رقعة بيضاء ناصعة في وسط ياقته. وقد جلس وراء مكتبه البسيط في غرفة عالية السقف، واضحة العراقة.

وقالت حسانة في التعريف عني للراعي الإنجيلي بالانكليزية: إذا كنت، يا سيدي، تنوي رفع صفوف القسم الفرنسي في

كليتنا، فأعتقد أنك لن تجد أستاذاً أفضل من صديقي وضيفي الطيب جلال المليلي. إنه خرِّيج كلية الآداب والفنون الفرنسية في مراكش.

قالت حسانة ذلك على سبيل المجاملة. وكانت تبتسم. لكن الراعي المحترم قام عن مقعده وصافحني مجدداً، ثم قال لي مرحّباً بلغة فرنسية عالية: أنا سعيد جداً بلقائك، وأشكر ابنتنا «حسانة فلاح» على تدبير هذه المناسبة.

كان ينظر إليّ باهتمام بالغ، وأنا كنتُ قد بدأت أرتبك. بل كنت قد صرت فعلاً مرتبكاً، إذ فاجأني الراعي بأنه أخذ المجاملة التي قدمتني بها حسانة إليه على أنها عرض للتدريس في كليته.

وتطلّعتُ إلى حسانة فرأيتها هي أيضاً مرتبكة، ثم كان عليّ أن أتصرف بسرعة وبلباقة أيضاً، فقلت للراعي المحترم أني زائر عابر في القدس، وسيكون لي الحظ والشرف إذا ما انتميت إلى سلك التدريس في كليته.

وما إن خرجنا من باب الكلية حتى بادرتُ حسانة سائلاً: ماذا حدث؟. هل قصدتِ أمراً ما؟

فأجابت فوراً: أبداً. أبداً. كانت مجرد مجاملة منّي قصدتُ بها التعريف عنكَ كأستاذ في الآداب والفنون.

وأردفت: على أي حال ظُنّ خيراً.

كانت سيارتنا على مسافة أمتار قليلة من المدخل الخارجي للكلية. وكان «خالد» شقيق حسانة، يقف على بضع خطوات منا. وبغتة استوقفتني حسانة على الرصيف لتقول لي:

ــ أيها الأخ الطيّب، أنتَ عربي مراكشي من المغرب، وأنا عربية فلسطينية من المشرق، فهل تستطيع أن تقول لي ماذا يجمعنا؟

فاجأني سؤال حسانة، فلم أحر جواباً سريعاً. وأصلاً لم يسبق لي أن واجهت مثل هذا النوع من الفكر السياسي الذي يوغل في أعماق جذور التاريخ، ويحاول أن يستشرف المستقبل العربي. والحقيقة أنني لم أكن مُهيّأً لأدلي بجواب مرتجل.

كنا على الرصيف، وكان «خالد» يقف بانتظارنا، وهو قد أنقذني بمبادرة عفوية منه. إذ سأل حسانة:

ــ إلى أين سنذهب؟ فأجابت: إلى المنزل.

بعد ذلك لزمت حسانة الصمت، لكن سؤالها ظل معلقاً: «أنت عربي مراكشي من المغرب. وأنا عربية فلسطينية من المشرق، فماذا يجمعنا؟».

وعوضاً عن الجواب سألتها: هل تأخرنا في جولتنا؟

ــ لا لم نتأخر. فالقدس تستحق شهوراً لتعرفها.

حين وصلنا إلى منزل عائلتها في حي «الشيخ جراح» كان

والدها قد اصطحب والدي إلى المسجد الأقصى حيث أديا صلاة العصر، ثم عادا وجلسا في الحديقة بانتظارنا.

كنت قد حملتُ معي من مكتبة قديمة في القدس كتاباً نصحتني «حسانة» بقراءته، وهو لثلاثة رحّالة أوروبيين يروون فيه مشاهداتهم وانطباعاتهم عن القدس وهم في طريقهم إلى الجزيرة العربية. وكانت نصوص الكتّاب تعود إلى منتصف القرن التاسع عشر.

واستأذنت لأنتحي جانباً من الحديقة، ورحت أتصفح الكتاب، وقد لاحظت أن حسانة حرصت على أن تترك لي الوقت. لكنّي، وأنا منهمك في القراءة، كنت أصيخ السمع إلى ما يدور في الحلقة الملتفة حول النافورة. كنت أسمع اسمي يمر بصوت حسانة، وهي تصف لوالدي ووالديها دهشتي، وبهجتي، وأنا أجول معها في حارات القدس ونسترجع التاريخ في الآثار الصامتة.

كان الطقس ملائماً للسهرة تلك الليلة، فطالت جلسة الحديقة، وتخللها عشاء خفيف، وكنت الممتنع الوحيد عن الطعام، وقد اكتفيت بصحن من الكنافة النابلسية.

ومثل إنذار، جاءني صوت والدي منبّهاً:

ـ تذكّر يا بني، أننا غداً صباحاً، سنكون، بإذن الله، مع عمك «أبو خالد» في محطة القدس، لننطلق على بركة الله في قافلة الحجاج إلى بيت الله الحرام. يعني أننا سنودِّع عائلة عمك «أبو خالد». لأننا في طريق العودة، إذا قدَّر الله لنا أن نعود

سالمين، سوف ننزل في دمشق، ومنها إلى حلب، ثم إلى بيروت، لنبحر بعون الله، إلى بلادنا.

وكان عليّ أن أطبق كتابي، وأقف طائعاً، استعداداً للتوجه إلى النوم. وقام مضيفنا وتقدمنا إلى الداخل، فتبعناه.

صدِّقني، يا أخي، كنتُ كمن يُساقُ إلى زنزانة. فأنا ما كنت أريد لتلك الليلة أن تنتهي لأبقى مُساهراً حسانة. لكن أمر والدي غير قابل للاسترجاء.

وفي الرّواق الفاصل بين غرف النوم تبادلنا و«أبو خالد» المجاملة العربية اللطيفة: تصبحون على خير.

وفيما كنت أضع يدي على مقبض باب غرفتي، حانت مني التفاتة إلى الناحية المقابلة في الرواق، فرأيت حسانة واقفة أمام غرفتها، ويدها على مقبض الباب، فأحنيتُ لها رأسي وتمتمت: «تصبحين على خير». ولم أسمع لها صوتاً. فقد تمتمت لي بعينيها: تصبح على خير.

تلك الليلة، دخلت غرفتي وكأني من أهل البيت، وأنا الذي لم يكن قد تيسّر له أن يتبين ماذا في تلك الغرفة.

أما وأن تلك الليلة هي الثانية، والأخيرة، مع حسانة، فقد أذنت لنفسي أن أستكشف الغرفة. لا لغرض، أو لغاية، إنما للتعرف إلى ذوق العائلة الفلسطينية التي تستضيفنا.

كنت قد أشعلت الأضواء، وكان شعاعها أصفر خافتاً، ورحت

أجول بنظري على الجدران، وعلى الستائر، ولاحظت أن الستائر وردية اللون ومسدلة على النوافذ. وكانت النوافذ كلها مغلقة، ما عدا واحدة هي التي تطل على فناء الحديقة. كانت إحدى درفتي تلك النافذة مشقوقة بانفراجة تسمح لعطر الياسمين بالتسلل إلى الغرفة. لكن العطر الأقرب إليّ كان يفوح من كوب مياه صغير على منضدة إلى جانب السرير. كان في الكوب عرْق ياسمين يحمل زهرتين نضرتين. رفعت الكوب وتنشقت العطر. إنه عطرها.

وكانت على الجدار المقابل للسرير لوحة زيتية تمثل وجه جميلة أريستوقراطية. نزلتُ عن السرير لأتبين توقيع الرسام على اللوحة، فلم أستطع أن أفهمه. وقدّرتُ أن تلك اللوحة تعود إلى أميرة بريطانية من العصر الفيكتوري.

كانت في زاوية الغرفة أيضاً طاولة مستديرة عليها بعض الصور المبرْوزة، فاقتربت منها ورحت أحملق في الصور. كانت الصورة الأولى لحسانة. وقد بدت متألقة في زي التخرج الجامعي بالروب، و«الغاون» على رأسها. وفي الصورة الثانية كانت بلباس كشافة الجراح.

أما في الصورة الثالثة فكانت لاعبة «تنس» ترفع كأساً فازت بها في مباراة.

«إذاً أنا في غرفة حسانة. بل أنا في سريرها». قلت لذاتي وأنا أدقق في خصوصيات الغرفة.

كانت هناك أيضاً مكتبة صغيرة في ركن بين زاويتين، فوقفت أمام المكتبة ورحت أقرأ العناوين. كانت مجلّدات في الأدب والتاريخ، والفلسفة والشعر، بالعربية والإنكليزية.

لم أمدّ يدي إلى أي كتاب، فقد كنت أحمل الكتاب الذي نصحتني حسانة بقراءته، فتمددت على سريرها، وغرقت في صفحات ذلك الكتاب، ولم أتركه إلّا وقد فرغت منه.

ـ هل تتذكر عنوان ذلك الكتاب؟. سأل السينيور الطيّب.

ـ وكيف لي أن أتذكر؟. أنا كنت أقرأ لأبدِّد القلق الذي كان ينتابني، فقد كنتُ أحسب الساعات الباقية على موعد مغادرة القدس.

قال الطيِّب، وتابع مسترسلاً بشغف:

كان يلحّ عليّ خاطر لم أستطع مغالبته. وبقيت ساهراً. فلم ينبّهني إلى طلوع الفجر إلا عصفور حطّ على درفة النافذة، وبعث إشارة إلى داخل الغرفة. خُيّل إليّ أن ذلك العصفور على موعد دائم مع حسانة عند كل فجر.

كانت الساعة تقترب من الخامسة فجراً. ولا أدري كم من الوقت فكرتُ قبل أن أغفو. ولا أعلم إن كنت قد غفوت. وحين سمعتُ نقر أصابع والدي على الباب، فتحتُ عينيّ، وكتمتُ صوتي.

وأعاد والدي الكرّة، ولم أجب، ففتح الباب ودخل. فقلت له من تحت اللحاف:

ـ أنا مريض يا أبي.

ـ مريض؟. ما بك يا وِلْدي. بماذا تشعر؟ سمعته يسألني بلهفة.

فقلت له، وأنا أحاول أن أزيح اللحاف عن وجهي: أشعر، يا أبي، بخفقان شديد في قلبي، وبدوار في رأسي، ويسيطر عليّ خمول يقعدني في مكاني فلا أستطيع النهوض.

وتوقفت قليلاً لأعود وأقول، وقد خفتَ صوتي أكثر: «إنه شيء من دوار البحر يعاودني، يا أبي. لكنه هذه المرة أشدّ وأصعب».

كان والدي قد وضع كفه على جبيني، فنظرت إليه بعينين ذابلتين. كنت ألهث مع الأنين، ثم بالكاد طلع صوتي لأقول له:

ـ لن أستطيع السفر معكم، يا أبي. يبدو أني لا أستحق نعمة الحج. ليسامحني الله.

وفي تلك الأثناء سمعنا مضيفنا يتنحنح في صالون الاستقبال القريب. فقال والدي: سوف أخرج لأسأله عن طبيب نذهب إليه.

ولم يتأخر الطبيب حتى جاء. فقد استدعاه «أبو خالد» على عجل، وقد ناب عني والدي بشرح حالتي. وبعد فحص دقيق قال الطبيب:

ـ عارض بسيط سببه إرهاق السفر ودوار البحر. يمكن للشاب أن يرتاح وأن يشرب الكثير من الماء والسوائل.

ولاحظتُ أن القلق قد غشى وجه والدي. فقال للطبيب:

ـ نحن، يا دكتور، نستعد للانطلاق في رحلة الحج في الساعة الحادية عشرة قبل ظهر اليوم، ولا نستطيع تأجيل السفر. فهل تعتقد أن حالة الولد ستستمرّ أكثر من أربع ساعات؟

وقبل أن يجيب الطبيب قلت لوالدي بصوت شبه مخنوق:

ـ لا أستطيع، يا أبي، لا أستطيع. أنا لا أقوى على رفع رأسي. وقد حاولت قبل قليل أن أجلس في السرير فشعرت بالغرفة تدور بي.

وأراد والدي أن يشجعني فقال لي:

ـ لا بأس عليك يا وِلْدي، حاول أن تنهض وأن تتحمل، وتجالد، وسيكون الله في عونك، فأنت ساعٍ لنيل النعمة والبَرَكة.

لكني قلت له وأنا ألهث: لا أستطيع، يا أبي. أخاف أن أموت على الطريق فأسبّب لكم عذاباً.

«لا حول ولا قوة إلا بالله.» راح يردِّد والدي. وتدخل مضيفنا أبو خالد قائلاً:

ـ يا أبا الطيِّب، الولد مريض. فلندعه هنا بعناية الله، ونتيسّر نحن. وسيكون صديقنا وقريبنا الدكتور خير من يعتني به.

وأردف العم أبو خالد:

ـ الطيِّب في بيته وبين أهله، و«أم خالد» سوف تكون له بمثابة الأم، فعلامَ القلق، يا أبا الطيب؟

نزل كلام العم «أبو خالد» عليّ برداً وسلاماً.

وكان الطبيب قد كتب لي وصفة دواء، وغادر، فتطوّعت حسانة لتأتي بالدواء من الصيدلية، وعادت إلى الغرفة بكوب ماء قطرت فيه ثلاث نقاط من الدواء، ثم قدمته إليّ:

ـ عليك أن تتناول هذا الدواء خمس مرات في اليوم لمدة خمسة أيام. قالت ذلك ثم خرجت.

اقترب والدي وأخذ يدي، وجسّ نبضي، ثم انحنى وطبع قبلة على جبيني، فأخذت يده ولثمتها. وسمعته يقول لي:

ـ هل أستطيع يا بني، أن أسافر مطمئناً عليك؟

فومضت بعيني مؤكّداً أني سوف أكون بخير إن شاء الله.

وإذ تأكدت أن والدي و«أبو خالد» غادرا إلى محطة السفر، غرقت في النوم، ولم أستيقظ إلا على طرق الباب. ولوهلة

ظننت أن والدي هو الطارق، فرفعت اللحاف فوق رأسي، لكني سمعت صوت حسانة تسأل: هل تحسّنت يا طيِّب؟

فكشفت اللحاف عن وجهي، ورأيتها تنظر إليّ كطبيبة مناوبة في مستشفى. وأعادت السؤال عليّ:

ـ كيف تشعر الآن؟

ـ الحمد لله، أشعر بتحسّن يا آنستي.

فقالت: ممتاز.. وأردفت: خذ الآن الجرعة الثانية من الدواء، وسوف تتحسّن أكثر، فتتمكّن من أن تتناول طعاماً خفيفاً. هل تحب شوربة الهليون؟

فقلت لها: أنت تعرفين ماذا يفيدني يا دكتورة.

لم تعلِّق على مناداتها «الدكتورة». حتى أنها لم تتطلع إليّ. فقلتُ لها: «لا أدري لماذا عاودني ذلك الدوار الذي أصابني، وأنا على الباخرة، من «طنجة» إلى يافا. هل تعتقدين يا دكتورة أن هذا الدواء يفيدني؟».

أجابت وهي تناولني الكوب:

ـ لا أظنّ أنه سوف يشفيك سريعاً. لكن يجب أن تداوم عليه، وأن تبقى مرتاحاً في السرير.

أخذتُ نفَساً عميقاً، ثم سألتها:

ـ عفواً، كم يوماً تظنّين أني سأبقى في السرير؟

ـ أظن أنك سوف تبقى فيه حتى يعود والدك.

قالت ذلك وهي ترمقني بنظرة باردة. ثم خرجت.

□ □ □

VIII

ـ كم يوماً طال غياب والدك يا طيِّب؟

ـ عشرة أيام، عاد بعدها مع العم «أبو خالد» بغتة، وكان الوقت عصراً حين وجدني جالساً مع حسانة في الحديقة. هي كانت في عباءتها الحرير، وأنا كنت في كامل أناقتي، فسارعت إلى ملاقاته، وأخذت يده ولثمتها، وإذ مدّ ذراعيه وضمّني تنشقت عبق البرَكة في جلبابه. وفي تلك الأثناء كانت حسانة بين ذراعي والدها، فيما الخالة «أم خالد» وخالد ينتظران دورهما، ثم دلفوا إلى الداخل، وبقيت مع والدي في الحديقة فسألني:

ـ هل لازمت السرير طويلاً يا وِلْدي؟

قلت له: لم أبارح السرير يا أبي إلّا منذ يومين. لكني كنت أنهض لتناول الطعام والدواء، وللجلوس أحياناً في الحديقة.

ثم أثنيت على الخالة «أم خالد». قلت لوالدي أنها عاملتني كما لو أنها أمي. وكانت متسامحة معي ومع حسانة.

وسألني: ماذا تعني أنها كانت متسامحة معك ومع حسانة؟

ـ أعني أنها كانت تمنحنا فرصاً لنجلس معاً، وأحياناً كنا نقوم بنزهة قصيرة، ونتبادل الأحاديث والآراء.

ـ وحول ماذا كانت تدور أحاديثكم؟

ـ حول جيل الشباب، والهوايات، والعادات، والتقاليد في مراكش وفي القدس.

كنت أجيب عن أسئلة والدي وأحاول أن أستكشف ماذا يقصد، فرأيته يصمت ويفتح فمه واسعاً، فتظهر أسنانه الصفراء وهو يحكّ بإصبعه عند زاويتي فمه، ثمّ قال لي:

ـ فلنستعدّ لمغادرة القدس غداً صباحاً إلى «يافا». وأردف: فإن وفقّنا الله بباخرة تكون وجهتها «طنجة» أو «كازابلانكا» كان خيراً، وإلّا فسوف نقيم في أحد الفنادق في حيفا ريثما ييسّر الله أمرنا.

وفجأة، صمت الطيّب، وأخذ يتلمّظ، ثم أكمل:

ـ ماذا أقول لك، يا سينيور؟ لقد أُسقط في يدي. لكن كان عليّ أن أتصرف بسرعة وبجرأة، فقلت لوالدي:

ـ سوف أُصدِقُك القول يا أبي..

فرماني والدي بنظرة لا أتذكر أني رأيتها في عينيه من قبل:

ـ ماذا تريد أن تقول لي يا طيّب؟

ـ أريد أن أقول لك أني وقعتُ في حبّ حسانة.

وشعرت بالمفاجأة تصدمه، فعاجلته بمفاجأة ثانية:

ـ لديّ طلب يا أبي. طلب واحد فقط أرجوك أن تُلبّيه، ولن أطلبه منك مرة ثانية في العمر.

وسألني بهدوء بالغ البرودة:

ـ ماذا تطلب مني؟

ـ أطلب منك أن تطلب لي يد حسانة من والدها.

ـ وغير ذلك. ماذا تطلب؟

ـ لا شيء.

تبادلت هذه الأسئلة والأجوبة مع والدي بسرعة فائقة، كما لو أننا نجري حواراً في مسرحية.

وإذ لزم والدي الصمت لبضع لحظات عاد وسألني:

ـ وهل كاشفت حسانة بأمرك؟

ـ لا أظنّ أنها غافلة.

ــ وهل ترى من المناسب أن أتحدث مع والدها هذه الليلة؟

وأجبت فوراً:

ــ أعتقد أن هذه الليلة مناسبة جداً.

وسمعته يُتمتم بما لم أفهم.

ثم رفع صوته طالباً مني أن أتركه ليرتاح. فنهضت وانسحبت إلى غرفتي مطأطئ الرأس. وقد شعرت، وأنا أعبر الرواق، ان شجاعتي، أو براعتي، قد أعطت ثمرتها الأولى. لقد أنبتت بُرعماً. وبدأتُ أخاف على ذلك البرعم. وقلت لنفسي: لماذا لا أرتاح الآن؟ وغفوت متكئاً على الأريكة.. إلى أن سمعت صوت مضيفنا في الرواق يسأل والدي:

ــ أنأخذ الشاي في الحديقة يا أبا الطيب؟

فيردّ والدي: فليكن.

ثم جاءت أصواتهما وهما يعبران الممر الضيق في الحديقة، خلف نافذة غرفة حسانة التي أنا فيها، فنهضتُ ورحتُ أذرع الغرفة، طولاً وعرضاً، وأنا أفرك كفاً بكف.

ولا أُخفي عنك، يا سينيور، أني لم أكن نزيهاً إلى حد الامتناع عن استراق السمع إلى ما كان يدور بين والدي و«أبو خالد». بل أعترف لك بأني أصغيت ملياً من خلف ستارة النافذة لعلي أسمع كلمة مفهومة، فلم أفلح. كانا يتكلمان بصوت منخفض.

وتابعتُ الدوران بين زوايا الغرفة محاولاً أن أنسى الوقت، وأين أنا، ولماذا أنا حيث أنا.. ولم أكن أنتظر إلا أن أسمع طرقاً على الباب، وأن يدخل والدي، فيضع حداً لذلك القلق المشحون بالأمل الذي استبدّ بي. لكن انتظاري طال. وسمعت «أبو خالد» ينادي زوجته لتأتي إلى الحديقة. وقلت في نفسي إن النتيجة اقتربت. ثم وضعت أُذني في شق الستارة المسدلة على النافذة، وقد انعدم شعوري بمرور الوقت تماماً.

وإذ سمعت ام خالد تنادي حسانة لتنضم إليهم، قلت: إنها ساعة الحسم. شعرتُ بحواسي كلها تتجمع في أذني لعلي ألتقط كلمة واحدة، ودخلتُ بخيالي في فكر حسانة، مستعيداً عشرة أيام من اللقاءات معها.

ترى، هل هي على الموجة ذاتها معي؟

لبثتُ في مكاني كمتّهم في قفص محكمة ينتظر خروج القضاة من خلوتهم للنطق بالحكم.. وكنت أنتظر والدي ليأتيني بالحكم.

كنت ما أزال واقفاً وراء النافذة باتجاه الحديقة حين سمعت طرقاً على باب الغرفة وفي تلك اللحظة انعدم إحساسي كلياً. صرت كأني لا أنتظر شيئاً، ولا أتوقع شيئاً. واستدرتُ في مكاني، فرأيت الباب يُفتح.

ولم أرَ والدي، إنما رأيت حسانة. كانت واقفة تنظر إليّ صامتة، فبادلتها النظرة والصمت.

حاولتُ أن أستشف جواباً في عينيها، لكنها تحصّنت في صمتها.

ولا أدري لماذا، في تلك اللحظات، ظهر في مخيلتي وجه معلمة مدرستي الابتدائية في مراكش. كانت تلك المعلمة تعاقبني بالحبس الانفرادي في غرفة ضيقة كلما اقترفتُ ذنباً. وكنتُ الأول في صفي باقتراف الذنوب المدرسية، كما كنت الأول في العلامات.

مثل تلك المعلمة بدت لي حسانة، وأنا أقف قبالتها في زاوية الغرفة، تماماً مثل تلميذ مذنب ومُعاقب.

ثم ما لبثتْ أن نطقتْ بنبرة خلتها نبرة المعلِّمة القاسية عينها، قالت لي:

ـ أليست لديك الجرأة لتطلب مني يدي؟

شعرتُ بالإهانة. لكني تحايلت، فقلت لها:

ـ لديّ الجرأة، يا آنستي.. لكنها التقاليد.

وردّت متحدية: لكن كانت أمامك فرص كثيرة خلال أيام مرضكَ المزعوم لتعبّر عن شعورك، ولم تفعل.

وقلت لها: صحيح، لكني تحسبت لاحتمال أن تفاجئيني بقولك «لا»، ولذلك انتظرتُ حتى عودة والدي مع والدك، لأطلب منه أن ينوب عني بطلب يدك ويتلقى هو جوابك.

لكن حسانة صدمتني بسؤال آخر:

ـ وإذا عدت الآن إلى والدك وقلت له «لا» فماذا تفعل يا طيِّب؟

ـ أخطفك!.

قلت لها ذلك فوْراً. ولا أعرف كيف وقعت تلك الكلمة على لساني.

لكني رأيت حسانة تُرخي رموشها مثل عروس قروية.

ثم تقدمتْ، ومدّت يدها إليّ:

ـ هاكَ يدي.

لفظ الطيِّب جملته بنبرة المنتصر، ثم قال:

ـ لم أعد أذكر، يا سينيور، إن كنت قد أخذت يدها، أم أنني أخذتها كلها.

ثم خرجنا معاً إلى الحديقة، وقد حرصت حسانة على أن أحتفظ بيدها ونحن نخطو صوب والديها، فوقفنا أمامهما. ونطقت حسانة قرارها:

ـ لقد قبلتُ طلب الطيب.

وساد الصمت، فتبادل «أبو خالد» و«أم خالد» النظرات، ثم تطلعا إلى حسانة، ثم إلى والدي.

«مبروك.. مبروك». كلمة واحدة راحت تتردد في الحلقة الضيّقة.

ثم قام والدي بمبادرة عالية القيمة والمعنى. وقف ليلقي كلمة، وكأنه في حفل رسمي جماهيري، فتحولت إليه أنظارنا، نحن الخمسة الحضور والمستمعين. فقال:

ـ أخي أبا خالد، أختي أم خالد، ابنتنا العزيزة حسانة. شكراً لكم.

وتابع: كان جلال بن عمر المليلي ابننا، فصار ابنكم وإبننا. وكانت حسانة بنت عامر فلاح ابنتكم، فصارت ابنتنا وابنتكم.. أما وقد أنعم الله علينا بهذه البرَكَة من أسرتكم الكريمة، فإنني أستطيع أن أغادر صباح غد، بإذن الله إلى مراكش.

وللوهلة الأولى انتظرنا، يا عزيزي السينيور، أن يوضح والدي سبباً يدعوه إلى استعجال سفره، لكنه أردف يسأل مضيفنا:

ـ .. فهل ترى، يا أبا خالد، أن يتم عقد قران الطيب وحسانة قبل مغادرتي؟

ما إن سمعتْ أم خالد طلب والدي حتى انتفضت لتُبدي رأياً. لكن أبا خالد اعترضها، واتجه نحو والدي قائلاً:

ـ كما ترى، يا أبا الطيِّب.

ثم استدرك: لكن لنسأل الخطيبين، إنهما هنا، ولهما رأي.

وتحولت الأنظار إليّ وإلى حسانة، وكان علي أن أبادر إلى جواب، فقلت: إذا كانت حسانة لا تمانع في عقد قراننا هذه الليلة فليكن.

ولم تتردد حسانة، فقالت: لا أمانع.

هكذا، يا سينيور، راحت الأمور تسير بسرعة مذهلة. فلم يحلّ المساء إلا وكان عقد القران قد تمّ بحضور والدي وبمباركته.

ومجدداً عدنا إلى التحلق حول النافورة، وفجأة وقف والدي فظننت أنه سيدلف إلى داخل المنزل. لكنه اتجه نحو والدَي حسانة ليلقي خطبة ثانية. قال:

ـ منذ هذه الساعة أصبح الطيب جلال سيد نفسه ومالك قراره. لذلك، فإني أتركه بينكم وأغادر غداً، مطمئناً عليه. كما أني أدعو إلى الله أن يسعده مع حسانة، فيكون لهما بيت متين الأركان، وأسرة غنية بالتقوى والإيمان.

فما كان من أبو خالد إلا أن وقف بدوره وقال:

ـ يا أبا الطيِّب، تشرفنا وتباركنا بهذه المصاهرة. لكنك فاجأتنا أولاً بطلب يد حسانة، ثم فاجأتنا بطلب استعجال عقد القران فوراً. والآن تفاجئنا بسفرك بمفردك غداً. وقد حدث كل ذلك في ساعات. وهذا نادراً ما يحدث، بل لا يمكن أن يحدث في بلادنا، وفي مجتمعنا. فنحن في فلسطين لدينا تقاليد للخطوبة، وللعرس، والفرح. وأظن أن لديكم تقاليدكم أيضاً. فماذا تخفي عنا يا أبا الطيب؟

برصانة، وباحترام، أجاب والدي:

ـ لا أخفي ما يعيب، أو يسيء. ولا نية عندي إلّا نية الخير، فأنا والد الطيب. لكني لم أعد وكيله، ولا وصيّه، ولست مالكاً قراره، فقد تجاوز سن الرشد، وإني لمبارك خياره.

لكن أم خالد انتفضت لتخاطب والدي بنبرة تنضح بالعتب:

ـ لا بد أن ثمة سبباً نجهله قد جعلك تودعنا بهذه الطريقة، يا أبا الطيب. فكما أنك والد الطيب، وقد باركت خياره، نحن أيضاً، والدة حسانة ووالدها، أخذنا بقرارها، وباركنا خيارها. لكن اسمح لي أن أقول لك: إنني، شخصياً، ألاحظ أنك قد تبدلت بين ما كنت قبل عقد الخطوبة وما بعدها. وهذا أمر يعنينا بكرامتنا.

أحرجت أم خالد والدي بعتابها الشديد. وقد بدا متحفزاً لمقاطعتها، لكنها استأذنته لتكمل:

ـ نحن عائلة تقدس واجب الضيافة، وجنابك ضيفنا. فأوضح لنا السبب. ماذا حصل؟

ساد صمت ثقيل، وساورني شعور بأن الحلم الكبير الذي وُلِد في ساعات، وتحقق في دقائق، بدأ يتلاشى، وأحسستُ كأن حسانة تسحب يدها من يدي.

كان والدي قد ابتلع ما يكفي من ريقه ليكسر الصمت ويقول متوجهاً إلى أم خالد:

ـ أستغفر الله، يا أختي. لقد فاض كرمكم علينا، كما أدبكم. لكن لكل امرىء أسبابه وظروفه في حالات لا تعني سواه ليعلن عنها. وفي أي حال أرجوكم ألا تكونوا قد أخطأتم الظن. فربما كنا، نحن المغاربة، نفتقد بعض الكياسة العربية المشرقية. لكن قلوبنا نقية وشفافة. ولذلك أعتذر عن أي سوء إفهام صدر عني.

وهكذا يا عزيزي السينيور، سرت كلمات والدي مثل لفحة هواء باردة أنعشت الجو المحموم الذي كان قد أطبق علينا.

وفي الصباح بكّر والدي وأبو خالد بالخروج إلى الحديقة لتناول القهوة. ولم يطل الوقت حتى وصلت سيارة أجرة، فناداني والدي طالباً منّي أن أحمل حقيبته إلى الرصيف. لكن أبا خالد كان أسرع مني، فحمل الحقيبة قائلاً:

ـ شرفتنا، وآنستنا، يا أبا الطيب، أستر ما شفت منا.

وإذ تعانق والدي وأبو خالد تقدمت حسانة فانحنت على يد والدي تلثمها وتقول: رضاك يا عمي. فقبّلها على رأسها.

أما «أم خالد» فقد صافحته وحمّلته سلاماً إلى الأهل والعائلة في مراكش.

وما لبث والدي أن التفت إليّ ثم وضع يده على كتفي، فمشيت إلى جانبه بضع خطوات، حتى إذا ابتعدنا عن السمع، توقف ليقول لي بصوت منخفض:

ـ إنهم يلحّون علي لمعرفة السبب الذي أخفيه عنهم، والسبب عندك. أنت تعرفه، وتعرف أني أعرفه.

وأردف وهو يكزّ على أسنانه: إسمع، يا طيب. ما كنت أريد لك أن تبدأ مستقبلك بسقطة ذليلة كسقطتك هذه. لقد خرجت معي بكامل إرادتك إلى الحج طلباً للنعمة، لكنك لم تحصل عليها، لأنك لا تستحقها. وها أنت تخرّ راكعاً أمام أول فتاة صادفتها خارج بلادك. «إخْس عليك».

ثم صعد إلى السيارة فأقلعت به، مخلّفة وراءها زوبعة من الدخان والغبار، وقد كنتُ أنا في عين تلك الزوبعة.

عند هذا الحد توقف الطيب ليطلب كوبين من البيرة ويكمل قصته للسينيور:

ـ بيد أني لم أحفل بالوداع المهين الذي لقيته من والدي. فقد نجحت حيلتي بادّعاء المرض، وتخلفتُ عن الحجّ سعياً إلى حسانة، وقد ظفرت بها، وليسامحني الله.

ثم استدرك: لكن ما كان لتلك الحيلة أن تنجح لولا براعة حسانة في دور الممرضة. وهي كانت قد اكتشفت حيلتي فور أن قرأت خلاصة تركيبة ذلك الدواء. فهو لم يكن إلّا نوعاً من محلول النعناع «مفيداً للانتعاش»، وليس أكثر.

وعاد الطيب وأطلق آه، فخرجت من صدره مثل تنهيدة مفجوع، ثم لاذ بالصمت. وقد احترم السينيور صمته وظل هو صامتاً، حتى عاد الطيب وقال له:

ـ لقد فتحتَ جرحي بمبضع حاد دون تخدير؟

فاعتذر السينيور محرجاً:

ـ لم أكن أقصد إلّا أن أسمع جوابك عن سؤالي: لماذا أنتَ على هذه الباخرة؟

وفركَ الطيِّب عينيه ونظر إلى لافتة «فلسطين» التي كانت مسندة إلى حافة الطاولة، فأمسكها وقال:

ـ هذه «فلسطين» كلمة على رقعة كرتون. لكن هناك كلمة أخرى تحت حبر كلمة «فلسطين». ثمّة اسم مكتوب بحبر لا يُرى، ولا يُقرأ إلّا بعينيّ وبعيني حسانة، وبعيون آخرين من أهل القدس ما زالوا هناك.

ثم أخرج من جيب سترته صورة عائلية وضعها أمام السينيور، وراح يشير بإصبعه إلى الوجوه ويسميها:

ـ هذا أنا وحسانة في الوسط، كما ترى. وإلى يمين حسانة ابنتانا «ميليليا» و«رملة». وإلى يساري أنا، ابننا البكر «صلاح»، ورفيق صفه «هاني».

وتابع الطيِّب:

ـ وإذا سمحت لي، يا سينيور، سوف أحاول أن أستعين بجميل الأدب، الذي لا بدّ أنك تتقنه، باللغتين الفرنسية والعربية، لأصف لك مناسبة هذه الصورة: كنا في قاعة مطعم

فرنسي في القدس، داخل فندق مميز بطابعه «الأنكلو ساكسوني». وكنا ضمن مجموعة من المقدسيين، وسط خليط من الفلسطينيين، بينهم عرب، ويهود عرب، وأوروبيون، نحتفل بليلة رأس السنة الجديدة، التي لم تنتهِ بعد.

كانت الموسيقى ما تزال حصراً بين البيانو والكمان. وتطلعتُ إلى حسانة فلاحظتُ أنها تنظر إلى كل منا بمفرده. ثم رأيتها تحدّق في وهج المدفأة التي كانت ملتهبة. كان لهب الحطب يعلو ويهبط في رقصة النار والنور. وكانت نكهة المسك تضوع من صمغ حطب يشتعل. كان بعض ذلك الحطب ما يزال أخضر.

وطال تحديق حسانة في الشعلة. ثم مالت نحوي تقول لي:

ـ أتتذكّر، يا طيب، يوم تجولنا في القدس، وكنت ضيفنا مع والدك، وكان ذلك قبل نحو تسع سنوات؟

قلت لها: أتذكر.

ـ أوَ تتذكر سؤالاً طرحته عليك في نهاية تلك الجولة ولم تجبني عنه؟

قلت لها: نعم. أتذكر السؤال. لقد قلتِ لي يومها: «أنت عربي مراكشي من المغرب، وأنا عربية فلسطينية من المشرق، فما الذي يجمعنا؟».

ـ حسناً. ألم تجد جواباً عن ذلك السؤال بعد..؟ لقد مضت تسع سنوات ولم تجب يا طيِّب..

وخطر لي أن أقول لها: «**إن العروبة تجمعنا**». لكني حاذرت، لأن العروبة كانت فكرة طرية في ثقافتي السياسية. ثم إن العروبة عندنا، في أقطار المغرب العربي، كانت تأتي من ضمن أدبيات مفكرينا ومجاهدينا الطالعين من الثقافة الإسلامية. وأنا كنت بدأت أميل إلى اليسار الديموقراطي الطالع من المدرسة الاشتراكية الفرنسية. ففي ذلك الزمن كان مثقفو مقاهي «سان جيرمان» و«سان ميشال» في باريس يرفدون بكتاباتهم وأفكارهم مثقفي بلادنا في المغرب والمشرق. هؤلاء كنت أجدهم أقرب إليّ من ألمع مفكرينا بالعربية والفرنسية.

وخطر لي يومها جواب أظن أنه كان صحيحاً. ومع ذلك لم أقله لحسانة. كنت سأقول لها: ليس ما يجمعنا، أنت وأنا الآن، سوى خيط صوف طويل يمتد من مراكش إلى القدس. ولولا ذلك الخيط لما كنا التقينا. كنتُ أقصدُ خيط العلاقة التجارية بين والدي ووالدها.

تذكرتُ ذلك الجواب الذي كنت قد أحجمت عن لفظه قبل تسع سنوات، وكان وهج شعلة الحطب يعكس ظلاله على وجه حسانة، وكانت تتطلع إليّ منتظرة الجواب.

وكنت في تلك الساعة مُنتشياً بجمع عائلتي في دفء المطعم الفرنسي، وبرومانسية رقصة النار والنور في ليلة رأس السنة. كان نغم البيانو يحنو على جرح الكمان، فيما أنا أرنو إلى كأس النبيذ، مستمتعاً بلهفتي إليه حين يكون ملآناً حتى نصفه.

فقلت لحسانة في تلك الليلة: أتريدين الجواب الآن؟

أحنت رأسها، ثم التفتت إلى الأولاد:

ـ سوف يخبركم أبوكم ماذا جمعنا أنا وهو.

فتحوّل الأولاد نحوي، وتمهلتُ لأستثير المزيد من فضولهم وغبطتهم. ثم قلت لهم: جمعتنا أنا وأمكم كذبة!

ضحك الأولاد، وشاركناهم الضحك عالياً. فقالت لهم حسانة:

ـ أسألوا بابا من اخترع الكذبة؟

فقلت للأولاد فوراً: أنا.

فقالت الصغيرة «رملة» بعفويتها: «بابا كذاب!».

وضحك «السينيور»، كما ضحك الطيِّب، ثم استدرك:

ـ لكني لم أصل بعد إلى سبب وجودي على هذه الباخرة.

ونظر السينيور إلى ساعته: إنه موعد الغداء، ما رأيك أن ننتقل إلى مطعم «البيتزا» المجاور؟

فقال الطيِّب: إذا جلست إلى طاولة «البيتزا» فسوف ألتهم طبقاً كبيراً، فتتعطّل ذاكرتي.

ـ إذاً لا تتوقف.

وكما لو أنه لم يقطع حديثه إلا ليأخذ نفساً، تابعَ الطيِّب:

ـ كنا قد تزوجنا بعد شهر من مغادرة والدي القدس إلى مراكش. وصارت غرفة حسانة «بيتنا الزوجي» داخل بيت أهلها.

وكنا قد اكتشفنا معاً كيف أن الحظ بدأ يواكبنا منذ الساعة الأولى للقائنا الأول منفردين. وكان ذلك يوم عرّجت بي حسانة على مبنى الكلية التي تخرّجتُ منها.

هكذا، يا عزيزي السينيور، وجدت وظيفتي الأولى في كلية الراعي الإنجيلي. وما لبثت حسانة أن التحقت بسلك التدريس في قسم التاريخ في الكلية عينها. وإذ جمعْنا الراتبين تبين لنا أننا نستطيع أن نؤسس بيت الزوجية المستقل. ورحنا نجول في القدس، من أعاليها في الشرق إلى منبسطات طريق يافا في الغرب. ومن حي «الشيخ جراح» شمالاً إلى حي «القطمون» جنوباً. كدنا أن نستقر في الضاحية الشمالية، لكننا كنا نبحث عن بيت من تراث فلسطين. وأي بيت من ذلك الطراز لا بد أن يكون في وسط حديقة. وقد وجدنا ضالتنا في الحي الألماني.

ذلك البيت الذي أطلقنا عليه اسم «عش البلبل» بدأنا تأثيثه معتذرين عن عدم قبول الهدايا من الأهل والأصدقاء.

غير أن هديّة واحدة لم تتمكّن حسانة من أن ترفضها. كانت الهدية من والديها، وكانت سيارة «ميني» صغيرة تتسع لاثنين في المقعد الأمامي، ولثلاثة أولاد صغار في المقعد الخلفي. وحين

قلت لحسانة يوماً، وكنا في الشهر الأول من زواجنا: «وماذا نفعل إذا جاءنا ولد رابع؟» احمرّ وجهها حياءً.

كنا قد اتفقنا أنا وحسانة على أن يكون لها حق اختيار اسم المولود الأول إذا كان صبياً، وأن يكون لي حق اختيار الاسم إذا كانت بنتاً.

وفي حضن ذلك البيت طلعت صرخة مولودنا البكر في الأول من شهر أيار ١٩٣٩، وقد جاء حاملاً اسمه معه. إذ خرجت والدة حسانة في ذلك الصباح لتعلن لي البشارة:

ـ وصل «صلاح الدين».

ولم تمضِ سنتان إلا ووصلت «ميليليا»، وهذا اسم مدينة أجدادي الأوائل في شمال التراب المغربي التي اغتصبها الإسبان منذ نحو نصف قرن، ولا تزال معهم.

وبعد سنتين، وصلت «رملة»، وهذا اسم بلدة فلسطينية في وسط لواء يافا. وهكذا، يا عزيزي السينيور، ملأنا المقعد الخلفي في السيارة الصغيرة بثلاثة أولاد.

أحياناً، عندما نكون جميعنا في تلك السيارة، كنت أتطلع إلى الخلف وأسأل الأولاد الثلاثة: هل لديكم متسع لولد رابع؟. فتحمرّ وجنتا حسانة، وتسكت.

آخر مرة مازحت الأولاد وحسانة بهذا السؤال كانت في أوائل

شهر نيسان من العام ١٩٤٨. كنا عائدين إلى بيتنا في الحي الألماني، وكانت أجواء القدس تنذر بوشوك بدء الحرب في فلسطين. قالت لي حسانة: «صبي وبنتان نعمة كبيرة من السماء. رجاؤنا من الله أن تسلم فلسطين ليسلموا».

كانت المنظمات الصهيونية في ذلك الوقت تستكمل تجهيزاتها للغدر. وكنا نرى العصابات تتمركز في الأبنية العالية، خصوصاً في حي «راحافيا». وكان الحاكم العام البريطاني يتطلع من منظاره إلى القدس وهو على شرفة مقره القائم على «جبل المكبّر»، قبالة الجامعة العبرية ومستشفى «هاداسا». وقد تحوّلت تلك الجامعة ومستشفاها مخازن للسلاح والذخائر. كانت سيارات الجيش البريطاني تجوب الشوارع والأزقة الضيقة بحجة فرض الأمن، لكنها كانت تفرغ حمولتها في مراكز المنظمات الصهيونية: «هاغانا»، و«أرغون» و «شْتيرن».

كنا نسمع إذاعة «الشرق الأدنى»، وإذاعة القاهرة. وكنا نطمئنّ إلى إذاعة القاهرة التي كانت تنقل بيانات الملوك والرؤساء وبلاغات القادة العرب. كانت مجرد بيانات تهديد وتحذير لبريطانيا وللعصابات اليهودية. وكانت هناك نداءات إلى المجنّدين الفلسطينيين والأردنيين في الجيش البريطاني تدعوهم للفرار والالتحاق بالمجاهدين العرب في القدس وضواحيها. وقد لبّى النداء عدد كبير من المناضلين المغامرين، فهربوا بأسلحتهم، بعضهم وصل سالماً إلى مواقع المقاومة، وبعض آخر قضى غدراً على أبواب الثكن.

صرنا نرى المسلمين المؤمنين يذهبون إلى المسجد الأقصى وهم يُخبئون أسلحة خفيفة تحت عباءاتهم.

وأخذ المسيحيون يتوجهون إلى كنيسة القيامة في مواكب للصلاة. وما كانت تلك المواكب لتخلو من مؤمنين يخفون أسلحة خفيفة. كانت جورجيت، ولوريس، وميشلين، من صديقات حسانة، يهمسن في أذنها أنهن حملن إلى قبو الكنيسة قنابل يدوية ومسدسات. وكانت حسانة تتحسّر لأنها لا تستطيع أن تقوم بهذه المهمة. لكن والدتها مارسيل «أم خالد» فعلتها. إذ إنها حين ذهبت إلى القداس، كعادتها صبيحة كل يوم أحد، وضعت في حقيبة يدها قنبلة ومسدساً صغيراً.

وكان رجال وفتيان من المُصلين في الكنيسة يأخذون تلك الأسلحة ويشاركون في المقاومة. ولن أنسى ذلك الراهب الفرنسي الذي كان يدير مدرسة «الفرير» عند «الباب الجديد» في القدس. فقد صادف أن رأى بعض المقاتلين من الفلسطينيين والمجاهدين العرب يتسللون بالقرب من مدرسته للالتحاق برفاق لهم، فما كان منه إلا أن فتح لهم أبواب المدرسة، ثم طلب من المعلمين والمعلمات تقديم العون الممكن إليهم. وبفضل ذلك الراهب تمركز عدد من المجاهدين على سطح مدرسة «الفرير» وحول «دير القربان» و«دير اللاتين».

وبحماسة شديدة استرسل الطيّب:

ـ كانت الأيام التي سميت في ما بعد «الأيام الحمراء»، قد

بدأت في القدس. كان المقدسيُّون يعيشون تلك الأيام ثانية بثانية.

كان جيراننا في «الحي الألماني» يتوزعون في منازل غير متقاربة. ولم نكن نعرف اليهود منهم إلا يوم السبت.

كان منزلنا أحد منزلين متشابهين. بل كانا نسخة واحدة من الطراز المعماري القديم في القدس، يفصل بينهما شارع قليل العرض، وواجهتهما نحو الشرق، ولكل منهما حديقة أمامية وحديقة خلفية.

كنا متآلفين مع جارنا الأقرب. وهو كان لبنانياً أستاذاً في علم الرياضيات. لكن لم تمض أسابيع قليلة حتى أخلى الأستاذ اللبناني منزله، وهاجر مع عائلته إلى أميركا. ولم تمرّ أيام إلّا وقد حلّت عائلة جديدة في جوارنا. وقد عرفنا من كثرة عدد أفرادها، أنها عائلتان: رجلان وزوجتان، وستة أولاد. ودخل في ظننا أن الرجلين من الأساتذة. فالحي الألماني مرغوب للسكن، لأنه قريب من المدارس والكليات في القدس القديمة.

لكن لم يمض وقت طويل حتى تأكدنا من أن الجيران الجدد أجانب، ولا يمتون إلى العلم والمدارس بصلة.

وذات يوم، عاد ابننا صلاح من المدرسة وبصحبته أحد رفاقه من تلامذة صفه، وقد عرَّف عنه قائلاً: «هاني»، إنه قبضاي الصف.

ثم ما لبث صلاح أن خرج مع رفيقه إلى الحديقة الخلفية،

حيث أخذا يراجعان دروسهما تارة، وتارة أخرى يتناولان الرفيقات والرفاق في المدرسة، فتتعالى صيحاتهما بلغة الصبيان المتفوّقين الذين يتميزون بالذكاء والشيطنة.

لكن ما إن غادر هاني إلى منزله حتى دلف صلاح إلى غرفته من دون أن يتفوّه بكلمة. وقد طال مكوثه في الغرفة إلى حد دفع حسانة إلى فتح الباب والدخول لتجده ممسكاً رأسه بين يديه. ولم يكن أمامه كتاب ولا دفتر.

ـ ماذا حدث؟ سألته حسانة.

فأجاب من دون أن يلتفت إليها:

ـ عم رفيقي هاني قتله جاره اليهوديّ.

ـ متى قتله؟

ـ منذ سنتين.

ـ لكن لماذا أنت الآن غاضب ومهموم؟

ـ لأن ابن جارنا الجديد يهودي.

ـ هل أنت خائف منه؟

انتفض صلاح في وجه أمه: لا لست خائفاً. بل أنا مقهور منه.

ـ لماذا؟

ـ لأن الكلب رفض أن يكلّمني بعد أن عرف أني مراكشي فلسطيني.

للحال أدركت حسانة أن صلاح بلغ نضجه القومي باكراً، فأثلج صدرها.

كان صلاح قد أطْلع صديقه هاني على ما كنا نجهله عن الجيران الجدد. فقد روى له أنه أخذ المبادرة للتحدث مع أحد أولاد هؤلاء الجيران، وكان في مثل سنه. لكن ما إن تبادلا التعارف بالأسماء، والهوية، حتى أعلن ابن الجار أنه يهودي بولوني. ثم قطع الكلام ومضى.

بيْدَ أن ما رواه هاني لصلاح كان أفظع. فقد أخبره أن عمه قتله جاره اليهودي غدراً. كان الجار اليهودي بائع شطائر باللحم المفروم في «سوق البازار». وكان من أصل مجري، وكان يُظهِر بعض الودّ لعم هاني، لسببين: الأول، أن العم كان يحب تلك الشطائر، والثاني، أنه كان يلعن هتلر باستمرار.

وذات يوم سأله الجار اليهودي:

ـ لماذا تلعن هتلر باستمرار، فأجابه العم: لأن هتلر طرد اليهود من ألمانيا فجاءوا إلى فلسطين.

ذلك الجواب كلف عم هاني حياته. فقد دسّ له الجار اليهودي سُمّاً في فطيرة لحم فمات العم، واختفى الجار اليهودي.

منذ أن روى هاني لصلاح تلك الحادثة توثقت الصداقة بينهما، إلى درجة أن كلاًّ منهما أصبح الصديق الوحيد للآخر. كانا يتبادلان الضيافة بين بيتنا في «الحي الألماني»، وبيت هاني في «سوق البازار».

وكانت حسانة تنظر إلى هاني كرمز لجيل فلسطيني يتربّى على أنه مهدد في بلاده وفي مستقبله، وعليه أن يكون دائماً مستعداً.

كان والد هاني خياطاً. وكان دائم الحذر والاستعداد في محله الصغير. ولم يكن لديه ما يحمي به نفسه من الغدر سوى مقصه الكبير الحاضر دائماً على طاولة الشغل أمامه. وكان كلما أمسك بذلك المقص تذكر شقيقه المغدور.

وكان صلاح قد شاهد ذلك المقصّ بين يدي والد صديقه هاني حين عرَّجَ معه ذات يوم على محل والده في «سوق البازار». وقد وصف لنا صلاح ذلك المقص بأنه ضخم، وله حد مثل حد السيف.

بذلك المقص الكبير، يا عزيزي السينيور، يسّر الله لوالد هاني أن يأخذ بثأر أخيه. فبعد سنتين ونحو ثلاثة أشهر شاهد قاتل شقيقه يمرّ في «سوق البازار». وقد تمكن منه فقتله بضربة واحدة بمقصه الكبير ذي الحد القاطع مثل حدّ السيف. لقد قتله من بين زمرة من عصابة يهودية.

قال الطيِّب ذلك، ثم توقف ليسأل السينيور:

ــ أسمعتني أقول: «إن الله يسّر لوالد هاني أن يثأرمن قاتل شقيقه؟».

ــ نعم، يا طيِّب، هذا ما قلته تماماً.

ــ إذاً، هل يُعقل إن أقول لك، يا سينيور، ان الله يسّر، أيضاً

للعصابة الصهيونية ذاتها، أن تقتل والد هاني على الفور، وفي المكان عينه؟ . .

وهل يُعقل أن أقول لك إن الله يسّر للعصابة ذاتها، أن تقتل عمه الثاني بعد أسبوع من مصرع والده؟

وهل يُعقل أن أقول لك أن الله يسّر للعصابات اليهودية ان تستولي على مخازن الأسلحة والذخائر التابعة لجيش الاحتلال البريطاني، ثم تبدأ باقتحام بيوت العرب في القدس، من شمالها إلى جنوبها، فتدمر، وتقتل، ثم تشرّد من كُتبت له الحياة من نساء وأطفال؟

وهل يُعقل أن أقول لك إن الله يسّر لجارنا اليهودي البولوني أن يقتل هاني وأن يصيب ابننا صلاح في حديقة بيتنا؟

نعم حدث ذلك يوم سبت من «الأيام الحمراء»، وكنت أنا وحسانة في البيت. ولكن لم يكن بوسعنا أن نحمي، أو أن نثأر، فقد كان بيتنا أعزل من السلاح.

وهل يُعقل أن أقول لك إن الله يسّر لنا في ذلك اليوم سيارة عسكرية وقفتْ أمام منزلنا، لتنذرنا بمكبر الصوت أنها ستدمّر البيت على رؤوسنا إن لم نخرج فوراً رافعين أيدينا؟

وهل يُعقل أن أقول لك إن الله يسّر لنا أن نرى جيراننا اليهود في السيارة العسكرية المجهزة بمدفع رشاش، يأمروننا بأن نخرج من بيتنا فوراً لنلحق بأهلنا في الشرق؟

وهل يُعقل أن أقول لك إن الله لم يُيسّر للجيوش العربية أن تصل إلى القدس قبل سقوطها؟

«آه»، يا سينيور. أقول آه، لأن الهزيمة عار، حتى على من يقضي فيها. فكيف على من يبقى حياً، مهزوماً، وحاكماً؟

وماذا، بعد، يا عزيزي السينيور؟

بقي أن أقول لك لماذا أنا على هذه الباخرة:

لقد غادرنا القدس إلى عمان، تاركين الفتى «هاني» شهيداً في حديقة منزلنا. قتله جارنا اليهودي، ولم يتمكن من قتل ابننا «صلاح». إنما أصابه برصاصة في كتفه. وكانت إصابته طفيفة والحمد لله.

وكان لحسّانة خال يقيم في عمان فتوجهنا إلى عنوانه في بيته. وهناك وجدتْ حسانة والدتها «مارسيل» غاطِسة في الأسود، فقالت لها: الأسود فأل سيئ على فلسطين، فالقدس القديمة صامدة، وكذلك المسجد الأقصى، وكنيسة القيامة، وكذلك بيت لحم ومذود السيد المسيح.

فقالت أمها «مارسيل»: أخلع هذا الأسود على باب بيتنا عندما نعود إلى القدس.

وعندها غطست حسانة في الأسود، ولم تخلعه بعد.

احتاج الطيِّب إلى جرعة ماء ليُضيف: وصلنا إلى عمان ولم

نكن قد حددنا وجهتنا بعد. لكني كنت أنوي إكمال رحلتنا إلى مراكش حيث بلادي وأهلي، وعندما أطلعتُ حسانة على رأيي، وافقتني، ورحّب الأولاد، وكذلك أهل حسانة.

كان علينا أن نعبر إلى دمشق، ومنها إلى بيروت، لنُبحر على أي باخرة وجهتها مدينة «جنوا» الايطالية وبعدها إلى مراكش. ومن حُسن حظي أن لي أخاً في «جنوا»، كما من حسن حظنا جميعاً أن لحسانة خالاً آخر في دمشق يملك مكتبة كبيرة. فعائلة والدة حسانة حلبية، وقد حاول الخال الحلبي الدمشقي إقناعنا بالبقاء في دمشق. قال لنا:

ـ إبقوا هنا. فأنتم في عاصمة بلاد الشام. هذه بلاد العروبة. بلاد القمح والسمن. بلاد الجهاد، والتاريخ، بلاد الكرم، والضيافة.

لكننا كنا مصمّمين على متابعة الرحلة إلى مراكش.

ثم قال الطيّب، مختتماً:

ـ وها نحن، يا عزيزي السينيور، في طريقنا إلى بلادنا بحراً، فهل استطعت أن أوجز لك أسباب وجودي على هذه الباخرة؟

فرك السينيور عينيه جيداً، ثم سأل الطيب:

ـ ماذا ستقول لأهلك في مراكش؟

ـ سأقول لهم: جئتكم بعائلة نصفها فلسطيني سوري، ونصفها الثاني مغربي.

وإذ أبدى السينيور إعجابه بالجواب، قال له الطيِّب:

ـ حسانة، وصلاح، وميليليا، ورملة، باتوا يعرفونك جيداً. فهل ترغب بلقائهم قبل أن نفترق صباح غد على ميناء «جنوا»؟

رحّب السينيور بالطلب، لكنه استأذن لتأخير الجواب إلى المساء.

وفي ذلك المساء كانت الطاولة رقم ١٧ في قاعة «عين السمكة» محجوزة للعشاء على اسم السينيور «آلافاندي» مع ضيوفه الخمسة: الطيِّب جلال المليلي، وزوجته حسانة، والأولاد: صلاح، وميليليا، ورملة. وقد تطلب الأمر الحصول على إذن استثنائي من قبطان الباخرة للسماح باستقبال مسافرين من الدرجة الثانية في الدرجة الأولى.

الى تلك الطاولة جلست سيدة رافلة بجلال السواد، وبهاء الحزن. وقد اختارت أن يكون مقعدها مقابل عازف البيانو.

وفيما جلست الصغيرتان متقاربتين بدتا مشدوهتين بفخامة الصالة. كان السينيور ما يزال واقفاً بانتظار أن يجلس الطيب إلى يمين زوجته حسانة، فيما جلس هو إلى يسارها. وكان قد اختار الكلمات للمناسبة، فقال لها:

ـ أنا حزين جداً، يا سيدتي. لا أعرف كيف أعبّر عن شعوري في حضورك. فماذا أقول لك؟ ليس لدي ما أقوله سوى أني أرى أمامي امرأة فلسطينية رمزاً للصبر والعزم على الثأر.

ـ شكراً، قالت حسانة برصانة باهرة، وأكملت:

ـ شكراً على دعوتك. وشكراً على دعمك المعنوي لنا من خلال الطيب. وأنا سعيدة بالتعرّف إليك، خصوصاً لكونك أخاً لبنانياً.

في تلك الأثناء كان حارس كهف النبيذ، بسترته الحمراء، واقفاً قرب الطاولة رهن الإشارة، ثم قدم لائحته إلى السينيور، ففتحها. ثم قدمها إلى السيدة حسانة لتختار النوع الذي تفضله، فاختارت نبيذاً أحمر من كهف فرنسي قديم.

كانت الفرقة الموسيقية تعزف مقطوعة من سيمفونية «وليم تل» للإيطالي العريق «روسِّيني»، وكان الساقي يسكب الجرعة الأولى في كأس السينيور ليتذوّق النبيذ الأحمر المُعتّق. وما إن أعطى إشارته بالاستحسان حتى تحوّل الساقي إلى كأس السيدة المجللة بالسواد.

وإذ رفع السينيور كأسه ليشرب نخب ضيوفه، رفعت حسانة والطيِّب كأسيهما. وبحركة عفوية بريئة رفع الأولاد كؤوسهم من عصير الفواكه.

وقد شرب الجميع، ما عدا حسانة، إذ تأملت كأسها وأعادته إلى مكانه أمامها على الطاولة.

ـ هل ثمة خطأ سيدتي؟ استفسر السينيور.

ـ لا أبداً، كل شيء على ما يرام. قالت حسانة، وأردفت:

لكنني معاهدة نفسي على أن أسكب كأسي وأتأمّله. لا أشربه.

ثم أخرجت من حقيبة يدها قطعة صغيرة من حطب الزيتون حُفرت عليها كلمة (Palestine).

وسألت السينيور: «هل أستطيع أن أضعها على الطاولة؟»

وأردفت: إنها لا تفارق حقيبتي.

ـ لم لا؟ أجاب السينيور، ثم أمسك حطبة الزيتون، فتأملها، ووضعها في وسط الطاولة، فبدت وكأنها اسم الطاولة.

كان العشاء في صالة «عين السمكة» لذيذاً. أما الحديث حول المائدة فكان مريراً. وما إن رُفِعَ العشاء حتى استعادت الصالة أضواءها، فيما أخذت الموسيقى تتصاعد.

وما هي إلّا لحظات حتى اقتربتْ من الطاولة امرأة لتلقي التحية، وتطرح سؤالاً. قالت بأدب:

ـ عذراً لفضولي. هل لي أن أسأل عن معنى (Palestine) على هذه المائدة؟

كانت تلك المرأة تحمل كأسها، وقد وقفت تنتظر الجواب ببرودة.

وإذ تهيأ الطيب للجواب، أومأت إليه حسانة بأن يترك الأمر لها، ثم خاطبت المرأة:

ـ من أنتِ ؟

ـ أنا «أورشليم».

ـ وأنا «القدس».

لفظت حسانة «القدس»، ووقفت لتنبّه المرأة اليهوديّة بصوت خافت، ولكن بحدة:

ـ إسمعي أيتها المتطفّلة. لن أقول لك اذهبي إلى الجحيم يا «أورشليم»، إنما أقول لك: كوني مؤدّبة وعودي إلى حيث أنتِ، ولا تُفسدي ليلتنا.

وقفلت المرأة عائدة إلى طاولتها، فقالت حسانة:

ـ أرأيتم الوقاحة؟.

ـ أمر لا يُطاق. إنه فجور، علّق السينيور.

ـ إنها تتعمّد إثارة مشكلة، قال الطيّب.

ـ لن أدعها تفسد سهرتنا، قالت حسانة.

ولقد امتدت السهرة حتى قاربت الساعة الحادية عشرة حسب توقيت الباخرة. وبدأ النعاس يُذبّل عيون الفتى خالد، والفتاتين ميليليا ورملة، فتوجهت حسانة إلى السينيور بالشكر، تمهيداً للاستئذان بالانصراف. قالت له:

ـ لقد غمرتنا بلطفك وكرمك، وآمل أن تجمعنا مصادفة ثانية في هذا العمر.

ـ ترى هل نلتقي مرة ثانية؟ سأل الطيّب.

ـ يسعدني ذلك، قال السينيور.

وفي الأثناء كانت حسانة منهمكة في أمر آخر. كانت تفك من أذنيها قرطيْ حلق من الفضة، قدمتهما إلى السينيور، قائلة له:

ـ لقد أخبرني الطيِّب أنك ما تزال عازباً. فأرجوك أن تقبل هديتي هذه تذكاراً من مقدسية إلى من تحبها.

ودُهِشَ السينيور، فقال معتذراً:

ـ لكن ليست لي خطيبة، ولا حبيبة، يا سيدتي.

ـ أياً يكن الأمر، فسوف تكون لك، حتماً، خطيبة أو حبيبة، فأرجوك أن تقبل هديتي، وأن تعتبرها أمانة لديك، لتقدمها نيابة عني إلى من سوف تحب. قل لها: إنها هدية بسيطة من مشغولات سوق العرائس في القدس.

ولم يملك السينيور إلّا أن يفكّ ساعته من معصمه ويقدمها إلى حسانة:

ـ إذاً أرجوكِ، سيدتي، أن تقبلي هديتي هذه لتقدميها إلى زوجك العزيز، صديقي الطيِّب. قولي له أن يضبطها على توقيت القدس.

وأردف السينيور: لا بدّ أن يأتي يوم يُجبر فيه جميع العرب على أن يضبطوا ساعاتهم على توقيت القدس.

وفي تلك الأثناء اقترب مضيف الصالة من الطاولة رقم ١٧ وانحنى ليضع أمام حسانة صحناً عليه برتقالة، ومعها ورقة مطوية بعناية. فتحت حسانة الورقة. وخلال لحظات بدأ وجهها يكفهرّ. ثم أمسكت البرتقالة، فلفتتها دمغة صغيرة ملصقة عليها، وقد جعلت تلك الدمغة حسانة أشدّ توتراً.

كان الطيِّب والسينيور يراقبان، فلاحظا أن أصابع حسانة تتشنج، وقد تاهت نظراتها بعيداً.

ـ ماذا في هذه الورقة؟ سألها الطيب، فلم تجب.

وأعاد عليها السؤال. فهزّت رأسها بعصبية، ممتنعة عن الجواب بحركة من يدها.

فتدخَّل السينيور بعد تردّد:

ـ هل ثمة ما يستدعي الاهتمام؟

ـ لا تكترثوا، أنا سوف أتدبر الأمر. أجابت حسانة وأكملت:

ـ إنها رسالة بالإنكليزية.. فهل نترك للسينيور آلافاندي أن يقرأها بالعربية؟

ألقى السينيور نظرة على الرسالة، فبدأت ملامح وجهه تتبدل. ولم يترك للطيِّب أن يذهب بعيداً في تخميناته، فقرأ النص مترجماً بالعربية:

«أيتها الفلسطينية. .

خذي علماً بأن دولة إسرائيل قد قامت. وقد بدأ يهود العالم يتقاطرون إلى أرض الميعاد. فابحثي عن فلسطينك في بلاد أخرى. . ولكي تتأكدي من صحة ما أقول، أهديك هذه البرتقالة من بساتين يافا». (الإمضاء: أورشليم)

ـ ما العمل مع هذه الفاجرة؟! قال السينيور.

ـ لا بأس. نحن وهم، والزمن طويل، كما يقول أهلنا المصريون. علّقت حسانة، ثم نهضت، مكررة الشكر للسينيور مع أطيب التمنيات له.

لكنها عادت واستأذنت، للحظة، كي تقول كلمة للمدعوّة «أورشليم» صاحبة الرسالة والبرتقالة (الهدية) التي تحمل دمغة (JAFFA)، ثم توجهت حسانة إلى الطاولة رقم ٢٦.

كان السينيور، والطيِّب، والأولاد الثلاثة قد صاروا وقوفاً، فتحولت أنظارهم نحو حسانة وهي تقترب من طاولة «أورشليم». وشاهدوها تقف إلى جانبها ثم تنحني لتكلمها.

كانت الموسيقى تصدح فيما «أورشليم» تتمايل وهي جالسة على كرسيها بين رفاقها، وقد مدّت رأسها، ولوت عنقها لتستمع إلى حسانة.

وما هي إلّا لحظات حتى انفجرت ضجة هائلة حول الطاولة

رقم ٢٦. فقد تناولت «حسانة» زجاجة نبيذ عن الطاولة وهوت بها على رأس «أورشليم»، فطرحتها أرضاً.

وإذ تعالى صراخ النساء والرجال بدأ الجميع بالهرب من القاعة.

وكما لو أن الحادث حصل في أحد مطاعم «جنوا»، أو «نابولي»، حضر رجال أمن الباخرة فوراً، وتبعهم الإسعاف، فأخلوا القاعة، وقبضوا على «حسانة»، ثم قبضوا على زوجها الطيب، وهو كان قد حاول التدخل لحماية حسانة، فيما تعالت صيحات الأولاد الثلاثة.

وإذ وجد السينيور نفسه ملزماً بحماية الأولاد، سارع رجال الأمن وقادوا الأولاد إلى ركن في صالة قريبة. وبقي السينيور وحيداً.

وخلال دقائق دخل قبطان الباخرة، فتوجه مباشرة إلى السينيور معاتباً، وآسفاً:

ـ لقد كنتُ حذراً بالموافقة على طلبك للسماح لك باستقبال ضيوفك من الدرجة الثانية في الدرجة الأولى، لكني لم أستطع أن أرفض، إذ إنك صُغت طلبك بلغة عالية برهنت عن أدب، وحُسن خلق، وأريحية.

وقال القبطان: يؤسفني أن أبلغك أنك ستخضع لمساءلة قانونية أمام شرطة الباخرة. فهؤلاء مكلفون تطبيق القانون الإيطالي.

وبأدب فائق ردّ السينيور، موجهاً شكره وامتنانه إلى القبطان،

مؤكداً له أن العائلة التي استضافها تستحق الاحترام والتكريم. ثم أعربَ عن رجائه للقبطان بأن يطّلع أولاً على الرسالة التي تلقتها السيدة المكبّلة بالأصفاد من المرأة المطروحة أرضاً.

وقال للقبطان: أنا شاهد حق. وإني شاهد عيان على ما حصل.

حالاً توجّه القبطان إلى حيث أوقفت حسانة وزوجها الطيب، وطلب منها الرسالة. وفيما كان يقرأها كانت حسانة تنظر إليه، وتنتظر حتى التفت إليها، فقالت له:

ـ سيدي القبطان، أنت إيطالي تقدس بلادك، وشعبك، وكرامتك الشخصية. فهل تتحمل مثل هذا التحدي برسالة من عدو لك يقصدك حيث تجلس ليسلمك إياها وجهاً لوجه، وباليد؟

لم يسع القبطان إلّا أن ينظر إلى السيدة الفلسطينية باحترام. وقال لها:

ـ الجواب، سيّدتي، ليس عندي. إنه عند المحقق الإيطالي الذي سينظر في الحادث بعد نزولنا في ميناء «جنوا».

ـ لكن إفادتك ستكون لها أهمية سيدي القبطان.

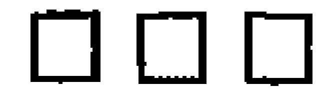
ـ الأهميّة للرسالة التي في حوزتك، سيدتي، فاحتفظي بها.

وفي تلك الليلة، نامت حسانة مكبّلة اليدين بين زوجها

وأولادهما الثلاثة تحت حراسة رجال الأمن. هذا ما كشف عنه أحد رجال طاقم الخدمة في صالة «عين السمكة» للسينيور قبل أن يهبط سلم الباخرة صباح اليوم التالي في ميناء «جنوا».

ـ وهل ماتت المرأة التي تلقت الضربة على رأسها بزجاجة النبيذ؟.

ـ لا أعرف، قال موظف الخدمة. ثم أردف، وقد خفض صوته: لقد كانت ضربة قاتلة



IX

للمرّة الثانية انطلق خوار «الثور الهرم» في ميناء «جنوا» معلناً انسحابه إلى آفاق «الأطلنطيك»، فتراءت للسينيور ظلال الربابنة الأوائل الذين مخروا ذلك الأوقيانوس، وقد أطلقوا عليه لقب «بحر الظلمات» لكثرة ما ابتلع من السفن، والبحارة، والقراصنة.

لم يكن «الأطلنطيك» بعيداً من ذاكرة السينيور، فهو راسخ في أدبيات شعراء الزجل المهجري اللبناني. وأحد هؤلاء الشعراء مشهور بطانيوس الحملاوي الذي أصابه في رحلة له عبر الأطلنطيك، دوار جعله يفقد التوازن، فخاطب الأوقيانوس ببيت من جميل الزجل، قال فيه:

«بتتمرجل يا أطلنطيك والحملاوي مسافر فيك؟»

«نــ الله لقّطني بالبَرْ رخ علّمك شو بعمل فيك..»

كانت شمس «جنوا» تميل نحو المغيب، وكانت ما تزال تبعث

في مناخ البحر حرارة متوسطية، فاتكأ السينيور على حاجز سطح الباخرة مودعاً الميناء الذي وصفه بأنه مدينة كاملة.

وخلال ساعة كانت الشمس قد غطست في اليمّ وذابت، وكان السينيور قد توجّه للمرة الثانية إلى «بار السطح» وأتى بكأس ثانٍ من «المارتيني»، ثم ما لبث أن وجد نفسه مبحراً في الظلام. أخذ يحدّق في السواد حتى خُيّل إليه أنه يسمع غناء الحيتان الزرق في الأعماق.

وعلى وقع خياله نام تلك الليلة. وفي الصباح، حمل عِدَّة الرسم وخرج إلى السطح، ولم يكن في باله إلا أن يصطاد وجهاً للوحة جديدة. كان يتحسّس في جيب سترته شيئاً ثميناً. ولم يكن ذلك الشيء إلا «جوز الحَلَق» الذي انتزعته «حسانة» من أُذنيها ووضعته أمانة في يده ليقدمه هدية إلى صبية تكون خطيبة له، أو حبيبة.

حيث وقف، راح يدور حول نفسه، حائراً في أي اتجاه ينصب سيبة الرسم. كان المدار الأزرق كله وجهة واحدة، ولوناً واحداً.

رأى نفسه نقطة الارتكاز في ذلك المدار، فاختار الاتجاه الذي تسير فيه الباخرة، ونصب سيبته.

كان «الأطلنطيك» رؤوفاً بشمسه، وبسلاسة هوائه في ذلك النهار، فتساءل السينيور إن كان الأفضل له أن يكتب الوجوه أولاً، أم يباشر الرسم فوراً.

كان من عادته أن يكتب المشهد ثم يرسمه. يكتب الوجه ثم يرسمه. يكتب الجسد ثم يرسمه.

وبدأ يبحث عن وجه. كانت الوجوه كثيرة، وكان الجمال، وعكسه، يتلاقيان ويفترقان، ولا بدّ من وجه واحد. ولم يجد ذلك الوجه في اليوم الأول، ولا في اليوم الثاني، فانصرف إلى تلوين مشهد البحر، ثم مشهد الأفق.

وفي اليوم الثالث جعل سيبته مكشوفة على باحة السطح.

كان الجمال كثيراً في ذلك اليوم. بعضه يمر مسرعاً، وبعض آخر يتمهّل ليتأمل خطوطاً على لوحة السينيور.

وفجأة تناهى إلى حواسه عطر عبر نسمة رطبة. كان عطراً من النوع الذي يتسلل إلى الحواس مثل النعاس. وكان حظه من ذلك العطر يجيء ويروح مع النسمة. وكان يستحيل عليه رصد مصدره.

شيء وجيد كان متأكداً منه، هو أن ذلك العطر لا يأتي من البحر، إنما من ظل امرأة موجودة على سطح الباخرة. إنها موجودة حتماً، فما دام العطر موجوداً، فهي هنا. لقد عشِق العطر..

وبانتظار أن يكتشف مصدر العطر بدا متشاغلاً عن كل ما حوله.

حتى كان اليوم الرابع، وكان الوقت صباحاً، وكانت لوحة

الرسام رقعة من الكرتون ليس عليها، بعد، خدش. وكان لا يزال في حال تأمل، كراهب بوذيّ، ينظر ولا يقع نظره على شيء.

ويرمشة عين دهمه العطر. إنه العطر عينه الذي لم يتبدل، كأنما له نسمة خاصة تحمله. وقد حاذر السينيور الرسام أن يتحرك مخافة أن يهرب منه العطر. لكن ظلاً من ناحية اليمين كان قد ارتسم على اللوحة أمامه، فالتفت ليرى امرأة تنحني على حاجز السطح، وقد مدت ذراعيها ورأسها باتجاه الأفق. ولم يكن ثمة اتجاه غير الأفق..

حيث وقفت المرأة كانت قد أعطت الجانب الأيسر من وجهها للرسام، وسلمت شعرها للريح. وكانت الريح تترفق بشعرها، وبين هنيهة وأخرى، كانت المرأة ترفع أصابعها لتحمي بها شعرها من الريح. وكانت وجهة الريح صوب الرسام، فأخذ يتحايل ليختلس النظر إلى وجه المرأة.

ولم تبق ثمة فسحة للتحايل. فالمرأة عرفت أن الرسام باشر رسمها. والرسام أدرك أنها امتثلت، فانتهز الوقت ليسرع في كتابة وجهها؛ فكتب:

وجه مسكوب في قالب من الكاكاو.

العينان من بادية الشام.

الفم من وادي النيل.

والعنق من سلالة ملكة الإيل. .

ثم عاد وكتب تفاصيل الوجه:

العينان خارقتان.

الوجنتان نافرتان.

الشفتان مكتنزتان بلون شهد العسل.

وبغتة، تحركت المرأة، فاستدارت يميناً، ثم مضت.

فكتب الرسام:

غادر الجمال، وبقي عطره. .

ثم أضاف سطراً:

غادر الجمال، وبقي ظلّه، وقد تأخّر الظل للحاق بالأصل.

وفي اليوم التالي، في المكان عينه، وفي الموعد عينه، وقف الرسام، وسيبته أمامه بانتظار المرأة عينها.

ولم تتأخر حتى جاءت يسبقها عطرها. وقفت ووضعت ساعدها الأيمن على حاجز السطح، وصوّبت وجهها نحو الرسام، فبدت كأنها لم تفارق مكانها في الأمس. فقط مالت يساراً، فأصبح وجهها مكشوفاً أمام الرسام تماماً.

كان الوقت ظهيرة. وكانت أمواج مسرعة تلطم جانب الباخرة.

وبدأ الرذاذ يتدخل في المشهد فيلامس وجه المرأة وعنقها. كان عنقها عارياً. أما شعرها فكان، كما في الأمس، في مهب الريح.

لم يسبق للسينيور الرسام أن مرّ في ذلك الامتحان. هو قرأ كثيراً عن جميلات مثالات وقفنَ أمام رسامين مشاهير. وبعض من هؤلاء عشق مثاله فمنحه حباً تجسد في روائع خُلّدت.

وها هو، الآن، رسام محترف في امتحان أمام مثال قد أتاه من الغيب، فشعر برهبة، كما لو أنه في صراع بين الأمل والخوف من السقوط.

كان في الأمس قد وضع خطوطاً لوجه المرأة ذات العطر. وها هي الآن تمنحه وجهها بالكامل.

لكنه وجد نفسه يترك ريشته وأقلامه جانباً، ليروح يتأمل الوجه، محاولاً اختراق كنهه للوصول إلى روحه.

ولقد لعب الوجه، بنجاح، دور تمثال يتنفس.

مرت سبعة أيام والمشهد يتكرر على سطح الباخرة. ساعة كل يوم مع وجه المرأة التي لم تبدل مكانها، ومع العطر الذي يسبقها ويبقى بعد أن تغادر.

وفي اليوم الثامن وصل إلى المكان قبيل الموعد بقليل. وقف مولياً ظهره للبحر، ووجهه للسطح. كان يرتدي جاكيت

«شاموا»، وبنطلوناً من الكتان، وعلى كتفيه شال أحمر. ولم تكن هناك عدة رسم. كان يحمل الوجه المرسوم.

ولم تتأخر المرأة. وصلت في الموعد الدائم: الحادية عشرة تماماً. لكن طقس ذلك اليوم كان يُنذر بعاصفة.

وإذ خف السينيور لملاقاتها، فقد انحنى وأخذ يدها كما لو أنها أميرة نبيلة. وللمرة الأولى سمعت صوته يقول لها بالفرنسية:

ــ هل أستطيع التكلم معك سيدتي؟

ــ بكل سرور. قالت المرأة.

ــ إذاً، اسمحي لي أن أعرب لك عن افتتاني بجمالك النادر، وأن أشكرك على كرمك بمنحي كل ذلك الوقت الذي أتاح لي أن أنقل وجهك إلى لوحتي. فإذا كنتُ قد أصبتُ نجاحاً، فبفضل سحرك الذي كان يحرّك ريشتي ويُلهمني ألواني..

وقاطعته بلطف:

ــ أوه، أنا عاجزة عن إيجاد الكلمات التي تعبر لك عن امتناني.

ثم استدركت:

ــ إنك تتكلم الفرنسية كفرنسي.

ــ وأتكلم الإنكليزية كإنكليزي..

ــ ممتاز. . وماذا عن اللغة الاسبانية؟

ــ أفهمها جيداً. إنّما أنا بحاجة إلى التحدث بها كي أتكلمها بطلاقة.

ــ إذاً، سوف نتحدث بالإسبانية إذا شئتَ. فأنا من أب أرجنتيني وأم فرنسية.

ــ وأنا لبناني من أم مصرية.

ثم راح يتشاغل بالتطلع إلى السماء.

كانت تهبّ ريح باردة من سحب داكنة تعبر مسرعة، فقال، وهو ينظر إلى فوق:

ــ أظنّ أن الطقس يُنذر بالمطر.

ونظرت هي إلى فوق:

ــ هكذا يبدو؟

ــ هل ندلف إلى صالة الاستراحة؟

ــ كما تريد.

كانت الصالة تعجّ بالمسافرين الذين لجأوا إلى الداخل هرباً من الرياح والمطر، فجلسا إلى طاولة حولها مقعدان متقابلان، وراح السينيور يحدق في الوجه الذي عاش معه سبعة أيام. أما

هي فتشاغلت بتوزيع نظراتها على أرجاء الصالة التي تعرفها بأصغر تفاصيلها.

ثمّ بدت وكأنها تتابع دور التمثال الذي يتنفس. قال لها:

ـ لقد انتهيت من رسم لوحتك.

فنظرت إليه بابتسامة لم يلمحها على وجهها من قبل.

ـ لماذا كنتِ تخفين عنّي هذه الابتسامة؟

ـ لأني كنت حريصة على ألا أبدل ملامحي. أليس هذا ما كنت ترغب به؟

ـ هل ترسمين؟

ـ لا، أنا لا أرسم. أمّي رسّامة.

ـ إذاً لدينا ما نتحدث عنه. ألا تريدين أن تشاهدي لوحتك؟

ـ بكل سرور. هذا ما أنتظره.

فتح اللوحة على الطاولة، ثم مال إلى الخلف، وراح يراقب الانطباعات على وجه الجميلة.

ومرت فترة غير قصيرة قبل أن تعود لتنظر إليه:

ـ إنها رائعة، قالت بلهجة تفخيم.

وعادت تنظر إلى اللوحة، ثم إليه:

ـ بماذا أستطيع أن أكافئك؟ سألته برصانة تنمّ عن امتنان بلا حد.

ـ يكفيني ما سمعته للتوّ. . سيدتي.

ثم استدرك:

ـ لكن يجدر بي أن أعترف لك بأني ربما اقترفت خطأ وأنا أرسم وجهك؟

ـ لماذا ؟

ـ لأني ضيّعتُ وقتاً في الرسم.

ـ أعذرني، لم أفهم ماذا تعني؟

ـ أعني أن مثل هذا الجمال، عندما يكون ماثلاً أمام رسام، فمن الغباء أن يتلهّى برسمه.

وإذ بدت عاجزة عن مجاراته في بلاغة وصفه جمالها، لم تملك إلا أن تنهض وتعانقه عناق مجاملة. .

وعاد الصمت بينهما. هي تتأمّل اللوحة، وهو يراقب الانطباعات على وجهها. ثم قالت:

ـ لا أرى توقيعك عليها.

ـ ليس قبل أن تختاري لها اسماً.

ـ لكنها لوحتك.

ـ بل هي لوحتك أنتِ.

فعادت تحدق في اللوحة.

وسمعها تخاطب وجهها همساً: اللعوب!

قالت ذلك بسخرية وزهو، ثم تطلعت إليه فرأته ينظر إليها كأنه يراها للمرة الأولى ثم يقول:

ـ تستحقين اللوحة، وتستحقين الاسم!

ثم استأذن ليسحب اللوحة نحوه ويضع عليها توقيعه: J.A.

أخذت تحدق في التوقيع وتردد: J.A. ماذا يعني J.A.؟

ـ يعني جاناد آلافاندي.

ـ اسم جميل. هل أنت من أصل إيطالي؟

ـ لا، أنا لبناني من أصل لبناني.

ـ حسناً. أنا ليس لدي توقيع فنّي. لكنْ لدي اسم فرنسي أرجنتيني. إسمي «مونيه غوليز».

وراح يردد: «مونيه.. مناي..» ثمّ سألها:

ـ هل تعلمين ماذا يعني اسم «مونيه» بالعربية؟

رفعت كتفيها بحركة النفي.

ـ إنه يعني «أمنية عمري».

ـ هذا لطف منك.

وإذ عادت تنظر إلى اللوحة، أخذ هو يتذكر:

ترى، هل صدقت نبوءة العروس اللبنانية الجبلية التي قالت له إن هناك صبية عاثِرة الحظ لأنها لم تلتق بك بعد؟. أوَ تكون «مونيه» هي الخطيبة الموعودة التي أهدتها السيدة الفلسطينية «حسانة» قرطين من الحلق الفضي انتزعتهما من أُذنيها؟

كان يتساءل، ويتأمل «مونيه»، وهي تُمعِن النظر في اللوحة.

وحضرت في ذاكرته كلمات في الجمال للفيلسوف الفرنسي «أناتول فرانس»: «أي تعظيم للجمال، ليس أعظم من اشتهائه».

ما إن تذكّر كلمات ذلك الفيلسوف العريق في الأدب والحب، حتى باغتته «مونيه»، فاتحة ذراعيها لتطوقه في عناق لم يكن مجاملة.

... وفي تلك الليلة لم ينم السينيور في مقصورته وحيداً.

صبيحة اليوم التالي شرعا يتهيآن للخروج معاً من المقصورة رقم ١٧ لتناول الفطور.

وفيما كانت «مونيه» واقفة أمام المرآة ترتّب تسريحتها، تقدم السينيور ومدّ يده نحوها وهو يشدّ قبضته:

ــ احزري ماذا في يدي؟

هزّت كتفيها بلا مبالاة.

ففتح قبضته:

ــ هذه الهدية لك. أرجو أن تعجبك وأن تقبليها.

ــ أوه، كم أنت لطيف. قالت بفرح عظيم وهي تلتقط قرطي الحلق الفضّي من راحة يده.

وإذ تأمّلتهما بإعجاب علّقتهما في أُذنيها، ثم عادت لتتأمل وجهها في المرآة:

ــ كم أنا فاتنة اليوم.

ثمّ سألته وهي تغمزه بطرف عينها:

ــ هل أتيت بهذه الهدية مسبقاً من ركن المجوهرات على الباخرة؟

ــ لا، يا عزيزتي. إن هذه الهدية هي أصْلاً لك. لقد كانت أمانة لديّ، وإني أسلمك إياها.

ــ معذرة، أنا لا أفهم.

ـ حسناً «مونيه». سوف أنقل إليك حرفياً وصية السيدة التي وضعت هذه الأمانة لديّ. لقد قالت لي تلك السيدة: يوماً ما سوف تكون لك خطيبة، فأرجوك أن تحتفظ بهذه الأمانة لتقدمها إليها نيابة عني. قل لها: إنها هدية من مشغولات سوق العرائس في القدس.

وأردف: وها أنا، أسلمك الهدية يداً بيد.

بدت «مونيه» في حالة ذهول.

ـ ماذا تعني يا سينيور .J.A؟ هل أنا خطيبتك؟

ـ بل أنت صرتِ زوجتي.

ـ زوجتك؟

قالتها بنبرة ساخطة، ولكن بصوت منخفض، وقد بدت مذهولة.

فهزّ السينيور رأسه تأكيداً على أنه يعني ما يقول.

فأخذت مونيه تهزّ رأسها وتبتسم بحركة ساخرة.

ـ حسناً، سينيور.J.A. اشرح لي كيف صرت زوجتك؟

وبشيء من البلادة قال:

ـ الأمر لا يحتاج إلى شرح. ألم نأكل التفاحة معاً ليلة أمس؟

فتحت مونيه فمها واسعاً:

ـ أوه، الآن فهمت.

ثم استدركت: لكن إذا كانت هذه حجتك، فنحن، الاثنين معاً، نستحق الطرد من هذه الجنة..

ـ فليكن، إنما إلى أين ونحن في هذا اليمّ؟

ـ إلى أين؟. إلى أي شاطىء عليه شجرة تفاح!

وما إن ضمّها حتى تملّصت من بين ذراعيه لتسأله:

ـ لكن ماذا عن السيدة ذات الحلق الفضّي؟

لم يجب. إنما استدار نحو سيبة الرسم. كانت عليها لوحة مغطاة بقطعة من القماش، فنزع عنها الغطاء.

ـ أنظري إليها..

أخذت مونيه تتأمل اللوحة، وقد أطالت التحديق فيها، حتى بدت وكأنها تنظر إلى أيقونة.

كان أمامها وجه يملأ اللوحة. وجه امرأة، في عينيها، كما على فمها، بداية ابتسامة، أو نهاية ابتسامة تشبه ابتسامة «الموناليزا».

ـ هل عرفتها؟. إنها من دوق حلق في أُذنيها.

قال السينيور وأردف:

ـ هذه هي السيدة التي أهدتكِ حلقها.

ـ وأين هي الآن؟

ـ تركتها على ميناء «جنوا» مع زوجها وأولادهما الثلاثة. إنهم في طريقهم إلى مراكش.

ـ هل هي مراكشيّة؟

ـ زوجها مراكشي. هي فلسطينية.

ـ متى رسمتها؟

ـ بدأت أرسمها فور انتهاء عشاء معها على الباخرة. كان معها زوجها وأولادها، ولم يدم لقاؤنا أكثر من ساعة ونصف الساعة.

ـ ومتى أنهيت رسمها؟

ـ قبيل ذلك الصباح الذي رأيتكِ فيه للمرة الأولى. أتذكرين؟. كنتِ منحنية على حاجز السطح.

ـ هل أحببتها؟

ـ ما نشأ بيني وبينها أعلى وأعظم من الحب.

ـ وهل ثمة ما هو أعلى وأعظم من الحب؟

ـ نعم، الاحترام.

ـ وهل هي «جاندارك» فلسطين؟

ـ ربما، لكنها الآن، على الأرجح، سجينة في «جنوا».

ـ سجينة؟

ـ نعم، لقد قتَلت امرأة.

ـ ماذا؟. قتلت امرأة؟

ـ نعم قتلت امرأة في قاعة مطعم «عين السمكة» على هذه الباخرة.

بدا الارتباك على وجه «مونيه» فرفعت أصابعها لتفك الحلق من أُذنيها، فقال لها:

ـ أرجوكِ. تمهّلي لتعرفي السبب..

ثم شرح لها بإيجاز وبلاغة، كيف انتقمت المرأة المقدسية من المرأة اليهودية التي تعمّدت أن تطعنها في كرامتها وفي كرامة شعبها وبلادها.

كانت «مونيه» تستمع وعيناها على لوحة حسانة أمامها، فسألت «السينيور»:

ـ هل لديكَ عنوانها؟

ـ لا، لقد أخذها رجال أمن الباخرة من بين أيدي زوجها وأولادها ولم يتسنّ لنا أن نتبادل العناوين.

... وساد الصمت في المقصورة فملأه الحب..

عصر ذلك اليوم، على سطح الباخرة، لفتت المسافرين رقعة كرتون معلقة على عارضة الحاجز. أول من تنبه لها مسؤولو الأمن. لكنهم حين اقتربوا منها، لم تثر اهتمامهم، فقد كانت بياناً خاصاً موجهاً إلى ركاب الدرجة الأولى، وكان مكتوباً بأحرف كبيرة، وبأربع لغات: الإيطالية والإسبانية، والفرنسية، والإنكليزية.

لم يبق أحد إلّا واقترب ليقرأ البيان، وكان نصه:

في هذا المكان التقى الرقم ١٧ والرقم ٢٢. ثم اندمجا في الرقم ١٧. لقد أكلا معاً التفاحة، ودخلا الجنة. يسرهما إبلاغكم أن موعدهما هذه الليلة معكم في سهرة نادي «نجمة الفجر» لمشاركتهما النخب المقدس.

أوه.. كم هما رائعان. ردّد جميع الذين قرأوا الدعوة، وتواعدوا على اللقاء في نادي «نجمة الفجر».

وفي تلك الليلة شهدت صالة «نجمة الفجر» سهرة لا سابقة لها حسب وصف إدارة النادي وطاقم الضيافة.

كانت صحافة الفنون والجمال حاضرة في عالم الأثرياء تلك الليلة. وقد وجدت «مونيه» نفسها أمام مصوِّر إيطالي يحاصرها بلمعات عدسته.

وحين طلب منها إجراء مقابلة معها تطلعت إلى السينيور تسأله بنظرة، فقال لها: لمَ لا ؟

في ركن فخم ملحق بصالة النادي، جلست «مونيه» أسيرة المصور قبل أن يتحول إلى صحافي، فسألها: بأي لغة تفضلين أن نتكلم سيّدتي؟

ـ أفضّل اللغة الإسبانية، إذا كانت تناسبك.

ـ تناسبني الإسبانية، وأحبها. ويسعدني أن أبدأ بتسجيل اسمك كاملاً إذا سمحتِ.

ـ أُدعى «مونيه غوليز»، زوجة السينيور جاناد آلافاندي.

والتفتت إلى السينيور فرأته منبهراً. .

ـ من أين جاءك لون بشرتك سيدة آلافاندي؟

أعجبها السؤال الأول فقالت:

ـ أظنّ أن لوني مزيج من دم والدي ومن دم والدتي. فوالدي أرجنتيني يتحدّر، كما يقول، من أصول تعود إلى الهنود الأوائل الذين كانوا يقطنون شبه جزيرة «أنتاركتيكا» في القطب الجنوبي. أما والدتي، فإنها فرنسية.

ـ كي تكوني على هذه الباخرة في الدرجة الأولى، فهذا يعني أنك من طبقة بورجوازية؟

ـ والدي من مقاطعة «مندوسا» في الأرجنتين، وهو من عائلة زراعية كبيرة حولت بعض رساميلها إلى الصناعة والتجارة. ثم انتقلت للإقامة في العاصمة حيث نشأ والدي «مانوئيل غوليز»،

فدرس وتخرَّج حاملاً شهادتيْن: شهادة في الهندسة من جامعة «بوانس آيرس»، وشهادة في اليسار من «مقهى غوركي». هل سبق لك أن زرت ذلك المقهى؟

ـ لا، لم يحصل لي ذلك الحظ بعد. أجاب الصحافي.

ـ إذا كنت تقصد «بوانس آيرس»، فلا تنس أن تذهب إلى «مقهى غوركي». هناك سوف تكتشف أين تلتقي المدينة.

ـ وماذا عن والدتك؟

ـ إنها رسّامة تدعى «دومينيك» من مدينة اسمها «أوفيرسيروواز» لا تبعد كثيراً عن باريس. ولا بدّ أنك قرأت عن تلك المدينة الصغيرة التي عاش فيها الرسام الهولندي العظيم «فان غوخ». هناك أمضى آخر مرحلة من حياته في أواخر القرن التاسع عشر. وهناك في غابة «أوفير» رسم «فان غوخ» بعض أشهر لوحاته الخالدة. وهناك جنّ، وانتحر، ليدفن في تلك الغابة، تاركاً رسالة إلى شقيقه يشكو فيها العوز.

ـ ذكرتِ أن والدتك رسّامة.

ـ نعم. كانت ما تزال طالبة حين كانت في عطلة نهاية كل أسبوع تمر أمام بيت «فان غوخ» على قارعة الطريق، ثم تصعد إلى الغابة لتدور حول قبره. وهناك، في غابة «أوفيرسيروواز»، كانت تشاهد رسّامين مشاهير، ومبتدئين، وهواة. وهناك التقطت والدتي عدوى الألوان، ثم التقطت عدوى اليسار،

فجذبها القطار الذي كان يُصفِّر وهو يمرّ أمام بيتها. وذات يوم انتظرته وصعدت إلى باريس.

ـ وحيدة ذهبت إلى باريس؟

ـ نعم. وحيدة. ولم تكن تملك إلا القليل من المال، لكنها وجدت مكاناً لها على أرصفة ساحة «مونمارتر». هناك راحت ترسم وجوه السياح، وتعيش من براعتها في الرسم السريع.

ـ وماذا جمع بين والدتك الرسامة المبتدئة ووالدك الثريّ؟

ـ اليسار، يا عزيزي، اليسار جمعهما. كان والدي «مانوئيل» قد استهوته ثقافة باريس وفنونها، فجاء إليها طالباً في «السوربون»، ثم مقيماً في مقاهيها، متنقلاً بين متاحفها، ومسارحها. وهو كان هناك حين سقطت باريس تحت الاحتلال الألماني، فالتحق بجبهة المقاومة الفرنسية تحت قيادة الجنرال شارل ديغول.

وذات يوم قادَ الحظّ والدي في الوقت المناسب، إلى المكان المناسب، حيث وجد امرأة مضرجة بدمائها، وغائبة عن الوعي ملقاة على الرصيف، في شارع «دومون دورفيل» فحملها إلى أقرب بناية كان بابها مفتوحاً. خلف باب تلك البناية حمى «مانوئيل» المرأة المقاومة، وأسعفها بما كان معه، ومعها، من ضمادات. وحين استعادت وعيها ووجدت نفسها بين يديه أُصيبت بالهلع، لكنه طمأنها أنها مع رفيق مقاوم.

تلك المرأة كانت «دومينيك» التي صارت والدتي.

ـ وهل ما زالا معاً؟

ـ إنها نبيذه العتيق.. لكنه الآن مع زوجة جديدة في «مندوسا»، وهي مع زوج جديد في «جنوا».

ـ قلتِ إن إسم «مونيه» جاءكِ من والدتك، أليس كذلك؟

ـ صحيح. هي متأثرة بالرسام الفرنسي كلود مونيه.

ـ ماذا كان نصيبك من موهبتها؟

ـ الاسم فقط.

ـ والآن إلى ماذا تتطلّعين؟

ـ الآن لديّ زوج. وأنا في أوج السعادة.

ـ هل تبحثين عن عمل؟

ـ لا. لا أبحث عن عمل. لدي مهنة أعشقها؟

ـ ما هي مهنتك؟

ـ وكالة للمجوهرات والعطور.

ـ ألهذا السبب أنت على هذه الباخرة؟

ـ نعم. لقد كنت في باريس. ثم في روما. ثم في ميلانو.

وبعدها في جنوا. والآن عائدة إلى بوانس آيرس مع زوج نادر.

ثم استدركت، وهي تنظر إلى السينيور:

ـ أليست رحلة ناجحة؟

ـ بالتأكيد . . قال الصحافي، ثم تحول إلى السينيور:

ـ اسمح لي سينيور آلافاندي أن أسألك: لماذا أنت على هذه الباخرة؟

ـ أنا في رحلة لاكتشاف عم لي هاجر من لبنان قبل أكثر من ربع قرن، واختفى. وأخيراً ظهر في «بوانس آيرس».

ـ لكنك اكتشفت زوجة رائعة.

ـ نعم. أنا كولومبوس اللبناني!

قال السينيور ذلك متمثلاً الزهو.

وإذ صفّقت مونيه إعجاباً، كتب الصحافي الإيطالي كلمتين ثم قال: «أشكرك سينيور آلافاندي. لقد وضعت بجوابك عنوان الغلاف لمجلتي».

كان الصحافي قد كتب العنوان: «كولومبوس اللبناني».

□ □ □

X

على الواجهة البحرية لمدينة «بوانس آيرس» انطلق خوار «الثور الهرم» معلناً اقتحامه ميناء الوصول. ولاحت من بُعد صفوف الواقفين على حافة الميناء في انتظار الآتين من مختلف أقطار الأرض. وكانت «مونيه» تشرح لجاناد من شرفة الدرجة الأولى، أن الباخرة دخلت حرم ميناء «لابلاتا».

كانت طوابير من الوافدين تزدحم في محطة الوصول، وطوابير أخرى تصطفّ أمام شبابيك الجوازات. وكان رجال الأمن الأرجنتيني يبذلون جهوداً لتنظيم الصفوف. كانت أصواتهم تتعالى باللغة الإسبانية فلا تلقى آذاناً صاغية، ذلك أن معظم الوافدين ما كانوا ليفهموا إلّا لغاتهم.

وكان على مونيه أن تنفصل عن جاناد لتنتظره خلف بوابات العبور، فهي ابنة البلاد. لكنه سرعان ما عبر حاجز الأمن ليجد نفسه أمام مونيه واقفة بانتظاره.

ـ أرأيت؟. لقد عرفوا أنك زوجي فنادوك أولاً.

قالت مونيه متباهية، ثم أردفت ساخرة:

ـ حيث البيروقراطية والعسكر، لا تستعمل لسانك. بادر لمدّ يدك إلى جيبك.

ثم، كأنها تُلقي خطبة حفظتها مسبقاً، قالت له:

ـ أهلاً بكَ في العاصمة الفضية. سوف يلفحكَ نسيمها العليل، الذي منه أخذت اسمها «بوانس آيرس». فتذكّر، يا حبيبي، كل ليلة، أن رحالة إسبانياً يدعى «بادريو مندوسا» نام ليلة في هذه المدينة، وعندما قام مع الفجر صاح من نافذته، وهو يطلّ على «ريودولابلاتا»:

ـ «هذه مدينة النسيم العليل».

ولم تنهِ مونيه خطبتها، ترحيباً بجاناد، قبل أن تقول:

ـ هنا تتلاقى أنهر عظمى، تهبط من أعالي أحد قطبي الكون، لتستقبلك وتواكبك بالموسيقى، والغناء، وهي تمضي إلى مساقط البخار على ضفاف المحيطات.

ثم رفعت مونيه ذراعيها وعانقته كحبيب عائد من سفر طويل.

وكان هو منبهراً بفصاحتها، فسألها:

ـ لماذا كنتِ تخفين عني كل هذا الشعر؟

ـ لأني لم أكن أمتلكه قبل أن ألتقي بك.

ثم تمسّكت بذراعه، وسألته:

ـ كيف تتصور استقبال عمك لي؟

ـ سوف تكونين مثل نجمة فجر تهبط من السماء.

في الباحة الخارجية للميناء، كانت الأمم ينتظر بعضها بعضاً. عشرات الأسماء مرفوعة على رقع كرتون. مئات العيون تبحث عن وجوه. وكانت عيون السينيور ومونيه تبحث عن قبعة مرفوعة. فحيث تكون القبعة يكون العم خوليو.

لكن لا قبعة مرفوعة ولا «جاناد آلافاندي» بين الأسماء.

ـ يبدو أن العم خوليو ليس هنا، قالت مونيه.

ـ مستحيل، قال جاناد.

ـ لماذا المستحيل؟ قد يكون أخطأ الموعد.

وأردفت مازحة: أظن أن علينا أن نرفع لافتة باسم «خوليو آلافاندي».

ولم يعلق جاناد. كان تائه النظرات.

وفجأة، صاحت مونيه: إنه هناك.

كانت قد ظهرت للتو قبعة مرفوعة في الصف الخلفي الأخير

بمحاذاة جدار المحطة. واقترحت مونيه تجنب اختراق الحشود في الوسط. رأت أن الأفضل الالتفاف حول الحشود للوصول إلى العم. وكان رأيها صائباً، فقد اقتربا بسرعة وبسهولة من القبعة المرفوعة، وإلى جانبها لافتة «جاناد آلافاندي» بالخطّ العربي الكبير والرديء.

ـ أهذا هو العم خوليو؟

ـ نعم، هذا هو.

ـ أمتأكد أنت أنه هو العم خوليو؟

ـ ومن يمكن أن يكون؟. إنك ترين أمامك والدي. ولو لم أكن متأكداً من أن والدي قد مات لقلت أنه هو.

ـ ومن هي البنت التي تقف إلى جانبه رافعة اللافتة التي عليها اسمك؟

ـ لا أعرف. كيف لي أن أعرف؟. أجاب جاناد، ثم طلب من مونيه أن تبقى ثابتة في مكانها ليتقدم ويُعرِّف عن نفسه للعم، ثم يقدمها إليه. قال لها:

ـ لا تفاجئني عندما ترينني أنحني لأقبّل يده.. فهذه لفتة احترام من تقاليدنا.

ثم تقدم وأطلق صيحة عالية بالعربية:

ـ أنا جاناد، يا عمي.

ـ جاناد؟ صرخ العم، وارتجفت يداه، فاهتزت عصاه، وسقطت القبعة أرضاً أمام قدمي البنت التي تقف إلى جانبه، فسارعت إلى التقاطها.

كان جاناد قد انحنى ليقبّل يد العم، فطوّقه العم بذراعيه، وقد اختفى صوته. أخذ يشهق ليتنفس، وراح يتكلم خليطاً من الإسبانية والعربية، ولم تكن كلماته مفهومة. ثم أمسك برأس جاناد وقرّبه من رأسه حتى التصق بجبينه.

كانت مونيه تراقب المشهد. ومع أنها لم تكن تفهم ولا كلمة، فقد مسحت دمعة على طرف عينها. كانت تنتظر أن يستقيم جاناد ليقدمها إلى العم.

لكن العم ظلّ ممسكاً برأس جاناد. ثم التفت إلى البنت التي تقف إلى جانبه، وصاح يخاطبها بالإسبانية:

ـ «لويا، ها هو عريسك جاناد. ها هو ابن عمك قد وصل».

كاد جاناد يصرخ «مونيه» فيما كان رأسه بين قبضتي العمّ. وإذ تمكن من التملص استقام ليلتفت إلى الوراء، فلم يجد مونيه.

في تلك الأثناء كانت ابنة العم «لويا» تمد يدها لتصافح ابن العم العريس، لكن ابن العم كان يدور حول نفسه في كل الاتجاهات باحثاً عن مونيه. وكانت مونيه قد اختفت في الازدحام، فسأله العم:

ـ هل تبحث عن أحد يا جاناد؟

ــ نعم، كان معي صديق على الباخرة، وكان بالقرب مني هنا، لكني لا أراه.

ثم استأذن لينخرط في الازدحام بحثاً عن مونيه.

ولقد جال في المحطة. اخترق الصفوف طولاً وعرضاً، دخل المقاهي والمطاعم الصغيرة، وتفقد أكشاك بيع الصحف والتذكارات، ولم يرَ أثراً لمونيه.

وفجأة وجد نفسه وجهاً لوجه أمام ابنة عمه وعمه.

كانت لويا ترفع اسمه. وكان العم يرفع قبعته. ولم يكن أحد منهما قدِ تحرك من مكانه. إنما جاناد كان قد دار على جوانب المحطة وعاد، من حيث لا يدري، إلى النقطة التي انطلق منها.

ــ ألم تجد صديقك؟. سأله العم.

ــ لم أجده. لقد اختفى.

فرفع العمّ قبعته عن رأسه ووضعها على رأس جاناد:

ــ هذه لك. كنت قد وعدتك بقبعة. أتتذكر؟

ــ نعم أتذكر. قلت لي ذلك في رسالتك الأخيرة.

لكنّ جاناد ما لبث أن رفع القبعة عن رأسه، فقد شمّ منها رائحة عرق العمّ.

كانت ثمة سيارة شبه شاحنة تنتظر بمحاذاة الرصيف خارج المحطة، وكان هناك سائق يقف إلى جانبها، ففتح الباب الأمامي للسينيور خوليو، فيما جلس جاناد في المقعد الخلفي، وإلى يساره «لويا».

ـ كيف ستتكلم معه؟.. سألت «لويا» والدها.

ـ سوف أكون أنا المترجم. قال العم خوليو.

وإذ سمع جاناد السؤال والجواب بالإسبانية شعر ببعض الانفراج. فطالما ظنوا أنه لا يفهم الإسبانية، فلن يكون مُحرجاً ببقائه صامتاً، وقرّر البقاء صامتاً.

ومع أن تفكيره كان منصرفاً بالكامل إلى «مونيه»، فإن واجب الأدب كان يفرض عليه أن يبادر إلى محادثة عمه، فسأله:

ـ هل المدينة بعيدة؟

ـ نحن لسنا في الطريق إلى المدينة، المدينة في الجانب الآخر، قال العم. ثم أوضح:

ـ نحن الآن في الطريق إلى مزرعتنا، وفيها بيتنا.

وعاد العم ورفع صوته قدر ما يستطيع قائلاً لجاناد:

ـ لن تحتاج إلى وقت طويل لتتعلم لغة هذه البلاد. إنها لغة سهلة وحلوة. ألم تتعلّم شيئاً من اللغة الفرنسية يا جاناد؟

ـ بلى، أجاب جاناد كتلميذ شاطر في مدرسة ابتدائية.

ـ إذاً، هانَ الأمر. فالحرف الإسباني هو نفسه الحرف الفرنسي.

لم يعلّق جاناد، إنما فتح حقيبة يده، وأخذ يبحث عن ورقة صغيرة. لكنه عاد وأطبق الحقيبة فوراً، محاذراً أن ترى «لويا» شيئاً. فأكثر الأوراق التي في الحقيبة كانت باللغتين الإسبانية والفرنسية.

كانت الورقة الصغيرة التي يبحث عنها مكتوبة بخط مونيه، وفيها برنامجهما للأسبوع الأول في «بوانس آيرس».

وحسب ما كتبت مونيه يبدأ البرنامج بالتعارف مع العم خوليو في محطة الميناء، ثم التوجه معه إلى منزله للقاء مع عائلته، إذا كانت لديه عائلة. وبعد ذلك ينتقلان مباشرة إلى فندق «غاريبالدي».

لقد أرادت مونيه أن تكون الأيام الثلاثة الأولى في «بوانس آيرس» فرصة يكتشف خلالها جاناد المدينة.

وبمقتضى البرنامج، فإن اليوم الرابع هو يوم خميس، وهو اليوم المفضل لدى «مونيه» بين أيام الأسبوع، وقد اختارته ليكون موعد حضورهما أمام القاضي المدني لتسجيل عقد زواجهما.

تذكر جاناد كل برنامج مونيه وهو ينظر من خلال نافذة السيارة إلى جانب الطريق.

كان السائق منحنياً على مقود السيارة، وكان المقود يهتز بين قبضتيه مع أن السرعة بطيئة.

ومن جديد طلع صوت العم يقول لجاناد:

ـ هذا السائق بغل، اسمه «خوسيه». لكنه بغل يتكلم، ويأكل. يسكر، ويدخن، ثم ينام. ولا يكون صاحياً إلا عندما يكون وراء مقود السيارة، خصوصاً إذا كنت أنا إلى جانبه.

وإذ سمع «خوسيه» اسمه رفع صوته عالياً يسأل السينيور خوليو ماذا قال عنه بالعربية، فأجاب خوليو:

ـ قلت له إنك سائق ماهر، نشيط، وأمين!

سمع جاناد جواب عمه فأغمض عينيه.

لم تكن مزرعة العم بعيدة. لكن السيارة كانت بطيئة، وقد مضى نحو نصف ساعة قبل أن تنعطف عن الطريق يميناً، فلاحظ جاناد عند المنعطف لافتة من الصفيح كتب عليها «مزرعة لويا».

أطلق خوسيه الزمّور ثلاث مرات. كانت تلك إشارة، فتراكض عدد من الرجال والنساء واصطفوا لإلقاء التحية على السينيور خوليو وهو يترجل من السيارة. وقد فوجئوا عندما شاهدوا «لويا» مع شاب لم يروه من قبل.

«هؤلاء هم جماعتي». قال العم، ثم أخذ يشير بعصاه ويذكر

الأسماء: «ميغيل. يولاندا. ريكاردو. غرازييلا. إميليو. كارمن. مانوئيل. مارتا»..

كان جاناد يحني رأسه احتراماً لكل اسم. لكن العم لم يعرّف عنه، حتى أنه لم يذكر اسمه. إنما أشار إليه قائلاً:

ــ إنه لا يعرف لغة البلاد.

فقالت «كارمن»، وهي جميلة وظريفة:

ــ سينيور خوليو، أتركه لي. أنا أتكفل بتعليمه لغتنا!

وفي حين ضحك الجميع، عَبس العم خوليو، وكذلك لويا. أما جاناد فقد تظاهر بأنه لم يفهم شيئاً.

وسارع العم لإصدار أمره إلى الرجال والنساء:

ــ عودوا إلى أعمالكم.

ثم التفت إلى لويا:

ــ هذه الزعرة (كارمن) يلزمها قطع لسان!

حيث كان يقف العم ولويا وجاناد، كانت هناك شجرة ظليلة. وبالقرب منها فوهة بئر ماء، فوقها دلو معلق بحبل.

وقبالة تلك الشجرة تماماً، كان هناك كوخ، جدرانه من خشب، وسقفه من «الآجور»، وله نافذتان، إحداهما أكبر من الثانية، ما يشير إلى أنه مؤلف من غرفة نوم ومطبخ.

وتحت الشجرة مقعد خشبي، جلس عليه جاناد، وجلست لويا إلى جانبه، فقال العم مشيراً إلى الكوخ:

ـ هذا هو بيتي الأول في الأرجنتين. هنا نمتُ ليلتي الأولى، وكانت قد سبقتها ثلاث ليالٍ أمضيتها في محجر صحي خارج الميناء.

ـ هل كنت وحيداً في هذا الكوخ؟ سأله جاناد.

ـ في الليلة الأولى، لا. فقد كنا خمسة: أنا، ولبناني آخر، وسوري، وتُركيَّان. ولم نكن نعلم أننا ننام في وسط ما يشبه مخيماً سكنياً يسمى «كامبو أليبرتو». ولكم ذهلت، في ما بعد، عندما علمت أن نزلاء «الكامبو» وأنا منهم، كانوا يأتون إليه بتوجيه من مخبرين يعملون لحساب السلطات الأمنية في ميناء «بوانس آيرس». فمن هذا الكامبو وأشباهه، كانت تُرصد حركة المهاجرين الجدد إلى الأرجنتين.

وقال العم: كنا، نحن الخمسة، مجموعة مصنفة في خانة «التوركو». وعندما صحوت لم أجد أحداً من رفاقي، واكتشفت أني غفوت عشرين ساعة. ذلك أني كنت أمضيت الليالي الثلاث في المحجر الصحي، صاحياً وسط الأجساد الدبقة، والروائح النتنة. ومن كان مصاباً بمرض كان ينقل العدوى إلى الآخرين. وصاحب الحظ هو من يخرج سليماً، بشهادة تخوّله الإقامة والعمل في الأرجنتين.

ـ وكم مكثت في هذا الكوخ؟

ـ ستة اشهر، أجاب العم وأكمل:

بدأت العمل بالزراعة. اتفقت مع صاحب المزرعة على البقاء هنا. وقد استطعت إقناعه بقدرتي على العمل. ولم أكن بحاجة لأشرح له بأي لغة. فعندما رأى طول قامتي ومتانة جسدي، قادني إلى حقل قريب، وسلّمني إلى رجل عرفت، فيما بعد، أنه الوكيل. ومنذ اليوم الأول أثبتّ قدرتي وخبرتي بالزراعة.

كاد العم يسترسل في سرد سيرته عن بداية هجرته لو لم تلفته «لويا» بإشارة إلى ساعة يدها، فتوقف ليقول:

ـ سوف نكمل في المنزل.

ولم يكن المنزل بعيداً أكثر من مئة متر داخل نطاق المزرعة.

وراح العم يمشي مع جاناد، ولويا إلى جانبه، ليقول لها قبل الوصول إلى المنزل:

ـ إياكِ أن تقولي لأمك أني قلت لكِ إنه عريسك.

وأردف: كنت أنتظر لأراه أولاً، ولما رأيته دُهشت. ولشدة فرحي به لم أستطع إلا أن أعلن فوراً ما أضمر. ذلك أني وجدته الشاب الذي يليق به أن يكون عريسك.

واستدرك ليقول: لعلي تسرعت، لكني تحاشيت أن أفصح له عن ذلك بالعربية، ريثما تتعرفين إليه وتتخذين قرارك.

كان العم يقتنص الوقت في المسافة القصيرة بين الكوخ والمنزل

ليفضي إلى «لويا» بما يريد أن يخفيه عن والدتها، وعن جاناد. وكان جاناد يسمع ويتظاهر بأنه لا يسمع ولا يفهم.

لكن لويا لم تتريث في إبداء رأيها، فقالت فوراً: «إنه يعجبني».

فعلّق العمّ: حسناً «لويا»، هذا ما كنت أتوقعه منك. والآن اتركي الوقت لوالدتك حتى يأتي يوم قريب تقول لك فيه إنه يستحق أن تكوني عروسه.

كان منزل العم مميزاً بين بيوت المزرعة، فهو قائم في حديقة واسعة على مدخلها لوحة معدنية، كتب عليها «فيلا إيليانا».

على الباب كانت تقف امرأة عاقدة يديها خلف ظهرها. ولولا ثوبها الطويل، لظنها الزائر الغريب حارسة «الفيلا»، فهي نحيلة، وشعرها أبرش قصير على طريقة صبيان الشوارع.

ــ لماذا تأخرتم، خوليو؟ قالت المرأة بصوت خشن، وبنبرة لائمة، ثم مدت يدها اليمنى لتصافح جاناد، فيما احتفظت باليد اليسرى خلف ظهرها:

ــ «أهلاً وسهلاً». قالت بالعربية، وبسهولة، ما يدل على أنها حفظت الكلمتين، وردّدتهما أكثر من مرة، من قبل.

ــ إنها إيليانا زوجة عمك، عرّف عنها خوليو.

وما كاد جاناد يحني رأسه احتراماً، حتى استدارت إيليانا نحو الداخل، فجلست على كنبة خاصة بها في الصالون، وإلى

جانبها طاولة صغيرة منخفضة، عليها علبة سجائر ومنفضة، ونظّارة طبية.

وكضيف مؤدب، جلس جاناد على مقعد منفرد قبالة النافذة. وقد شعر بأن وجود النافذة أمر ضروري له حيث يجلس. فما دام لن يتكلم الإسبانية، لا بد من نافذة ينظر من خلالها إلى الخارج تعويضاً عن صمته. لكنه حيث جلس على المقعد المنفرد، لفتته صورة معلقة على الجدار خلف مقعد إيليانا. كانت صورة حمامة واقفة على حافة شباك.

ومع أنها صورة من الصور الرخيصة التي تباع على الأرصفة، فقد وفّرت لجاناد حجة للنظر إليها ما دام صامتاً لا يملك سوى ابتسامة.

وفي الأثناء مرّ السائق «خوسيه» في الرواق حاملاً حقيبة جاناد، فقالت له إيليانا بنبرة أمر:

ـ خوسيه، ضع حقيبة الضيف في الغرفة التي في آخر الرواق.

كان العم قد عرّج على غرفته، والأرجح أنه عرّج على المرحاض. ولم يطل الوقت حتى عاد إلى الصالون.

كانت إيليانا تنفث دخان سيجارتها باتجاه النافذة، فيما جاناد ينظر إلى النافذة تارة، وإلى صورة الحمامة تارة ثانية.

ـ كيف ستتكلم معه؟ قالت إيليانا.

ـ سوف أتولى أنا الترجمة، قال خوليو وأردف:

ـ أخبرني أنه تعلم في المدرسة بعض الفرنسية، وقلت له إن الحرف الإسباني هو نفسه الحرف الفرنسي، وهذا ما يسهل له قراءة الكلمات بالإسبانية.

ثم دخلت لويا، بعد ما غيرت فستانها. فقال لها والدها:

ـ لا بدّ أن يكون هناك من يعلّم الإسبانية للمهاجرين العرب الجدد. أليس كذلك؟

ـ أنا لا أعرف أحداً، لكني سوف أسال العاملات معي في معمل الخياطة عن أحد يعلِّم الإسبانية للعرب.

فالتفت العم إلى جاناد ليوضح له:

ـ لويا تدير معملاً للخياطة هنا في المزرعة. إنه لها، وهو على اسمها، ولديها سبع فتيات عاملات. سوف تسأل إن كانت إحداهن تعرف مهاجراً عربياً يعلم الإسبانية.

وجّه جاناد إلى لويا نظرة تنم عن امتنان. فقالت إيليانا:

ـ لا أعتقد أنه يستطيع أن يتعلم بسهولة. لا يبدو عليه أنه ذكي.

فاعترضت لويا على رأي أمها:

ـ إنه غريب، ويجهل اللغة، لكنه مؤدّب ولطيف. فلنعطه بعض الوقت.

وامتعضت إيليانا فأشعلت سيجارة، ثم قالت وهي تنظر عبر النافذة:

ـ من الأفضل له أن يأخذ حماماً ويرتاح.

وإذ سارع العم إلى الترجمة بالعربية، نهض جاناد ومضى إلى الغرفة وقد رافقه عمه حتى الباب، ولم يكن هناك حمّام.

كان المنظر من نافذة الغرفة رائعاً. وكان جاناد بحاجة إلى فضاء يطلق فيه أنفاساً تتراكم في صدره. فأمسك بشبكة النافذة مثل سجين، وراح يتطلع إلى المدى المفتوح أمامه. كان في حاجة إلى كوب ماء. لم يجد في الغرفة ماء، ولم يشأ أن يعود إلى الصالون ليشرب.

وتذكّر علبة سجائره. كان منذ لحظة لقائه العم في محطة الميناء قد امتنع عن إشعال سيجارة. ولم يكن لامتناعه سبب سوى احترام وجود العم أمامه. تلك خصلة من خصال أهل الجبل في حضور الأكبر سنّاً. أما الآن فإنه يرى أمامه عمّاً منافقاً، ملفقاً، لا يستحق الاعتبار.

كما أنه أمام زوجة عمّ فظة، وقحة. ثم إن هناك ابنة عم صبية ضعيفة وساذجة إلى حد الغباء.

هذه كانت بعض الأوصاف والنعوت التي تمتم بها جاناد منفرداً.

بيد أنه، في الوقت عينه، أقرّ بأنه أصبح شريكاً، بالرغم منه،

في عيب وجد نفسه فيه الطرف الصامت والمستمع، ألا وهو عدم الإفصاح عن إتقانه الإسبانية.

وإذ تمدد على السرير غرق في غفوة طويلة. وحين فتح عينيه كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة ليلاً. وفي الدقيقة الأولى من صحوته ضغطت عليه فكرة مغادرة بيت العم في الحال.

في البدء لم يقاوم الفكرة، لكنه تمهّل لعله يجد سبباً يتذرّع به. ولم يجد سبباً يفوق واجباً أدبيّاً يلزمه بالبقاء ليومين، على الأقل. وكان عليه أن يتهيأ للعودة إلى الصالون، وحين مشى في الرواق تكلف سعلة خفيفة لينبه إلى قدومه.

وقف في باب الصالون وألقى تحية المساء بالعربية. كان عمه يغطّ في النوم على كرسيه، وكانت إيليانا تدخن، فيما لويا تسند رأسها بقبضة يدها، وقد قابلته بابتسامة.

وصاحت إيليانا: «إصحَ أيّها المترجم الخامل. ثمة حاجة إليك الآن».

ففتح العم عينيه وفرك أنفه، ثم سأل جاناد.

ــ هل نمت جيداً؟

ــ نعم، إني أشعر الآن بالراحة.

ورفع العم صوته بنبرة عالية:

ــ «إستيريتا». . حضِّري العشاء.

كان العشاء في الحديقة، حيث اللحم المشوي (الآسادور) الوجبة المفضلة لدى الأرجنتينيّين.

وكان جو الليل ملائماً لفتح دفاتر الغربة والوطن بين العم وجاناد، وقد انتحيا جانباً من الحديقة، فيما انزوت إيليانا ولويا قريباً من المشوى.

هكذا، نشأ ما يشبه العازل بين لغتين. ولقد شعر العم بأنه يلتقي عائلته الأولى بكاملها. كان مشحوناً بالرغبة في الكلام، وكأن ثماني وعشرين سنة قد حضرت في خاطره دفعة واحدة.

كانت «استيريتا» كريمة في تقديم الشواء مع النبيذ الأرجنتيني. فرفع العم كأسه: «بصحة الحبيب جاناد».

وإذ سمعت إيليانا طرق الكؤوس، نادت من الجهة الثانية:

ـ خوليو، لا تفرط في الشراب فتفضح عيوبك.

ولم يردّ عليها. إنما قال لجاناد:

ـ إنها تطلب مني أن أسألك إن كنت قد أحببت الشواء!

عاد العم إلى التلفيق في الترجمة، ووجد جاناد نفسه في ما يشبه مسرحية مرتجلة، فاستساغها، وعزم على الانخراط فيها فقال لعمه:

ـ قل لزوجة عمي إن هذا الشواء لذيذ جداً. إنه من أشهى ما أكلت في حياتي. ولعله الأشهى.

فصاح العم: «إيليانا»، اسمعي ما يقوله عنك جاناد. يقول انك زوجة عم رائعة. وإنه لم يكن يتصور أن لي زوجة بهذه الرقة وهذا الكرم والأدب!.

لكن إيليانا ردّت عليه: «إذا كان هذا صحيحاً فإني أشكره. وعلى أي حال فإن ذلك لا يمنع أن تستر عيوبك أمامه».

فترجم العم: تقول لك إنها سعيدة بأنك أحببت الشواء. وتقول لك مثلاً دارجاً هنا وهو : «ان البلاد التي تحب طعامها تحب شعبها».

فردّ جاناد عاجلاً، وقد أتقن دوره: قل لها إني أحببت الشعب الأرجنتيني قبل أن أتذوق طعامه.

ترجم العم الجواب: إنه يقول عنك أنك العيّنة المثالية للشعب الأرجنتيني وقد أحبكِ مثل أمه!.

فقالت إيليانا: يخيّل إليّ أنه متملّق، ممالىء مثلك.

وأردفت متهكّمة: هل كل عائلة آلافاندي من هذا الطراز؟

فترجم العم لجاناد:

ــ تقول إنها فخورة بكونها زوجة رجل من آل آلافاندي!.

ومضى جاناد في دوره متصنّعاً الجد. لكن فكرة المغادرة بأسرع وقت أخذت تلح عليه.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف. وشعر بأن النوم صعب عليه، إن لم يكن مستحيلاً، فرأى من المناسب أن يستمع إلى عمه ليتعرف إليه أكثر. فقال له:

ـ لطالما تخيّلتك شبيه والدي، وقد تأكّدت من أني لم أكن مخطئاً، فها أنا الآن أمام الحقيقة بعينها.

أطرق العم حزيناً:

ـ إنك تفتح جروحي، يا جاناد، إني لا أدري الآن على مَنْ أبكي، لكني أبكي الجميع بدمعة واحدة.

ثم مسح دموعه.. وقد لاحظ جاناد أن دموع عمه كانت صادقة، فاستثارت عطفه عليه إلى حد الشفقة، فسأله:

ـ ولماذا قاطعت الأهل والبلاد؟

ـ قصتي طويلة، لها وقت آخر.

واخترق صوت إيليانا جو الحديقة:

ـ خوليو، إلى متى ستستمرّ في الثرثرة؟

ثم نهضت، تتبعها لويا، ومن بُعد قالت: «ليلة سعيدة». ثم رفعت صوتها:. خوليو، قل لابن أخيك العزيز أن يقوم هو بغلق الباب من الداخل بالمزلاج، فأنت لا تستطيع ذلك.

فتمتم العم بضع كلمات بالإسبانية. وكانت شتيمة من العيار الثقيل.

كان جمر المشوى قد غطّاه الرماد. وكانت استيريتا قد لحقت بإيليانا ولويا إلى الداخل. فسأل جاناد عمه:

ـ هل كنت تعلم شيئاً عن عائلتك في الوطن؟

ـ علمت القليل مُتأخراً بمصادفة عجيبة. فقبل ثلاث سنوات تقريباً، جاء إلى المزرعة تاجر زهور. وما إن بدأ يتكلم معي بالإسبانية حتى اكتشفت أنه مهاجر لبناني حديث العهد في الأرجنتين، فتجرأت أن أساله بالعربية من أين هو؟

فتبيَّن أن صاحبنا من جيراننا في «كرم الشقيف». وكان يعرف عائلتنا. وهو الذي أخبرني كل ما لم أكن أعرفه عنكم.

لم يستطع جاناد إلّا أن يشك في صدق رواية العم، فسأله:

ـ وهل كشفتَ لذلك المغترب اللبناني أنك من «ربوا».

ـ لا، لقد تجنّبت ذلك. قلت له إني من «الكورة» في شمال لبنان. وادّعيتُ أن لي صديقاً مغترباً من عائلة «الأفندي» في «ربوا». وقلت له إن لهجة ذلك الصديق متطابقة تماماً مع اللهجة التي أسمعها منه.

وأردف العم: كانت مصادفة عجيبة فعلاً.

ـ لكن لماذا لم تعرِّف عن نفسك لذلك المغترب اللبناني؟

ـ أما قلت لك أن قصتي طويلة ؟ .

ثم أكمل: والآن قم، لقد فات موعد نومي.

واغتنم جاناد الفرصة ليسأل عمه إذا كان باستطاعته أن يذهب إلى المدينة في الغد ليسأل عن صديقه في فندق «غاريبالدي»، فوعده خيراً.

كانت ليلة صعبة على جاناد، لكنها كانت ليلة الأمل بوجود «مونيه» في فندق «غاريبالدي». وفي التاسعة صباحاً انضم جاناد إلى العائلة حول مائدة الترويقة في الحديقة عينها. فبادره العم: يبدو أنك لم تنم جيداً.

ـ بالعكس، لقد نمت نوماً عميقاً.

وساد صمت لم يكن يخرقه إلّا صوت احتكاك ملعقة صغيرة بحافة فنجان شاي.

«أعتقد أنه يحتاج إلى قليل من الملاطفة ليشعر بأنه موضع ترحيب في عائلتنا» قال العم بصوت خافت، وهو ينظر إلى السماء كما لو أنه يتكلم عن الطقس.

وكانت إيليانا تسند رأسها بإبهامها، وبأصابع اليد الأخرى تقلب سكين السفرة على الطاولة. فلما سمعت ما قاله خوليو رمقته بنظرة باردة، ثم عادت تحدق في صحنها، وتقول له بأدنى درجات صوتها:

ـ أنت لا ينقصك اللطف، أعطِه ما عندك.

فردّ خوليو، وكأنه يتكلم عن الطقس:

ـ ماذا أستطيع أن أعطيه من عندي؟ كان من واجبي أن أعرض عليه أمس بعض المال، لكني لا أملك حق التصرف إلا بما لديّ من عواطف وكلام جميل. أتعلمين أنه طلب مني أن يذهب اليوم إلى المدينة لملاقاة صديق له كان معه على الباخرة؟ أوَ تعلمين أن صديقه اقترض منه مالاً على أن يرده إليه في بوانس آيرس؟ وانه لهذا السبب يريد الذهاب إلى فندق «غاريبالدي»؟

ـ وهل ثمة غبي يقرض مالاً في البحر؟ قالت إيليانا.

ـ هذا ليس غباءً. هذه أريحيّة تتميز بها عائلتنا، قال خوليو..

فهزّت إيليانا رأسها:

ـ واضح، فأنت المثال لعائلتك!

كانت لويا تسمع وتنظر إلى جاناد، وقد بدت حزينة لحاله.

ـ ماذا تريدين الآن إيليانا؟ سألها خوليو بحدّة. فأجابت:

ـ أريد أن تنتهي هذه المهزلة الثقيلة بأسرع ما يمكن. وأتمنى أن يكون ابن أخيك العزيز يلاحظ أنه هو المقصود في حديثنا.

ثم أردفت مُتهكّمة: «هذا إذا كان ذكياً مثلك!».

فقال خوليو بعد صمت وتردد: يجب أن أقول لك شيئاً.

ـ ماذا ؟

ـ لقد قلت «للويا» لحظة وصوله، إنه عريسها.

ولم تفاجأ إيليانا، فقالت: أخبرتني هي ذلك أمس. لكنها ليست هدية جاهزة لتقدمها إليه.

ـ إذاً لماذا دعوناه إلى هنا؟.

ـ أنا وافقتُ على دعوته كزائر.

ـ حسناً، فلنعامله كزائر. إنه الآن يطلب منا أن يرافقه «خوسيه» في السيارة إلى المدينة.

ولم تعترض إيليانا فنادى خوليو السائق.

في تلك الأثناء كان جاناد يستمع كغبي بليد، وهو يتسلى بتقليب ملعقة السكر بين أصابعه. فقال له العم :

ـ السائق جاهز. . وسوف ترافقك لويا إلى المدينة.

فانتفض جاناد: لا، لا، أرجوك عمي. . أنا أشكرها. لكن يجب أن اعتمد على نفسي منذ اليوم. أليس هذا ما فعلته أنت في البدء؟ الأمور الآن أسهل بكثير.

ـ ماذا يقول؟. سألت إيليانا.

ـ إنه يريد أن يذهب وحده. لا يريد أن ترافقه لويا.

ـ حسناً، دعه يفتح «بوانس آيرس». قالت بسخرية.

فقال العم لخوسيه مُنبّهاً:

ـ سوف يكون السينيور جاناد وحده معك إلى فندق «غاريبالدي» في المدينة. إنه لا يعرف اللغة ولا يعرف المدينة، لا يعرف أحداً. عليك ألّا تدعه يمشي خطوة من دون أن تكون إلى جانبه.

أحنى خوسيه رأسه الضخم.

وعلى طول الطريق إلى المدينة كان جاناد محافظاً على صمته كالأبكم إلى جانب السائق. وكان خوسيه يُدندن بأغنية أرجنتينية. وبين فترة وأخرى يلتفت نحو جاناد، ويسأله بالاسبانية، وبصوت عال بما معناه: «مبسوط»؟ فيهز جاناد رأسه غير مكترث بما يسمع.

ثم أخذ خوسيه يحاكي نفسه بصوت خافت مُتهكِّماً:

«أنت مسؤول عنه يا خوسيه!. إياك أن تدعه يمشي وحده خطوة واحدة يا خوسيه! ولكن على افتراض أنه غافلني وهرب، فمن يلحق به؟ وهل أكون أنا المسؤول؟ لماذا لم يأتِ السينيور خوليو معه؟».

ثم راح خوسيه يكيل الشتائم للعائلة كلها: الأب، والأم، والابنة. ثم قال: «والآن جاء هذا الضيف الأبكم!».

كانت السيارة قد بدأت تخترق شوارع «بوانس آيرس»، وكان

خوسيه يمدّ إصبعه، ويسمّي الشوارع والساحات التي يعبرها.

وفجأة وقع نظر جاناد على «مقهى غوركي». ثم، على مسافة قصيرة بعد «غوركي»، ظهر فندق «غاريبالدي».

أمام باب الفندق ترجّل جاناد مسرعاً، فلحق به خوسيه كحارس يرافق تلميذاً صغيراً إلى مدرسته. لكن جاناد أمره، بالإشارة، بأن يبقى في الخارج.

وفي ركن الاستقبال سأل جاناد الموظفة عن السيدة «مونيه غوليز»، فعكفت الموظفة على مراجعة لائحة النزلاء، ثم قالت:

ـ السيدة غوليز غادرت الفندق.

ـ ألم تعد بعد؟

ـ لا أظن أنها عائدة. فقد دفعت حساب جناحها رقم ٤١٧.

ـ هل يمكنني أن أعرف في أي وقت غادرت؟

ـ هل أنت رجل بوليس؟

ـ لا، أنا صديقها.

وعادت الموظفة إلى التدقيق في اللائحة. ثم قالت:

ـ لقد غادرت السيدة غوليز في الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف ليل أمس.

ـ ألم تنم هنا؟

ومجدّداً أعادت الموظفة النظر في اللائحة:

ـ لا، لم تنم ليلتها هنا. فقد وصلت في الساعة الواحدة بعد ظهر أمس، وغادرت بعد منتصف الليل.

«إذاً ظلت تنتظرني هنا حتى قطعت الأمل من مجيئي فذهبت».

تمتم جاناد آسفاً وغادر الفندق.

كان الوقت قد صار ظهراً حين عاد جاناد إلى بيت العم.

كانت إيليانا جالسة على كنبتها في الصالون، فسأله عمه:

ـ هل وجدت صديقك؟

ـ لا لم أجده. قال جاناد بغير اكتراث.

ولم تبدِ «إيليانا» أي اهتمام لتعرف ماذا قال. كما أن خوليو لاذ بالصمت. لكن حين دخلت لويا سألت والدها إذا كان جاناد قد وجد صديقه واستردّ ماله منه، فأجاب خوليو آسفاً: لم يجده.

فعلقت إيليانا ساخرة: أما قلتُ لكِ إنه غبي؟. وهل من غبي يقرض مالاً في البحر؟. وهل كان يتوقع أن يجد ذلك المحتال بانتظاره في فندق «غاريبالدي»؟

ثم أشعلت سيجارة وراحت تتمتم: «أغبياء. عائلة أغبياء».

وأكملت: كان لدينا واحد، فصار لدينا اثنان من هؤلاء.

وشعر جاناد بأن اللحظة مناسبة لإعلان رغبته بالمغادرة فسأل عمّه:

ـ هل أستطيع الانتقال للإقامة في فندق «غاريبالدي»؟

فوجىء العم، وسأل عن السبب، فقال جاناد:

ـ أنا معتاد على العيش بمفردي.

ـ لكنك وصلت أمس.

ولم يعلق جاناد. لكن إيليانا لاحظت أنه متوتر فقالت لخوليو:

ـ يبدو أن صديقه الذي احتال عليه قد سلبه مبلغاً كبيراً من المال. ثم أردفت: ماذا طلب منك؟

ـ طلب أن ينتقل للإقامة في فندق «غاريبالدي».

للمرة الأولى لم يكذب العم بالترجمة.

وإذ بدت علامات التعجّب على وجه إيليانا، علّقت:

ـ إذاً، لديه المال لكي يقيم في فندق درجة أولى.

وقال خوليو: أظن أن هناك سبباً ما جعله يطلب الانتقال إلى الفندق. وأردف: يبدو أنه لم يحبنا.

تطلعت «لويا» إلى أمها، فرأتها غير مكترثة، فقالت لها بانفعال:

ـ أنتِ السبب. أنتِ لا تريدينه. فلو أنه فهم كلمة واحدة بالإسبانية لكان شتمنا وغادرنا فوراً.

ثم أطرقت لويا وتابعت بصوت خافت:

ـ على أيّ حال، أنا أحببته، ولا أريده أن يذهب.

حدجتها أمها بنظرة استخفاف:

ـ لا تكوني رخيصة، إنه لا يستحقك.

نهضت لويا غاضبة، ودخلت إلى غرفتها، وصفقت الباب.

كان جاناد يتابع ما يدور حوله من دون أن يلتفت إلى أحد. ثم قال للعم:

ـ قرّرتُ أن أغادر اليوم إلى الفندق.

نظر إليه عمه مستغرباً، ولم يعلق.

ومن دون أن ترفع رأسها، سألت إيليانا خوليو:

ـ ماذا قال لك؟

ـ أنه يريد أن يغادر اليوم.

ـ وماذا قلت له؟

ـ لم أقل له شيئاً. فضّلت التريّث.

ــ وماذا ستقول له؟

ــ لا أعرف، إنه يربكنا.

ــ لماذا يربكنا؟ هو يريد أن ينتقل إلى الفندق، فليكن له ما يريد.

تحوّل خوليو نحو جاناد:

ــ امرأة عمك مستاءة من مغادرتك إلى فندق. أما وأنك تريد ذلك، فليكن ما تريد.

وفي ذلك المساء شهدت «فيلا إيليانا» وداعاً للضيف الذي وصل في الأمس.

وكما في الأمس، وقفت إيليانا على عتبة الباب، ويدها اليسرى خلف ظهرها.

ــ أين لويا؟ سأل جاناد عمه.

ــ إنها في غرفتها، ترفض أن تتكلم مع أحد، وقد رفضت أن تخرج لتودعك.

ــ هل أستطيع أن اقول لها وداعاً؟

ــ بالتأكيد، قال العم ومشى أمام جاناد إلى غرفة «لويا».

وعند الباب رفع جاناد صوته منادياً: لويـا. .

وللمرة الأولى سمعت اسمها بصوته، فأجهشت بالبكاء. كانت مستلقية على سريرها ووجهها على الوسادة.

وكان جاناد لطيفاً فمد يده ليلامس كتفها: «لويا» . . ؟

فاستوت جالسة بعصبية وتمسّكت بيده:

ــ أرجوك، لا تذهب.

ــ إنها ترجوك أن تبقى، قال العم مترجماً.

فعاد جاناد ولامس كتفها، وقال لها على سبيل المجاملة:

ــ أنت لطيفة جداً، يا لويا، وإني سعيد جداً بكونك ابنة عمِّي، لكن لي أسبابي وظروفي، فاعذريني.

ولقد ترجم العم لابنته كلمات جاناد حرفياً، من دون تحوير، ولا تلفيق، فخاطبت «لويا» والدها:

ــ قل له أني أحببته. وإذا كان سيذهب فليأخذني معه.

فترجم العم لجاناد:

ــ تقول لك أنها أحبتك. . وتصارحك بأنك إذا ذهبت فسوف تهرب من البيت وتلحق بك.

وكان على جاناد أن يتحمل تلفيق العم من جديد. فتمنّى عليه أن يقول للويا أنه أحبها كابنة عم، وأنه متأكد من أنها سوف تجد عريساً أفضل منه.

فترجم العم لابنته:

«يقول لك أنه يبادلك الحب، وسوف يعود إليك في يوم قريب أو يرسل لك عنوانه!».

وما إن ختم العم جملته الملفقة حتى رفعت لويا رأسها نحو جاناد، فمسحت دموعها وهي تبتسم، ثم أخذت يده ووضعتها على خدها. وإذ بدت مستكينة، انسحب جاناد من الغرفة. وقال للعم وهو يشير إلى لويا:

ـ لا تدعوها حزينة.

فترجم لها والدها:

ـ لن يتأخر حتى يعود.

وتجاهل جاناد الترجمة، وقال للعم:

ـ كُن مطمئناً. وعندما أستقرّ سوف أوافيك بعنواني.

ولم يستطع أن ينحني ليلثم يد عمه مودعاً.

□ □ □

XI

كان بهو فندق «غاريبالدي» ساكناً عندما وصلت سيدة مُتمهِّلة ومرتبكة إلى ركن الاستقبال وسألت عن السينيور جاناد آلافاندي. نظرت الموظفة في لائحة النزلاء، وقالت للسيدة أن هذا الاسم غير موجود في اللائحة.

لكن السيدة أصرّت على أن السينيور آلافاندي جاء إلى هذا الفندق قبل أسبوعين.

وعادت الموظفة إلى التدقيق في لوائح الأسبوعين الماضيين، ثم قالت للسيدة:

ـ نعم، السينيور آلافاندي كان هنا، لكنه أمضى أربعة أيام ثم غادر.

ـ إلى أي عنوان غادر؟

ـ آسفة سيدتي، لا نعرف.

كانت «إيليانا» هي السيدة التي جاءت تسأل عن جاناد. وقد صار له عنوان جديد لا يعرفه أحد. إنه في حي «لابوكا» في وسط مدينة «بوانس آيرس». هناك، في الحي العريق بأقدميّته، حيث الشوارع واسعة، والشرفات متباعدة، وجد شقة صغيرة تناسبه. كانت مفروشة بذوق رفيع.

وقد اكتشف تلك الشقة في إعلان منشور في صحيفة محلية بدأ يقرأها في «مقهى غوركي».

حدث ذلك في اليوم الأول من دوامه في ذلك المقهى، الذي اتخذه عنواناً دائماً له.

ولعلّ الرجل العجوز، ذا العينين الحادتين، هو الذي جعله يتخذ قراراً عاجلاً باستئجار الشقة. ذلك أنه كان صاحب الشقة. وكان على قدر كبير من الظرف والحنكة. إذ سأله أولاً:

ـ هل أنت مؤمن يا سينيور؟

وإذ استغرب جاناد السؤال، فقد سأل:

ـ هل ثمة شرط يتعلق بالإيمان للحصول على الشقة؟

فأجاب الرجل العجوز نافياً:

ـ لا، ليس ثمة شرط من ذلك النوع. لكني أريد أن أُبدي لك نصيحة. فهنا في الحي لدينا الأب «جوفياني». ولا بد أن يكتشف أنك مستأجر جديد، فيأتي ليبارك لك بيتك بالبخور

والماء المقدس. فإذا كنت لا تحتاج إليه، فقل له إنك يوناني، فيذهب ولا يعود.

ـ لكني لست يونانياً.

ضحك العجوز قائلاً:

ـ إذاً، استعد للبرَكة بالماء المقدس والبخور.

ـ لكنه لن يحظى بي.

كما أي عامل، أو موظف، يخرج إلى عمله في الصباح، كان جاناد يغادر شقته قاصداً «مقهى غوركي». كان يمشي مجهولاً، بلا مواعيد، ولا عناوين، ولا أرقام هاتف. إنما كان لديه أمل وحيد بأن يعثر على رقم هاتف «مونيه»، أو عنوانها، أو أن يلتقيها مصادفة. فلولا ذلك الأمل لما بقي في «بوانس آيرس»، ولكان وضَّبَ حقيبته وعاد إلى لبنان.

كان مقهى «غوركي» يُشبه منزلاً أثريّاً. كان مؤلفاً من ثلاثة أجنحة: جناح «يمين» وجناح «يسار» وجناح «وسط».

كان إسم الروائي الروسي «مكسيم غوركي» الشهير، يحتلّ واجهة المقهى في الخارج. وفي الداخل كانت صورته على صدر الجدار، وفيها يظهر غوركي بوقاره، معتمراً قبعة الفلاحين الروس، وفي عينيه غضب كما لو أنه ينظر إلى القيصر الروسي.

أطالَ السينيور جاناد النظر إلى صورة «مكسيم غوركي». ولم يكن بحاجة لأن ينظر إلى تلك الصورة. ذلك أن شبيه

«غوركي» كان جالساً على كرسي عالٍ في زاوية بهو المقهى، وأمامه شبه منبر. ولم يكن ذلك الرجل إلّا صاحب المقهى.

كان يُجسِّد شخصية «غوركي» تماماً. ينظر إلى الوافدين متفحّصاً بدقة، وقد لاحظ جاناد أنه كان يراقبه فعرف أنه جديد على المقهى.

بموازاة صورة «غوركي» كانت هناك لوحة مكتوبة من خمسة أسطر مسكوبة بحروف من البرونز. وقف جاناد أمام اللوحة، وقرأ الأسطر الخمسة:

«عبثاً تطيح الأسلحة الطغاة إن لم تنشىء نظاماً سياسياً خليقاً بإصلاح ما دمّرته الثورة. النظام العسكري هو القوة. والقوة ليست نظاماً للحكم».

تلك كانت كلمات من رسالة بعث بها محرّر فنزويلا «سيمون بوليفار» إلى الكاهن «كورتيس مادارياغا» في ٢٦ تشرين الأول ١٨١٦.

فتح جاناد محفظة أوراقه ونقل الرسالة. ثم أخذ ينظر يميناً ويساراً ليختار طاولة. كان عازماً على أن يختار جناحاً لا يبدله، وطاولة لا يبدّلها. كانت كل الطاولات في الأجنحة الثلاثة متشابهة، ومرقمة، وكانت أرقامها بارزة. وفوراً ارتسم في خيال جاناد الرقم ١٧ فأخذ يبحث عنه، حتى رآه على طاولة منفردة في زاوية بشكل نصف دائرة.

«إذاً، هذا هو المكان المناسب للإقامة». قال في نفسه وهو يجلس إلى الرقم ١٧ وعيناه على وجه «غوركي» وعلى رسالة «سيمون بوليفار». ولقد حرص على عدم النظر إلى الوجوه حوله. لكن نظره جال على الجدران، فرأى لوحتين معلقتين على جدار الصدر، وهما من صنف الألواح التي توضع في قاعات الصفوف المدرسية، وكانت عليهما كتابات بالطبشور الأبيض الذي يستعمله المدرّسون والتلامذة.

اللوحة الأولى كانت بعنوان «وجبة اليوم».

أما اللوحة الثانية فكان عنوانها «رأي اليوم».

وكان الرأي المكتوب ذلك اليوم: «الثورات، كما المؤامرات، لا تصدر بمراسيم».

هكذا صار «مقهى غوركي» مكتب «السينيور آلافاندي»، ومطعمه، واستراحته، وصالون استقبال ضيوفه. هذا إذا وجد من يستضيفه.

أكثر من ذلك، وجد في «مقهى غوركي» منبراً، وصفحة رأي.

ويوماً بعد يوم، صار معروفاً في المقهى «السينيور رقم ١٧». وقد استطاع أن يحافظ على هذا الرقم.

كان أحد ثلاثة، أو خمسة روّاد، يبكرون بالوصول إلى المقهى. حتى إن الروّاد الدائمين أخذوا يراعون حقه بإبقاء طاولته خالية إذا ما تأخر.

ونادراً ما تأخر.

في عُزلته الحميمة، وسط زحمة الروّاد، كان يتلذذ بمتعة الجلوس وحيداً. فهنا مجتمع متنوع، متبدل على الدوام. هنا يرى وجوهاً ولا يعرف أسماء. ينظر إلى الوجوه كأنه ينظر إلى لوحات. يسمع أصواتاً ولا يُصغي إلا حين يشاء. وإذ تتصادم الأصوات وتتعالى بجميع اللغات، فإنها تشكِّل سيمفونية صاخبة يبلغ، على إيقاعها، عمق الصفاء.

لكنه، بين حين وآخر، كان يجد نفسه مرهفاً السمع إلى جلساء بالقرب منه، وهو لا يعرفهم، ولا هم يعرفونه.

كانوا، أحياناً، يتداولون روايات ينسجونها عن غرامياتهم، وعن مغامراتهم، وأحياناً يتبارون في الشعر. وقد لاحظ أنهم يكرّرون قصائد لشاعرة أرجنتينية تدعى «ألفونسيا ستورني». تلك الشاعرة عاشت حياة صاخبة، ملتهبة. لكنها، في النهاية، لم تستطع إخماد حرائقها إلّا يوم قفزت إلى حضن نهر «لابلاتا»، فغاصت فيه حتى القاع.

كانت لدى السينيور جاناد آراءٌ كثيرة للنشر على اللوحة السوداء. وقد كتب رأيه الأول: «الديكتاتور لا يستحق الإعدام. الذل فقط».

وإذ جلس إلى طاولته ذلك اليوم، راح يراقب، خلسة، الانطباعات على وجوه الروّاد.

كانوا يصلون فيقرأون «رأي اليوم» ثم يلتفتون إلى الطاولة رقم ١٧ بنظرة إعجاب. وما لبث أحدهم أن اقترب منه وسأله:

ـ أنت السينيور آلافاندي، أليس كذلك؟

ـ نعم..

ـ أنا «رامون بوكادري». هل تسمح بأن نتعارف؟

ـ بكل سرور. أجاب السينيور. فجلس بوكادري، ثم قال:

ـ أنا من «جمهورية آرابانو». ولن أسألك من أي بلاد أنت. لكني فهمت من رأيك على اللوحة أنكم تعانون من ديكتاتور ما، فهل هذا هو الواقع، سينيور آلافاندي؟

ـ ليس إلى هذا الحد، فبلادنا صغيرة ولا تتحمل ديكتاتوراً. أجاب السينيور آلافاندي.

ـ وأنا أيضاً من بلاد صغيرة، لكنها تتحمل ديكتاتوراً لا تتحمله بلاد كبرى. هل سبق لك أن زرت «جمهورية آرابانو»، سينيور آلافاندي؟

ـ لا، لم يحصل لي هذا الحظ.

ـ «جمهورية آرابانو» يا عزيزي، بلاد مشهورة بتاريخها، لكنها منكوبة في موقعها، ومصابة بحلم غامض اسمه «أُورُوبَة». هل تعرف أين تقع «جمهورية آرابانو»؟

ـ آسف. لا أعرف أين تقع جمهوريتكم.

ـ هل تسمح بأن أعرض لك خلاصة عنها؟ فقد يهمّك الأمر.

ـ ولم لا؟ قال السينيور ثم دعا «رامون» إلى الجلوس، فجلس معتذراً، مسبقاً، عن عدم قبول الضيافة. وراح يقدّم خلاصة عن بلاده.

ومن البداية اكتشف السينيور انه أمام أديب سياسي يميل إلى أسلوب فيه الكثير من الشعر في وصف بلاده، كأنها أسطورة.

قال «رامون» عن بلاده التي هي «جمهورية آرابانو»:

ـ إنها جزيرة تسبح في محيط رجراج يتشكّل من حقول ذهب، وبؤر ألغام، مضبوطة بساعات ليست في متناول أيدي حكّامها، ولا أهلها.

عليها من كل جنس، ولون، ودين، ضدان. تتلاقى فيها الممالك، والجمهوريات، والديموقراطيات، والديكتاتوريات، وتزدهر فيها الرأسماليات، والمافيات، وتتآلف الحضارات، والثقافات، واللغات، وتمرّ فيها كلّ فصول الأرض والسماء.

إنها نموذج لبلاد تعرف كيف تعيش العزّ، والبؤس. هي ذوّاقة ألم، وفرح. تشكو وتشكر. تدين وتصفح. تقتل وترحم. تثور وتتعقَّل. تسرق وتتصدق. تكذب وتستغفر. تزني وتعِظ. تخطىء وتصحح. تتأرجح على حبال العفّة والفجش. تسقط وتنهض. تموت كل يوم، وتولد من جديد.

هي بلاد عراقة. تاريخها، على ما فيه من نكباتٍ عابرات، لا يجيز لها أن تختار لتمثيلها، وحكمها، إلّا من يضيف إلى ذلك التاريخ شرفاً ورفعةً. لكنّها تختار من يجهدُ لسحبها من التاريخ، وشطبها من الجغرافيا.

هي بلاد مفتوحة. حدودها من هواء وغمام. رياحها متقلبة، ولا مرصد لها. مرّة تهبّ من الشرق، ومرّة من الغرب. مرّة من الشمال، ومرات من الجنوب.

هي بلاد تتخلى عن الأرض وتتمسك بالسماء.

هي بلاد لا تغيب عنها الشمس، ذلك أن نصفها له شمس تشرق من الشرق، ونصفها الآخر له شمس تشرق من الغرب.

هي ملعب لرياح الحرّية من أينما هبّت. وكل ريح تحمل إليها مناخاً. حيناً تكون ريحاً منعشة، وحيناً تكون ريحاً عاتية مزمجرة، فتمطر سماؤها غباراً يعقبه وحل أحمر يدخل البيوت، فيعلو الصراخ والندب.

وحيناً تمطر غيثاً، وثلجاً، فتزهر الأرض وتثمر، ويعم الفرح، وتفيض النعم على من حولها. ويبقى أهلها في حرمان وخوف وخطر.

إنها حالة فريدة في محيطها. فهي إما أرملة، وإما ثكلى، وإما يتيمة. لذلك هي دائماً تحت وصاية أو حماية.

كان «رامون» ابن «جمهورية آرابانو» يتكلم من دون قطع نفس،

ولم يتلعثم بكلمة واحدة، كأنه يتلو درساً يكرّره كما يكرّر رجل الدين عظته.

وسأل السينيور جليسه ابن «جمهورية آرابانو»:

ـ ألم تعرف جمهوريتكم الحرية ولا في أي زمن أو مرحلة؟

ـ بلى، بلى يا صديقي. لقد تحرّرنا منذ أربع سنوات. كان الفرنسيون قد احتلوا جمهوريتنا لنحو ربع قرن. لكننا تآلفنا معهم على قيم الحضارة والمدنية، والعلوم، والثقافة. بيد أنهم، بالنتيجة، مستعمرون. وأظن أنهم احترمونا أكثر مما خافونا، فرحلوا عنا. إذ ليس من السهل أن تنال استقلالاً بمعركة واحدة، وبشهيد واحد.

ـ لكنك لم توضح لي أين تقع جمهوريتكم.

ـ كنت سأقول لك: إنها تقع على خط الزلازل. تلفحها الشمس الدافئة من جهة، وتضربها الأمواج العاتية من جهة ثانية، وتعميها كُثبان الرمال المتحركة من جهة ثالثة.

هي بلاد يسكنها جميع الأنبياء والقدّيسين، لكن الله هجرها من زمان.

ـ وماذا عن شعبها؟

ـ إنه شعب عظيم. ذكي. شجاع. مبدع. كريم. طيب القلب، واسع الصدر. متعدّد اللغة والإيمان. متنوع الثقافة والجمال.

يتوئم المستحيل بين الحرية والدين، بين الديموقراطية والفوضى، بين القانون والنظرية. إنه شعب يخترع الأمل والأمان، فإذا دهمه خطر من داخل، أو من جوار، ترتفع فوقه عمامة بيضاء وقلنسوة سوداء، وتتعانقان، فينام على حرير ليستيقظ على حريق وطوفان.

وإذ بدا السينيور حزيناً على حال «جمهورية آرابانو»، أطلق «رامون بوكادري» ما يشبه النشيد:

إيهٍ «بيريتا» عاصمة جمهوريتي، كم ظلموكِ، كم قهروكِ، وكم قتلوكِ، وندبوكِ. وكم صلبوكِ ونهبوكِ، وكم اغتصبوكِ ورجموكِ، وكم أبدعوا بنظم المراثي فيكِ، شعراً ونثراً. لكن أحداً منهم لم يرحمْكِ، ومنهم بعض أهلك، فلا تغفري لهم «بيريتا».

ختم «رامون بوكادري» نشيده، ثم انسحب خارجاً من المقهى.

وفي الحال اقتربت سيدة لتقول للسينيور:

ـ أظن أنك حديث العهد في «مقهى غوركي»؟

ـ نعم، هذا صحيح.

ـ لذلك اكتشفك «رامون».

ـ هل تعرفينه سيدتي؟

ـ بالتأكيد أعرفه، ومن لا يعرفه؟. إنه شاعر «آرابانو» التائه بحثاً عمّن يُصغي إلى مأساة وطنهِ وإلى نشيده.

وفي يوم بكّر السينيور بالوصول إلى المقهى ليكتب رأياً يسبق به آخرين، لكنه فوجىء بقصاصة صحفية ملصقة على اللوحة السوداء.

كانت القصاصة تتضمّن إعلاناً بعنوان بارز: «حَلَق فضّي مفقود».

ثم قرأ الإعلان: «مهاجر لبناني وصل إلى ميناء «بوانس آيرس»، وفقد فيه علبة صغيرة في داخلها قرطان من الحلَق الفضّي. فالرجاء ممّن وجد هذه العلبة، أو قد يجدها، الاتصال بصاحبها، أو قبول دعوته للحضور إلى «مقهى غوركي» في «بوانس آيرس»، وسوف يكون صاحبها جالساً كل يوم إلى الطاولة رقم ١٧ من الساعة التاسعة صباحاً حتى الواحدة ظهراً».

كان وقع المفاجأة على السينيور فاضحاً وهو يقف منبهراً أمام لوحة الرأي. فهو الذي كان قد كتب الإعلان، وسلّمه إلى الصحيفة، لكنه لم يكن يتصور أنه سيقرأه على لوحة المقهى يوم صدوره. كانت الصحيفة التي نشرته إحدى خمس صحف يحملها إلى المقهى: «لابابيس» الناطقة باسم الحزب البيروني الحاكم، و«لاكريتيكا» المعارضة الناقدة، و«لابرنسا»، و«لاناسيون»، و«الموندو».

ما إن جلس إلى طاولته حتى تحوّلت الأنظار نحوه. وكان بين الروّاد مهاجرون عرب معظمهم من اللبنانيين والسوريين، والفلسطينيين، والمصريين، وكان هناك مغاربة، فتوافدوا

للتعرف إلى السينيور رقم ١٧، وقد تعهدوا له بتعميم إعلانه في أوساطهم.

ومنذ ذلك اليوم بات من الصعب عليه أن يقرأ، أو يكتب، أو يرسم. كان يفتح الصحف ولا يقرأها. ينكبّ على الصحيفة فيما عيناه مصوّبتان نحو باب المقهى بانتظار أن تطل «مونيه».

ثم كان عليه أن يُرحّب برجل اقترب منه ذات صباح، وعرّف عن نفسه بأنه لبناني مهاجر وصل إلى الأرجنتين قبل أربع سنوات، وما إن صافح السينيور حتى سأله:

ــ ماذا جئت تفعل في هذه البلاد؟

ولما أجاب أنه آتٍ في زيارة وليس مهاجراً، قال الرجل:

ــ لقد طمأنتني، فأنا نادم على عدد شعر رأسي لأني هاجرت.

ــ ولماذا تبقى هنا؟، لماذا لا تعود؟، سأله السينيور.

ــ لأني أخاف شماتة أهلي وأصدقائي.

ثم أسمعه ذلك المهاجر أبياتاً من الزجل قال إنه تلقاها من أحد أقاربه، وهي لشاعر لبناني لا يعرف اسمه، لكنه شهير. قال ذلك الشاعر الذي كان قد هاجر ثم عاد إلى بلاده:

«هاجرت والْـ بعد منّي ولّفوا
ويا ما قصص عنّي وعنهن ألّفوا
آ ألف مرة بقول بالنهار القصير
كريستوف كولومبوس (إخت إخت) الْـ خلّفو.»

ضحك السينيور جاناد للمرة الأولى منذ أن ضاعت «مونيه»، فطلب من المغترب الفاشل أن يعيد تلاوة الأبيات مرة ثانية ليكتبها. . وقد حفظها.

وفي يومٍ آخر، كان قد شرب فنجان القهوة الثاني، وأشعل السيجارةَ الخامسة، فاستقام في جلسته متطلعاً نحو الباب.

كانت سيمفونية أصوات المقهى في أعلى إيقاعها حين ظهرت في الباب امرأة راحت تتقدم بخطى بطيئة، وإلى جانبها رجل لا يبدو أنه زوجها، ولا صديقها. توجهت المرأة إلى أقرب مضيفة وتكلمت معها، ثم استدارت في الاتجاه الذي أشارت إليه المضيفة، فوقف جاناد ليستقبل المرأة، وقد مشى بضع خطوات نحوها. ومع أنها كانت تعتمر شعراً مستعاراً، فقد عرفها. مدّ يده لمصافحتها ففتحت ذراعيها وعانقته بحرارة.

كانت المرأة «إيليانا» زوجة العم خوليو.

وفي حين ظلّت صامتة، قال الرجل الذي يرافقها بالعربية:

ـ أنا لبناني صديق عائلة السينيور خوليو، وقد جئت مع السيدة إيليانا بطلب منها لأترجم حديثاً عائلياً خاصاً سوف تفتحه معك، فأرجو ألا تعتبرني متطفلاً.

لم يبدِ السينيور سروراً بالمفاجأة، لكنه حافظ على قدر من الاحترام لزوجة العم، ثم سأل رفيقها اللبناني بكثير من الودّ:

ـ من أي منطقة الأخ الكريم في لبنان؟

ـ من الجبل.

ـ ومنذ متى أنت في هذه البلاد؟

ـ منذ ١٥ سنة.

ـ وكيف اهتديتم إلى عنواني في هذا المقهى؟

ـ لسنا نحن الذين اهتدينا، إنما هناك أصدقاء من الجالية اللبنانية في العاصمة يتناقلون المعلومات، وقد سبق لأحدهم أن قرأ اسمك على لوحة «مقهى غوركي» فكشف عنوانك.

كان جاناد في تلك الأثناء حائراً بين أن يستمرّ متخفياً بجهله اللغة الإسبانية، وبين أن يخرج من المأزق الذي حشره فيه العمّ. ولقد رأى في مناسبة مجيء إيليانا إليه فرصة ملائمة لاستعادة شخصيته التي وجد نفسه مرغماً على التنازل عنها. فقال للبناني الذي يرافق إيليانا:

ـ إنها فرصة سعيدة لأتشرّف بالتعرف إليك. وأريد أن أقول لك إني أصبحت متمكّناً من التحدث بالإسبانية. وأظن أن هذا ما يناسب زوجة العم. لذلك فإنها تستطيع أن تتحدث معي بمزيد من الحرية ما دام الموضوع عائلياً كما أوضحتَ لي أنت.

ثم تحوّل مباشرة إلى زوجة العم، وخاطبها بالإسبانية:

ـ لن نكون بحاجة إلى ترجمة الصديق اللبناني.

امتقع وجه إيليانا، وكان الصديق اللبناني قد تهيأ للنهوض، لكن

جاناد أصرّ على بقائه لتناول القهوة. وبعد أن انصرف سأل جاناد زوجة العمّ:

ـ ماذا تشربين سينيورة إيليانا؟ سألها جاناد باحترام مبالغ فيه.

فحرّكت يديها بإشارة رفض: لا شيء.

لكنه كرّر السؤال، وقال لها:

ـ أنا مُدين لكِ بالضيافة والتكريم، فماذا تشربين سينيورة إيليانا؟

وبدا عليها أنها تبحث عن كلمات لتقولها، فلم يترك لها فرصة:

ـ إنك تكتشفينني، وتتعرّفين إلي من جديد. أليس كذلك؟

هزّت رأسها مؤكدة ما يقول من دون أن تلتفت إليه.

وقدم إليها سيجارة فأخذتها. وحين أشعل الولاّعة وقرّبها نحو وجهها لاحظ رعشة أصابعها وشفتيها.

مجّت دخان سيجارتها مرتين، وثلاثاً، ثم سألته:

ـ لماذا أخفيت عنّا أنك تتكلم الإسبانية؟

لم يجب، فتابعت:

ـ لقد تركتنا نكشف أسرارنا ونفضح عيوبنا أمامك.

ـ وهل أنا المذنب؟

ـ كنت تستطيع أن تلتقط أكثر من مناسبة لتعلن أنك تتكلم الاسبانية. لقد جلستَ مع عمك سهرة طويلة، وخلال لقاءاتك معنا كان بإمكانك أن تلفظ بعض الكلمات بالإسبانية لو أردت. لكنك كنت مصمماً على التخفّي. واسمح لي أن أقول لك أنك، ربما، كنت مستمتعاً باكتشافنا، ونحن نتعرّى على حقيقتنا أمامك..

ـ لم أكن مستمتعاً، فقد نالني الكثير من الأذى.

وقاطعته: «الأذى صدر عني أنا، ولن أعتذر منك، لأن الاعتذار لن يفيد. إني أطلب منك الصفح». .ثم أخذت يد جاناد بين راحتيها، وضغطت:

ـ لماذا غادرتنا بسرعة؟

ـ أنا قررت ذلك في لحظة لقائي بعمي. ولكن دعيني أسألكِ:

ـ ألم تكوني أنتِ مسرورة بمغادرتي سريعاً؟

هزّت رأسها موافقة، وهي تنظر في عينيه، ثم قالت:

ـ لذلك جئت أطلب منك الصفح. لكني أريد أن أسألك:

ـ ألم تكن تعرف أن لك ابنة عم هنا؟

ـ كيف لي أن أعرف؟ أنا لم أكن أعرف أن لي عماً على قيد الحياة.

ـ هل فاجأك عندما رأيته؟

ـ لقد صدمني.

ـ بماذا صدمك؟

ـ صدمني عندما قدّمني إلى «لويا» مُعرِّفاً عني بأني عريسها، كما لو أني هدية وصلت تحت الطلب.

ـ لكن أليست «لويا» عروساً رائعة لك؟

ـ هي رائعة بقطع النظر عمّن تكون ولمن تكون.

ـ ألم تحبّها؟

ـ أحببتها كابنة عم.

ـ لكنها أحبتك، وصارحتني بأنها لا تريد زوجاً لها سواك.

ـ أنا لست آتياً إلى «بوانس آيرس» لأتزوّج.

ـ لكن الحظ يأتي من دون موعد.

ـ لويا ليست حظي، وأنا لست حظها.

ـ أنت مُخطِئ.

ـ لم يكن هذا رأيكِ في الساعات التي أمضيتها معكم.

ـ كنتُ على خطأ. وقد أسأت إليك، واعترفت لك، وطلبت منك الصفح للتوّ.

ــ وأنا صفحت، مع أني لا أحقد لأصفح.

ــ حسناً. ألا تريد أن تساعد ابنة عمك؟ إنها في حالة اكتئاب شديد منذ مغادرتك منزلنا. هي منزوية في غرفتها لا تريد أن ترى أحداً. إنها تتهمني بأني السبب بابتعادك سريعاً عنّا. ثم إن عمك في حالة إحباط. ألا يهمّك الأمر؟

ــ لست أملك المساعدة المطلوبة مني.

ــ ليس سواك من يملك المساعدة.

ــ ماذا تطلبين مني؟

ــ أطلب أن تذهب معي الآن لتقول؟ لـ«لويا»! أنك لها.

ــ أنا لا أتزوج ابنة عمي..

نفخت إيليانا فمها، وقد بدت متوترة، ثم سألت جاناد إن كان ممكناً الانتقال إلى طاولة أخرى بعيدة قليلاً عن السمع.

وكانت هناك ردهة في جناح «اليمين»، تتصاعد منها رائحة السيجار الكوبي الفاخر، وكانت فيها طاولة خالية.

وإلى تلك الطاولة جلست إيليانا لتكمل ما بدأته:

ــ إذاً، أنت جئت لتكتشف عماً فوجدته. لكن هل تعرف من هو هذا العم؟

ــ أليس هو خوليو آلافاندي؟

ـ بلى، إنه هو. لكن من هو؟ ألا تريد أن تعرف من هو؟

ـ بالتأكيد أريد.

ـ إذاً، اسمع أيها الشاب الذكيّ والمؤدّب. سوف أبوح لك بسرّ أحتفظ به، وما كنت لأبوح به لأحد، وخصوصاً لابنتي الوحيدة «لويا»، التي نذرتُ حياتي لحمايتها وسعادتها.

وأردفت: عليّ أن أصارحك بأني كنت قد حاولت ثني عمك عن دعوتك إلى «بوانس آيرس». لم أكن أعرفك، ولا عمك كان يعرفك. لكنه كان يعرف أنك موجود. وكم عمرك. وكانت تصله بعض المعلومات عن عائلتكم. وكان مصدر معلوماته مهاجرٌ لبناني من قرية قريبة من قريتكم، هو والد الرجل الذي رافقني إلى هنا للترجمة. كان عمك حريصاً على عدم كشف مكان وجوده منذ أن عاد من تشيلي، وأنا أعرف السبب. وقد لا أجد حرجاً إذا كان لا بدّ من أن أكشف لك يوماً ذلك السبب.

ولأُصارحك بوضوح: أنا ورثت أملاك والدي. ورثت الكامبو أولاً، ثم المزرعة مع «الفيلا»، فضلاً عن أرصدة لا بأس بها في البنوك.

وكما كنتُ أنا الوحيدة التي ورثت ثروة والدي، فإن «لويا» هي الوحيدة التي سترث، بل هي ورثت الثروة التي على اسمي بكاملها. فعمّك «خوليو» كان منذ بداية زواجنا، ولا يزال، يقوم بوظيفة مشرف على المزرعة، مع وظيفته كزوج..

قالت ذلك «إيليانا» ببساطة فجّة. وأكملت:

إنني الآن مدركة غايته من دعوتك. إنه يطمح إلى أن تؤول الثروة إلى عائلة «آلافاندي»، وليس له سبيل إلى ذلك إلا بزواجك من «لويا». هل رأيت أي حد يبلغ طمعه؟ إنه يتخطّى حدود الطّمع في الحياة إلى الطمع بما بعد الموت.

لقد كنتُ، ولا أزال، ضنينة بالثروة. فهذه ثروتي. كنت لا أريد أن يشارك «لويا» في هذه الثروة زوج غير أرجنتيني الأصل.

ثم استدركت «إيليانا» لتقول:

لذلك أصارحك بأني، حتى الآن، لم أكشف لك من هو عمك خوليو الذي لا تعرفه. وعليّ أن أكشف لك سراً خاصاً بعمك، وبي أنا شخصياً، فهل تريد أن تصغي إليّ؟

ـ بالتأكيد، هذا ما جئت من أجله. قال جاناد، ثم سأل «إيليانا» ماذا تشرب؟ فطلبت كوباً من البيرة.

وفي وقت انتظار المضيفة كانت «إيليانا» قد تهيأت للبوح بسرها، فقالت لجاناد إنها تجهل ما روى له عمه في سهرة الحديقة عن سنوات عمره في الأرجنتين، لكنها سوف تقول له الحقيقة، وبمقدار ما يمكن من الإيجاز.

وقد بدأت بنفسها، ولم تخف أنها كانت متزوجة من رجل وصفته بأنه عاهر، وقد عاشت معه سنتين في «باراغواي»، ثم طلّقته لتتزوج من رجل آخر لم تستطع أن تتحمله أكثر من سنة،

فطلّقته لتعود إلى مزرعة والدها، وقد توفي بعد سنة من وفاة والدتها.

ولقد تباهت «إيليانا» بأنها رفضت أن تستقبل في رحمها جنيناً من أيّ من الزوجين السابقين، فظلّت من دون أولاد لتجد نفسها الوريثة الوحيدة لأملاك والدها.

تلك كانت لمحة موجزة سردتها زوجة العمّ بصراحة عن حياتها لتدخل في مرحلة زواجها من «خوليو آلافاندي».

تذكّرته يوم جاءها وقدّم إليها نفسه على أنه عامل سابق في «كامبو ألبيرتو» يعرفه جيداً والدها وبعض العمال، ويمكن لهؤلاء أن يشهدوا له بالخبرة والنشاط، وقد سمّى بعضاً من نسائهم.

وحين سألته لماذا ترك «الكامبو» قال لها إن مهاجراً عربياً مرّ في «الكامبو» ونام ليلتين، فحدثه عن جمهورية تشيلي حيث يقيم ويعمل. وقد وصف له تشيلي بأنها أفضل بلاد للشغل وجمع المال السهل، وتمكّن من إقناع خوليو بالذهاب معه، فذهب. لكنه عاد بعد أربع سنوات خائباً.

ولتبرهن إيليانا عن شهامتها قالت لجاناد إنها رحّبت بخوليو، وأعادته عاملاً إلى المزرعة.

لكنها، بعد شهرين، بشّرته بأنه سوف يكون زوجاً لها. لم تقل له ذلك مباشرة. إنما قالت له «سوف تكون أباً يا خوليو».

وعندئذٍ ركع على ركبتيه أمامها، وقبَّل يديها، ثم ردّد كلاماً عظيماً: «شكراً للربّ. الآن شعرت بأني وُلدتُ رجلاً يستحق الحياة».

ثمّ نهض وقبَّلَ جبينها، وراح يعيش على حلم، وعلى قلق، حتى وُلدت «لويا». كان يلمسها وكأنه غير مصدّق أن المولودة التي أمامه ليست دُمية، إنما هي بنت من لحم ودم، وأنها ابنته.

لم يظهر على جاناد أنه تأثر برواية إيليانا، فقال لها:

ـ أهذا هو السرّ الذي تحفظينه عن عمي؟

لم تجب عن السؤال حالاً، وتمهّلت قبل أن تقول:

ـ لا تدعني أكشف السر كاملاً مرة واحدة.

ثم سألته:

ـ هل طابت لك الإقامة في «بوانس آيرس»؟

ـ نعم، ولديّ الآن ما يعنيني في هذه المدينة؟

ـ ألا تعنيك ابنة عمك؟

فأجب مُتبرِّماً:

ـ أنتِ تُكرِّرين السؤال ذاته، وتعرفين الجواب. فماذا تنوين؟

ـ لا أنوي إلّا أن تكون «لويا» زوجة لك.

ــ أنا لا أتزوّج ابنة عمي.

ضربت إيليانا بكفها حافة الطاولة، وقالت بحِدّة:

ــ «لويا» ليست ابنة عمك يا غبي!

وظلّ جاناد مُصغياً. . فأكملت بنبرة فجّة:

ــ لويا ابنة «خوسيه».

ثم انحنت ممسكة رأسها بيديها، وبكت. وقد أتاح لها جاناد الوقت الكافي لتعود وترفع رأسها فتقول:

ــ إنه خوسيه السائق. أنت تعرفه أليس كذلك؟

هزَّ جاناد رأسه. فتابعت:

ــ خوسيه هو والد «لويا».

ــ وهل يعرف العم خوليو ذلك؟

ــ لا، لا يعرف.

ــ وخوسيه؟

ــ لا يعرف.

ــ ولويا، هل تعرف؟

ــ إنك ترعبني بأسئلتك. ثم أردفت:

ـ لقد جرّدتني من السرّ الذي أستتر به، وأحمي به «لويا» منذ ولادتها، وأحمي به أيضاً عمك خوليو، وقد جئتَ أنت لتمزّق الستائر، وتشرّع الأبواب والنوافذ على عائلتنا الصغيرة، فماذا تريد منّي بعد؟

ظلّ السينيور صامتاً منتظراً أن تقول «إيليانا» ما تشاء من تلقاء ذاتها، وأخيراً باحت بالسرّ كاملاً.

قالت إن «خوليو» جاء إلى المزرعة قبل نحو تسع عشرة سنة عائداً من تشيلي. كان مفلّساً، محبطاً، ترافقه زوجة تدعى «روزي»، وكانت «روزي» متزوجة من رجل آخر تركته، ولها منه ولد.

لم تكن لخوليو مطالب ذات قيمة ليعود إلى العمل في المزرعة.

جُلّ ما طلبه كوخ ينام فيه مع زوجته «روزي».

ولقد وافقت «إيليانا»، ليس لأنّ المزرعة كانت بحاجة إليه، بل لأن إيليانا هي التي كانت بحاجة إلى «خوليو». وحين اختلت مع «روزي» سألتها عن خوليو، ولماذا هما على تلك الحالة من البؤس، فكشفت لها «روزي» أن خوليو غادر تشيلي هارباً من ملاحقة الشرطة بجُرم سطو، وقد هربت هي معه.

ثم سألتها منذ متى هي زوجته. فقالت «روزي» إنهما متزوجان منذ أكثر من سنتين.

ولـم تتردد «إيليانا» قبل أن تسألها لماذا هما بلا أولاد؟ فترك السـؤال مـلامح أسى عـلى وجـه «روزي»، إلّا أنـهـا أجابـت بصراحة:

ــ «إن خوليو رجل عقيم».

ــ عقيم؟ سألت «إيليانا».

ــ نعم عقيم.

ــ ولماذا تبقين معه؟ طرحت «إيليانا» سؤالها بنبرة ساخِطة.

أجابت روزي وهي تنفخ صدرها: إنّه رجل!!.

قالت ذلك بإكبار وتفخيم.

وأقرّت «إيليانا» لجاناد بأنها لحظة سمعت جواب «روزي»، عزمت على أن تنتزع منها خوليو بأي ثمن، ثم راحت تحثها على الافتراق عنه. ونجحت. وكبادرة دعم لها، منحتها مساعدة مالية باهظة لتغادر المزرعة، فغادرت إلى غير رجعة.

كانت لدى «روزي» ذريعة بسيطة لتبرّر لخوليو قرارها بالانفصال عنه: قالت له: «أنت مهاجر حديث العهد. مُلاَحَق، ومن دون عمل ولا مال. ولا تبدو أمامنا فرص. وقد أكون أنا عبئاً عليك. فلأدعك تدبّر شأنك، وأنا أدبّر شأني».

هكذا وجد خوليو نفسه وحيداً في «الكامبو». لكن وحدته لم تدم سوى أيام قليلة، انتقل بعدها إلى الإقامة في كوخ مميز

قريب من «فيلا إيليانا». وفي ذلك الكوخ كان ينام قبله السائق خوسيه.

وبقفزة عالية أصبح خوليو مشرفاً مفوّضاً على المزرعة، ثم زوجاً للسينيورة «إيليانا»، ثم والداً لـ«لويا»، مُزوِّراً بوثيقة زواج سجلت بعد ولادتها. واستمر «خوسيه» سائقاً عبيطاً، وبغلاً كما يصفه «خوليو».

تلك كانت خلاصة سيرة العم خوليو كما روتها «إيليانا». ثم قالت لجاناد:

ــ لقد بُحتُ لك بسرّ لم أبح به إلّا أمام أيقونة أمّنا العذراء. وكنت قد طلبت منها الغفران، وعاهدتها على ألاّ أعاود ارتكاب الخطيئة. كما كنت قد عاهدتُها على أن أحتفظ بسري لآخذه معي إلى قبري. لكني الآن، وقد حنثت بالعهد، فمن أجل ابنتي. وسأعاود الاعتراف. ولن أقع في خطيئة مرة أخرى. وسوف أصلي كثيراً ليسامحني الرب.

ظلّ جاناد ملتزماً الصمت حتى سمعها تقول له:

ــ أما وإنك قد تأكدت من أن «لويا» ليست ابنة عمك، فهل من سبب آخر يمنع أن تكون زوجتك؟

ــ نعم هناك سبب.

ــ ما هو؟

ـ أنا لي زوجة.

بدا وجه «إيليانا» شاحباً، وخاطبت جاناد بنبرة استفزاز:

ـ ماذا جئت تفعل في هذه البلاد؟

هزّ كتفيه باستخفاف:

ـ دعاني عمي فلبيت دعوته.

ـ لكنك تقوّض حياة أسرة عمك.

ـ أنا لم أفعل شيئاً.

ـ لكن هذا ما يحصل.

ثم رفعت صوتها لتقول: في الخارج السائق خوسيه.

وأردفت: للمرة الأولى، منذ تسع عشرة سنة، أخاف النظر في عيني خوسيه. وللمرة الأولى أخاف النظر في عيني عمك خوليو.

ثم خفضت صوتها قليلاً: لكن كيف سأنظر في عينيّ «لويا»؟

ولم يعلق جاناد بكلمة. فقالت «إيليانا» :

ـ حسناً، سينيور آلافاندي، لقد ربحتَ الرهان. إنما بقي لي عليك رجاء. فهل تعدني بأن تقبله وتلتزم به؟

ـ ما هو رجاؤك؟

ـ رجائي ان تحتفظ بسري الذي لا يعرفه أحد سواك. . فإن بحتَ به فسوف تقتل أربعة:

أوّلهم عمك، الذي سيكتشف متأخراً جداً أنه فاقد ما يعتبره مبرر وجوده كرجل.

ثم «لويا»، التي ستكتشف أنها وُلدت في حضن أمّ زانية وكاذبة.

ثم «خوسيه»، الذي سيكتشف أنه حُرم من أبوّة «لويا» في طفولتها، وفي صباها، ولا يزال يتهيبها كسيدته.

وستقتلني أنا، الأم المخادعة، والزوجة الخائنة، وقد فات زمن توبتي.

وسكتت «إيليانا». فعاد الصمت لغة الفراغ في «مقهى غوركي».

واذ أمسكت حقيبة يدها فقد تأخرت لتنهض وتغادر. لعلها كانت تبحث عن كلمات تقولها لجاناد قبل أن تودّعه. فقالت له وهي تمد يدها لتصافحه:

ـ لم أسألك عن زوجتكَ. . أين هي؟

ـ زوجتي في بلادها. وأظن أنها الآن تعرف عنواني. وأنا في انتظار أن نلتقي قريباً. .

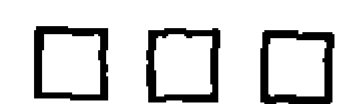
ـ هل تسمح لي بعنوانك؟

ـ عنواني حيث أنا الآن.

ومشت إلى الباب لتخرج، ومشى هو إلى جانبها. وعلى الباب توقفت، ثم استدارت نحوه. بدت متردِّدة وهي تهمّ بأن تقول كلاماً ثم تحجم. . ثم قالت:

ـ أتعلم، سينيور آلافاندي؟ لقد خسرتَ ثروة تعاقَبَ ثلاثة رجال من ثلاثة أجيال على جمعها بالتعب، والصبر، لتؤول إليكَ. . . فرفضتَ.

أحنى رأسه لها امتناناً وعاد إلى طاولته.



XII

مضى شهر، وشهران، وثلاثة وأكثر، والسينيور مداوم في «مقهى غوركي»، يقرأ، ويرسم، ويشرب قهوة، ويدخِّن، ويُفكّر، ويتطلع نحو الباب، وينتظر «مونيه».

وفي فترة انتظاره، اكتشف كيف يمضي الوقت الطويل سريعاً، ومن دون ملل، حين يكون ثمّة أمل..

واكتشف أن المرء يمكن أن يعيش سعيداً بانتظار السعادة. وقد لا يحصل عليها، ومع ذلك، يظل يشعر بالسعادة في انتظارها، ولو لم تأتِ.

ولم يكن السينيور لييأس. كان حدسه أن «مونيه» ستأتي يوماً.

وقد صدق حدسه، وظهرت «مونيه» ذات يوم في باب المقهى.

كاد يهبّ واقفاً ليلاقيها، لكنه لاحظ أن شاباً يمشي إلى جانبها، فبقي جالساً في مكانه. ثم رآها تتجه مباشرة نحو طاولته.

وإذ وقف ليستقبلها عانقته كصديق، ثم قدّمت إليه رفيقها:

ــ صديقي «لويس لورنزو».

ثم قالت لصديقها مُعرِّفة عن جاناد:

ــ زوجي السابق السينيور جاناد آلافاندي!

حدث ذلك بسرعة وبساطة.

وأخذت «مونيه» المبادرة لتُمازح جاناد وكأنهما كانا معاً قبل ساعة:

ــ إنك سائح مميز في هذه المدينة. تسحب من رصيدك في البنك الفرنسي، وتمضي نهارك في هذا المقهى، وتتنقل ليلاً بين صالات السينما، والمسارح، ودور الأوبرا، والمتاحف، ولا تفوتك سهرة مع «الفلامنكو» و«التانغو» مرة في الأسبوع.

وقاطعها جاناد:

ــ يبدو أن لديك مخبرين سريّين.

ولم تعلِّق إنما تحولت نحو صديقها «لورنزو» لتزيده تعريفاً بجاناد:

ــ إنه رسَّام مُبْدِع. وقد علِقتُ أنا بسهولة في شبكة ألوانه. وأقول أمامه بصراحة إنني عشتُ معه سعادة بلا حدود، ولكن..

ثم سكتت ونظرت إلى جاناد، وتابعت:

ــ لكن، طرأ له حدث سعيد، فافترقنا.

قالت ذلك وهي تستوي جالسة وترد شعرها إلى الوراء، فبانت أُذناها من دون «الحَلَق الفضّي».

كانت تلك علامة غير سارّة لجاناد، بيد أنه تظاهر باللامبالاة.

لكنّ «مونيه» لم تدعه يقتنص لحظة ليقول كلمة، فمالت نحو اللوحة السوداء، وقرأت الرأي المكتوب عليها: «مشكلة الحرية أنها حق للجميع».

وكان هو كاتب الرأي في ذلك اليوم. فسألته:

ـ هل تؤيِّد هذا الرأي؟

ـ بالتأكيد أؤيّده تماماً.

ـ لكن إلى أين ستودي بنا الحرية؟

ـ ليس لي إلمام بعلم الغيب. فقد تودي بنا إلى المجهول. لكن الحرِّية حق، وثمّة من يفتك بها وهو يدّعي حمايتها. تلك هي مشكلة الحرية. إنها قد تحمل معها سبب موتها ولو إلى حين.

ـ هل تتوقع ذلك؟

ـ لا أتمناه. لكن لا أحد يستطيع التنبؤ بما يمكن أن تفعله الشعوب بحريتها عندما تتحرر. فثمة استعمار آخر خفي، مدمّر، يكمن في ثقافة بعض الشعوب التي تعيش زمناً طويلاً محرومة من الحرية والكرامة. لذلك، إذا أصيب وطن بمرض، فعلى الشعب أن يأخذ هو الدواء.

ـ إنك تزداد نُضجاً، وحكمةً، وبلاغةً. قالت «مونيه» ثم وقفت وأكملت:

ـ حسناً سينيور آلافاندي. كانت مصادفة سارة، آمل أن تتكرّر.

فوقف ليصافحها. وإذ تابعها وهي تغادر مع صديقها شعر بالصدمة ذاتها التي أصابته يوم اختفت في محطة الميناء. بل كانت الصدمة الثانية أشد وطأة. فعاد وجلس في مكانه. وبعد قليل طلب كأساً من الشراب، ثم طلب آخر. ومكث وقتاً طويلاً استعاد خلاله محطات رحلته من بيروت إلى «بوانس آيرس»، حتى اللحظة التي هو فيها.

كان يبتسم ساخراً من نفسه، متسائلاً: «والآن أي سبب، أو مبرر، يجعلك تبقى في «بوانس آيرس»، يا سينيور؟».

لكنه، في نهاية ذلك اليوم، كان قد اقتنع بالبقاء: «فهذا العالم الجديد الذي أجد نفسي فيه يستحق أن أعيشه من دون «مونيه».

وفي اليوم التالي وصل إلى «مقهى غوركي» باكراً. قرأ عناوين الصحف التي يحملها، وأرجأ التفاصيل إلى وقت آخر. ثم بسط أمامه على الطاولة رقعة كرتون، وأخذ ينظر إلى الشارع من خلف الزجاج. كتب أكثر من وجه رآه عابراً، وبين وقت وآخر كان يضع خطوطاً.

وإذ حوَّلَ نظره عن الشارع إلى الداخل رأى «مونيه» تقف على مقربة من طاولته. فوجىء بها كأنه اكتشفها من جديد. تقدمت

وعانقته، ثم جلست. وكما لو أنهما كانا معاً وافترقا قبل دقائق قليلة، مدت يدها وسحبت قطعة الكرتون من أمامه وأخذت تحدّق في الخطوط.

كان من الصعب أن تتبين ملامح الشكل الذي سيتكوّن في لوحة.

بيد أنها افترضت، بل تعمّدت أن تفترض، أن الخطوط التي تراها هي ملامح وجه امرأة. فسألته:

ـ وجه من هذه؟

لكنه تجاهل سؤالها ليسألها ماذا ستشرب؟

ـ لم أُبدِّل قهوتي.

ـ لكنكِ بدّلتِ زوجكِ.

فضحكت كما لو أنه ألقى نكتة. وانتظرت صامتة حتى جاءت المضيفة بفنجان القهوة، فقالت له:

ـ تأخرت حتى أتيت إليك. كان من المفترض أن آتي يوم قرأتُ إعلانك الطريف في صحيفة «لابابيس». كان إعلاناً ذكياً. ولا بدّ أنه لفت آلاف القرّاء. ولقد قرأته بسعادة على أنه رسالة مفتوحة موجّهة إليّ. كنت سعيدة لأني اكتشفت عنوانك.

ثم استدركت:

ـ لكن عليّ أن أعترف لك بأني جئتُ إلى هنا متنكرة يوم قرأت الإعلان، وجلست قبالتك على تلك الطاولة (وأشارت إلى

الطاولة رقم ٢٢). وشربتُ قهوتك. قهوتي. وقرأتُ افتتاحية صحيفة «لاكريتيكا»، ثم غادرتُ من دون أن ألفت انتباهك.

وتوقفت قليلاً، فيما جاناد يصغي، ثم تابعت:

ـ ولقد جئتُ تكراراً في ما بعد. كنت أمرّ عابرة إلى جناح اليمين، أو إلى جناح اليسار. فأنا أعرف تماماً أين كانت طاولة والدي هنا. وفي كل مرة كنت آتي في شكل امرأة أخرى. وقد نجحت في مراقبتك مع الاطمئنان عليك.

ـ ولماذا كنت تتنكّرين؟

ـ لكي أدعك حراً.

ثم انحنت على الطاولة، حتى تدلى الحَلَق الفضّي من أُذنيها:

ـ كيف حال عروسكَ؟

ـ ليست لي عروس، أجاب فوراً. ثم قال: كانت لي عروس واختفت!

ـ وماذا عن ابنة عمك «لويا»؟

ـ هي مع أهلها. وأنا حيث أنا. لكن ماذا عنك أنت «مونيه»؟

لم تجب عن سؤاله، فسألها:

ـ لماذا اختفيتِ؟

ـ وهل كان لي خيار آخر؟ لقد رأيتُ عروسك بانتظارك. فكان عليّ أن أتوارى فوراً، وقد تواريت ركضاً..

ـ لكننا كنا على موعد. هل نسيتِ موعدنا ذلك اليوم الخميس في دائرة القاضي المدني في بلدية «بوانس آيرس»؟

ـ إنسَ ذلك الموعد. لديك موعد أهمّ. أنسيت أن يوم الخميس المقبل يصادف عيد ميلادك؟

ـ تهربين من موعد عقد زواجنا، وتتذكرين عيد ميلادي؟

ـ ذاك موعد قد مضى. موعدنا الجديد مساء الخميس في فندق «غاريبالدي». إنك تتذكر الإسم.

وأكملت: نلتقي هنا، عند «غوركي»، الساعة الثامنة تماماً، ونذهب معاً.

ثم عانقته كصديق، وتركته وحيداً.

كانت ممطرة تلك الليلة، ليلة الخميس ـ الجمعة. وكانت صالة «ميلانو» في فندق «غاريبالدي» على موعد مع النخبة التي تعرفها في مناسبات متكررة، وهي نخبة وزراء، ونواب، وسفراء، وضباط، ومديري شركات وبنوك، ومؤسسات أزياء وعطور، وإعلاميين. وكان مُصوِّرو الجمال في طليعة فريق الاستقبال على باب الصالة عندما وصلت «مونيه غوليز» متأبّطة ذراع السينيور آلافاندي، فعَلا التصفيق. كانت «مونيه» رافلة بفستان زهريّ اللون، ومُزدانة بالحلق الفضي. أما جاناد فكان بلباس السهرة الرسمي.

ـ هل نحن مدعوون إلى حفلة عرس؟. سأل جاناد. فردّت مونيه:

ـ ماذا يمنع أن نعتبرها حفلة عرسنا؟ هل من الضروري أن نُعرِّج على القاضي المدني لنوقّع تلك الورقة التي يعنيك أمرها؟

ـ لكننا كنا قد اتفقنا على أن نوقّعها، وأنتِ اخترت يوم خميس.

ـ إنسَ ذلك الموعد، وانس تلك الورقة. قالت «مونيه»، وهي تشق صفوف المدعوين إلى وسط الصالة، حيث دائرة الرقص على أنغام موسيقى أوبرالية. وقد رقصا كما لم يرقصا في ليالي الباخرة.

وقبيل منتصف الليل انطفأت الأضواء لتعود وتشتعل بعد لحظة، فتضجّ الصالة بالموسيقى الصاخبة مع أغنية تبارك للسينيور آلافاندي عيد ميلاده. كانت قاعدة قالب الحلوى مصنوعة من الشوكولا الداكنة اللون بشكل تفاحة. وكانت «مونيه» تحمل سيفاً من الفضة، قدمته إلى جاناد ليقطع القالب، فتقدم وأطفأ شمعة تحمل الرقم ٢٢، ثم قطع القالب، وإذ فارت الشامبانيا تعانق العروسان.

وفي ساعة مُتأخِّرة تأبّطت «مونيه» ذراع جاناد، وسارا نحو ركن الاستقبال، فسارعت الموظفة لملاقاتهما بباقة ورد مع مفتاح. وصعدا إلى الطابق السابع.

وكراقصين في فرقة «باليه» عبرا الرواق على السجاد البنفسجي إلى آخره، حتى توقفا أمام الباب رقم ٧١٧. فوضعت «مونيه» المفتاح في يد جاناد.

في الداخل كانت زجاجة «شامبانيا» في جردل ثلج. وإذ فاضت الرغوة، تعانق الكأسـان حتى ما قبل الفجر.

ظهيرة اليوم التالي، قرابة الثانية عشرة، كانت وجبة الفطور قد انتهت في الصالة البيضاء في فندق «غاريبالدي». ولم يكن قد بقي في الصالة سوى «مونيه» وجاناد، ولم يكن على الطاولة أمامهما سوى فنجاني قهوة فارغين.

كان جاناد مُطرقاً، مُصغياً إلى موسيقى هادئة، وهو ينقر بأصابعه على شرشف المائدة. أما «مونيه» فكانت تعيد النظر إلى وجهها في مرآتها الصغيرة. لم تكن قد تهيأت بعد للخروج من الفندق بزينتها الكاملة. مدت يدها اليسرى فلامست يد جاناد. ثم قالت له:

ــ أغمض عينيك.

أغمض عينيه. ففتحت راحة يده ودسّت فيها شيئاً، وأطبقت أصابعه.

ــ انظر إليّ جاناد.

فتح عينيه ونظر إليها.

ثم.. وهي تشدّ على قبضة يده، قالت له:

ــ إني أُعيد إليك الأمانة، فأرجو أن تحتفظ بها لمن تستحقها.

وأردفت:

ــ أنا لا أستطيع أن أكون لك إلّا عشيقة.

ببلادة تأمّل قرطيْ الحلق الفضّي في راحة يده، ثم سألها:

ــ لمن أحتفظ بهذه الأمانة؟

ــ لصبيّة قالت لك السيدة الفلسطينية إنها ستجدك، أو تجدها، فتكون لك حبيبة وزوجة.

أحنى رأسه موافقاً، ثم وضع القرطين في جيبه، فاستدركت «مونيه»:

ــ عُذراً جاناد. كان عليَّ أن أضعهما في علبة زرقاء.

ــ لا عليكِ، لقد تسلّمتهما هكذا من السيدة المقدسية.

ــ لكن لديّ ما أقوله لكَ بعد.

ــ ماذا بعد؟

ــ إسمع جاناد، واحفظ ما سوف أقوله لك:

ــ العشيقة تُبدّل وتُستَبدل . . . الحبيبة لا تُبدّل ولا تُستَبدل.

فابتسم بمرارة. ثم نهض، وصافحها مودّعاً، كصديقة.

وما إن استدار مُسرعاً حتى قالت له:

ــ ألا تريد رقم هاتفي؟

توقف، واستدار ببطء نحوها:

ـ ليس لدي هاتف لأبادلك الرقم.

وإذ استدار من جديد ومضى، نادته:

ـ ألا تقول إلى اللقاء؟

فرفع يده وهو يمشي، ولم يلتفت إلى الوراء.

ولاحقه صوتها: لن أنساك.

خارج الفندق على رصيف الشارع، وقف جاناد كأي عابر سبيل، في انتظار سيارة تاكسي، وقد طال انتظاره. كانت سيارات تاكسي كثيرة قد مرّت ولم يشر إلى واحدة منها.

كان حائراً بين أن يتوجه إلى مقهى «غوركي» أو يتوجه إلى شقته. لكنه فضّل الشقة، ذلك لأنه كان في لباس سهرة أمس: بزّة كحلية اللون، وربطة عنق حمراء.

دخل شقته فوقف أمام المرآة وراح يتأمل وجهه ساخراً.

ثم أخذ يسائل وجهه، ويجيب نفسه:

ـ هل أنت خائِب؟ نادم؟ بائِس يا «سينيور»؟

ـ لا، لست نادماً، ولا بائساً، ولا خائِباً.

ـ ماذا ستفعل بعد الآن؟

ـ سوف أبدأ من جديد.

ـ كل مرة تدّعي أنك ستبدأ من جديد.

ـ وسأستمر أبدأ من جديد.

ـ هل ستعود إلى وطنك؟

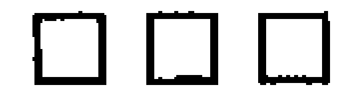
. . . وراح يتذكّر. تذكّر أن والدته قالت له على ميناء بيروت إنها ستغادر لبنان لأنه هو مغادر، وإنها سوف تعود حين يعود هو. لكنها، بعد أشهر من استقرارها في مدينتها الإسكندرية، كتبت تقول له أنها انتسبت إلى «نادي الفروسيّة»، وأنها تستعيد المهرة «الصبحة» التي انتحرت على ضفة بحيرة «ربوا».

وفي رسالة أخرى، مازحته قائلة أن الفارس الذي يدرّبها قد عشقها. وفي رسالتها الأخيرة أبلغته أنها تزوجت فارسها.

وعاد إلى النظر في الوجه الذي في المرآة:

ـ لم تجبني عن سؤالي: هل ستعود إلى وطنك يا «سينيور»؟

ـ لم يبق لي أحد في الوطن، ولا خارج الوطن. أنا آخر عائلة «الأفندي».



XIII

ذات يوم، بتاريخ غير محدد، وصل السينيور إلى بلدة «ربوا»، وراح يمشي بين بيوتها، فلم يعرف أحداً، ولم يعرفه أحد.

ظنّ أنه أخطأ البلدة، فسأل عن الطريق إلى «حارة الأفندي»، فقال له رجل عجوز جالس على شرفة منحنية فوق الطريق:

ـ تابع دربك نزولاً حتى تصل إلى الفرن. هناك، إسأل أحداً فيدلك على الطريق إلى «حارة الأفندي».

تابع دربه نزولاً، وهو يتطلع إلى كل بيت على الجانبين. بيوت كثيرة فوق الطريق، وتحت الطريق. كان يتوقف ويتلفت يميناً ويساراً باحثاً عن علامة تؤكد له أنه في «ربوا»، فلم يجد علامة واحدة تذكّره بها.

كلّ البيوت أمامه باطون وألومنيوم. لا حجر، ولا خشب، ولا قرميد.

وتذكّر بيتاً في «ربوا» كان يُسمّى «البيت الأحمر» فراح يبحث عنه فلم يعثر عليه. وسأل عنه فتى عابراً فأجابه: إنك تقف أمامه.

تطلّع «السينيور» إلى «البيت الأحمر» فلم ير على سطحه علم «المنجل والمطرقة»، إنما رأى علماً أبيض عليه صليب وهلال، فاكتشف أن «المنجل» صار هلالاً، و«المطرقة» صارت صليباً.

فتابع دربه نزولاً حتى وصل إلى فرن.

وعند الفرن وجد نفسه مطلاً على الوادي.

تذكّر شجرة «ميس» كبيرة، حيث كان كبار السن ينعمون تحتها بمتعة الجلوس في ظلال الأمسيات. وعندما لم يجد الشجرة أدرك أنه أخطأ المكان. دخل الفرن فوجد امرأة وحيدة متكئة على لوح خشب، وأمامها بعض الأرغفة.

لم يشمّ رائحة طحين، ولا رائحة عجين، ولا رائحة خبز، فسأل المرأة عن «حارة الأفندي»، فقامت من مكانها وتقدمته إلى خارج الفرن. قالت له وهي تشير بإصبعها:

ـ «حارة الأفندي» خلف ذاك البيت الأصفر. بعد ذلك البيت تماماً سوف ترى «منشرة». وخلف «المنشرة» تطالعك بوابة «حارة الأفندي».

واستدركت المرأة قائلة:

ـ لا أظنّ أن أحداً هناك.

فسألها: ألم تكن هنا شجرة «ميس» كبيرة يا ستّ؟

ـ نعم، نعم. كانت هنا شجرة ميْس كبيرة، كبيرة، في مكان هذا الفرن. ثم سألته: من أين حضرتك؟ يُخيّل إليّ أني أعرفك؟

فأجاب السينيور:

ـ أنا كنت كشافاً، وسبق لي أن زرتُ صديقاً لي في هذه البلدة. وقد جلسنا هنا وتفيأنا بظلّ شجرة الميْس.

فقالت المرأة: كان هذا من زمان. رزْقَ الله على أيام زمان.

ومشى السينيور نحو المنشرة، فرأى أمامها بوابة «حارة الأفندي». كانت مقفلة. كانت غرفة الحارس «عساف» مفتوحة. ولم يكن هناك «عساف».

كانت الحرارة عالية. ولم يكن ثمة ظل لشجرة. فقد اختفت شجرات الكينا الدهريّة. واختفت غابة الصنوبر و«فندق الهرم».

تطلّع السينيور إلى الخلف، ولم يكن خلفه إلّا المنشرة، وبقايا جذوع من أشجار صنوبر، وسنديان، وزيتون، وجوز، ودلب.

تقدّم وضغط على جرس البوابة، وانتظر، فلم يردّ أحد.

ونادى بصوتٍ عالٍ: مَنْ هنا؟

فخرج له فتى من المنشرة، وسأله:

ـ مَنْ تريد؟

ـ أريد أن أسأل: حارة مَن هذه الحارة؟.

فردّ الفتى مُستهجناً:

ـ ألا تعرف أن تقرأ يا عمّ؟ إقرأ المكتوب على عمود البوابة أمامك.

قرأ المكتوب: «حارة راجي أفندي الطرّاش».

ـ هل راجي أفندي هنا؟ سأل السينيور.

فأجاب الفتى:

ـ راجي أفندي يكون هنا في أيام الصيف. أما في باقي أيام السنة فإنه مع العائلة في بيروت، وأحياناً يأتي في فرص الأولاد والأعياد. لكن السائق يأتي ويتفقد الحارة. هل تريد منه شيئاً يا عم؟

ـ أبداً، أبداً. إنما قل لراجي أفندي إن «**جاناد الشنتير**» جاء ليسأل خاطرك!.

عاد السينيور، ووقف على كتف الوادي، وتطلّع صوب النهر، فلم يسمع له صدى.

نظر إلى مجرى النهر المُتعرِّج من مطله في أعلى الجبل إلى الوادي فلم يرَ له أثراً.

وذهب إلى النهر فلم يجد إلّا غديراً قاحلاً.

وصادف مرور راعٍ يتقدّمه تيس برتبة «كرّاز». كان «الكرّاز» يمشي مختالاً، وفي عنقه قلادة أجراس ونواقيس تعزفُ له موسيقى القيادة.

عبَر الراعي و«كرّازه» الغدير القاحل، فسأل «السينيور» الراعي:

ــ كان هنا نهر، فأين اختفى؟

ــ النهر الذي تسأل عنه انسحب عائداً إلى منبعه.

ــ وأنت، أين قطيعك؟

ــ لم يبقَ منه غير هذا «الكرّاز».

ــ ولماذا تحتفظ به؟

ــ هو لا يتخلّى عني. فكما ترى، هو الذي يتقدم عليّ، وأنا الوحيد الذي يتبعه. وكلما حاولت أن أتقدم عليه ينطحني.

ــ وأين الناطور؟

ــ من زمان استغنت «ربوا» عن الناطور. ولماذا الناطور؟. لم تعد هناك حقول. لا أشجار، ولا مواسم. فماذا ينطر الناطور؟

وتردَّد السينيور قبل أن يطلع إلى تلة «ربوا» حيث سنديانة «ياسمين». خاف أن لا يجد السنديانة. لكنه وجدها في مكانها.

كانت السنون قد تراكمت على الجذع طبقات، طبقة فوق طبقة. أربعون طبقة تراكمت. وقد بلغت «ياسمين» السابعة والأربعين، وما تزال طفلة في رحم السنديانة.

دار السينيور حول السنديانة، كأنه يدور حول مزار مقدس.

وتلمَّس الجذع، كما لو أنه يتلمَّس أيقونة.

أكثر من مرة تلمّس الجذع في موضع نقطة النون فوق آخر حرف من اسم «ياسمين».

ثم مدّ يده إلى «قرص» السنديانة، فاكتشف فيه شقّاً عميقاً حفرته الطبيعة. وتخيّلهُ فتحة صندوق نذورات. فأخرج من جيبه قرطَي الحلق الفضّي، وأسقطهما فيه. فشعر بأن الأمانة المقدسية ذهبت إلى العروس المخطوبة لملاك في السماء.

□ □ □

XIV

. . . وذات يوم، بتاريخ غير محدد، وقف السينيور على رصيف شارع «رستم باشا»، في منطقة «عين المريسة» في بيروت، ونظر إلى واجهة «أوتيل دي مارين».

وقع نظره أولاً على الغرفة رقم ١٧ في الزاوية الشمالية الغربية من الطابق الثاني، فرأى ألواحاً من «التوتيا» تسدّ الأبواب والنوافذ التي كانت سابقاً من الخشب المزخرف والزجاج الملوّن.

وإذ حوّل نظره إلى الشرفات رأى حبالاً مُثقلة بالثياب الرثّة المنشورة، وبينها ذلك «الشورت» الذي بلون الوحل، وكأن كلباً قد علكه، فلما استعصى عليه بصقه.

كانت حديقة «الأوتيل» من دون تصوينة، وقد تراكمت فيها قطع سيارات محطّمة أو محترقة. وكان الطابق الأرضي بكامله ورشة «حدادة».

وعلى وقع مطارق الحديد، سمع السينيور صوتاً من الجبل يغنّي في الخراب:

«سيّجنا لبنان.. وعلّينا سياجو»
«هالبيت العمران.. شعشعنا سراجو»

فطلع صوت السينيور شادياً من عنده:

«سيّبنا لبنان.. وفتّحنا بوابو»
«هالبيت الخربان.. وين راحو صحابو؟..»

□□□

XV

... وذات يوم، بتاريخ غير محدد، كانت في حوض ميناء بيروت باخرة تتأهّب للإقلاع.

كان مسافرون قلائل صعدوا إليها، وبقي آخرون.

وكان رجال الجمارك منهمكين في معالجة مشكلة لم يواجهوا مثلها من قبل.

كان أمامهم على رصيف الشحن صندوق كبير بشكل مكعّب، طوله متران، وعرضه متر، وكان ملفوفاً بالعلم اللبناني.

نودي على صاحب الصندوق بمكبّر الصوت: «السينيور جاناد آلافاندي».

فحضر السينيور، فسأله مُفتِّش الجمارك:

ـ هل أنتَ جاناد آلافاندي؟

ـ نعم.

ـ هل أنت صاحب هذا الصندوق؟

ـ نعم.

ـ وماذا في داخله؟

ـ تراب.

ـ تراب؟.

ـ نعم، تراب من أرض قريتي «ربوا».

فحسم مُفتِّش الجمارك الأمر، وأعطى الإشارة برفع صندوق التراب عن رصيف الميناء.

كان صندوق التراب آخر الحمولة المشحونة على الباخرة.

وكان السينيور آخر من بقيَ على رصيف الميناء، وقد وقف يُراقب صندوقه وهو يرتفع معلّقاً في الهواء.

وظلّ يتابعه حتى استقرّ في جوف الباخرة.

. . . فلحق بنعشِهِ.

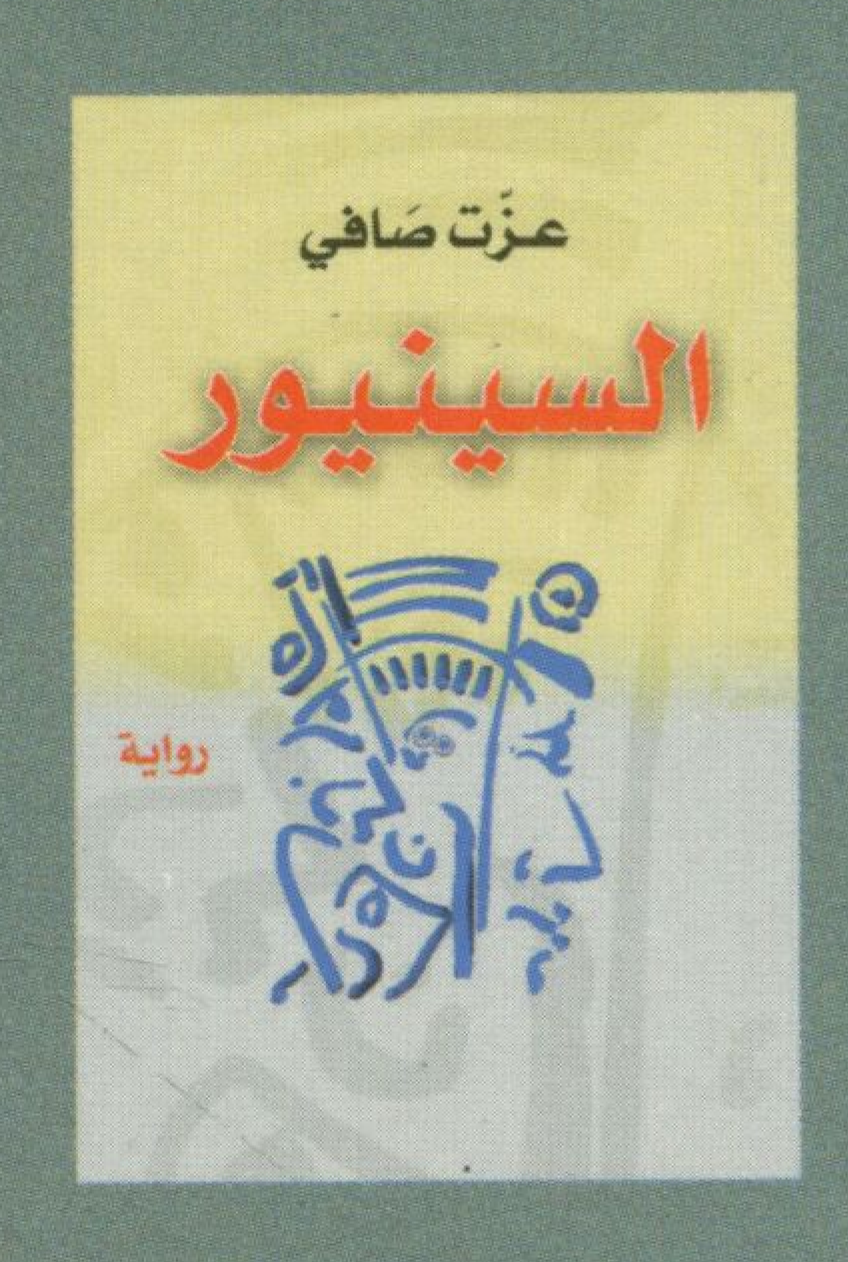
□□□

المؤلف

ـ صحافي لبناني .

ـ صدر له كتاب «طريق المختارة ـ زمن كمال جنبلاط».

□□□



اكتشف السينيور أن هناك بلاداً تسمى «جمهورية آرابانو»، فراح يصغي باهتمام إلى من يشرح له طبيعة تلك البلاد، وموقعها، وأحوال شعبها:

هي بلاد مفتوحة. حدودها من هواء ومن غمام.

هي جزيرة تسبح في محيط رجراج يتشكل من حقول ذهب وبؤر ألغام. عليها من كل جنس ولون ضدّان. تتلاقى فيها الممالك والجمهوريات، الديكتاتوريات، والديموقراطيات، وتزدهر فيها الرأسماليات، والمافيات، وتتآلف الحضارات، والثقافات، واللغات.

إنها نموذج لبلاد تعرف كيف تعيش العزّ والبؤس.

هي ذوّاقة ألم وفرح. تشكو وتشكر. تدين وتصفح. تقتل وترحم. تثور وتتعقّل. تسرق وتتصدق. تكذب وتستغفر. تزني وتعظ. تسقط وتنهض. تموت كل يوم، ثم تولد من جديد.

هي ملعب لرياح الحرية والاستبداد من أينما هبّت.

إنها حالة فريدة في محيطها، فهي إما أرملة، وإما ثكلى وإما ي[illegible] هي، دائماً تحت وصاية أو حماية.





ISBN 978-9953-21-552-5
9 789953 215525